صقر قريش

عبد الرحمن الداخل

عبد المنعم الهاشمي





بسم الله الرحمن الرحيم





دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفوفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

إهـــداء

إلى الذين يصدقون أكاذيب التخلف عن العرب والمسلمين، إلى الذين بهروا بعالم الغرب وظنوا أن البداية منهم، وأن التخلف موروث عربي حطمت قيوده، وموروث إسلامي صُدِّرَ إليهم.

أُهدي لهم سيرة الحضارة والتقدم، والشهامة والتسامح، إنها سيرة « صقر قريش » نعم صقر القبيلة التي حكمت العالم بسماحة وشهامة ونخوة رجالها، فلنقرأ السطور وما بينها.

عبد المنعم الهاشمي

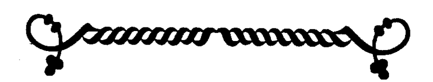
قالوا عن صقر قريش

■ «صقر قريش هو عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحار، و قطع القفر، ودخل بلداً أعجميًا، منفرداً بنفسه، فمصَّر الأمصار، وجنَّد الأجناد، ودوَّن الدواوين، وأقام ملكًا عظيمًا بعد انقطاعه، بحُسْنِ تدبيره، وشدة شكيمته».

أبو جعفر المنصور

■ «قال أبو حاتم: كان عبد الرحمن راجح الحلم، فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئًا من العجز، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه، متصل الحركة، ولا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعًا مقدامًا، بعيد الغور، شديد الحذر، قليل الطمأنينة، بليغًا مفوهًا، شاعرًا، مُحسنًا، سمحًا، سخيًا، طلق اللسان».

نفح الطيب للمقري جـ٢ ص٦٧



مُقَدِّمَة

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله القرشيّ المجاهد العظيم.

أما بعد:

فإن الحديث عن صقر قريش – عبد الرحمن بن معاوية الداخل – يُعد حديث الإيمان؛ لأن الله يدافع عن الذين آمنوا.

وقد خرج هذا الصقر خائفًا مطاردًا، لا ليختبئ ولكن ليعيد مجد أمة، ويرفع رايات دين عظيم، ويُقيم دعائم أسرة انهارت كل أعمدتها حتى ظنّ الناس أنه لا رجعة لأمويّ على وجه الأرض، إنها قصة رجل ارتبط واقعه بمواقف تُشبه الخيال في الكر والفرّ، والبناء والتجديد، تحية لكل من ساهم في بناء دولة الأمويين في الأندلس.

عبد المنعم الهاشمي

بداية النهاية
انهيار الدولة الأموية في المشرق

كانت بلاد فارس مشتعلة بالثورات طوال العهد الأموي، وقد استطاع ولاة بني أمية قمع هذه الثورات والفتن، ولكن قوة الثورة بدأت في التجمع تحت راية العباسيين، وهم أبناء عمومة الأمويين، وانطلقت لتحقيق هدفها وهو القضاء على دولة بني أمية التي سادت مناطق واسعة من العالم ونشرت فيها الإسلام، حتى أصبحت الدولة الأموية رمزًا لقوة العرب المسلمين.

وقد استغرق العباسيون وقتًا طويلاً في الإعداد لهذه الثورة، وبالنسبة للأمويين فلم يكن الأمر مفاجئًا؛ فقد تواترت الأخبار مُنذرة بني أمية بالخطر القادم، ومن ولاة الأمويين «نصر بن سيار» آخر ولاة الأمويين في خراسان، وكان نصر بن سيار عربيًا مسلمًا مؤمنًا، توافرت له كفاءة عظيمة في القيادة والإدارة والحرب.

وظل نصر بن سيار مقيمًا في خراسان وقتًا طويلاً يحاول قدر جهده، ويبذل قدر ما استطاع للسيطرة على هذا الموقف المتأزم، ولكن جهوده كانت تصطدم بمقاومة شديدة من دعاة وزعماء العباسيين، وظهر له في النهاية أن الثورة قد وصلت إلى مرحلتها النهائية، وأسعفه الموت فلم يشهد نهاية الحكم الذي حاول الدفاع عنه.

وقبل موته كتب نصر بن يسار إلى مروان بن محمد يُنذره بخطر أبي مسلم الخراساني، قائد العباسيين في منطقة خراسان وصانع ثورتهم، كتب أبياتًا من الشعر ينذره بالخطر قال فيها:

أرى بين الرماد وميض جمر ... فأجدر بأن يكون له ضرام

فإن النار بالعودين تزكى — وإن الحرب مبدؤها الكلام
نقلت من التعجب ليت شعري — أأيقاظ أمية أم نيام

وقد كان هشام بن عبد الملك قد اختار نصر بن سيّار الكتاني وهو من « اليمنية » لولاية خراسان بسبب ما اشتهر به من الفضائل، وكان ذلك في سنة ١٢٠هـ (٧٣٧م).

وقد وُصف نصر بأنه « أجل القوم وأحزمهم وأعلمهم بالسياسة » وقيل عنه أيضًا: « عفيف مجرب عاقل ».

ولما قيل لهشام بأنّ عَشِيرة نصر بن سيار قليلة في خراسان. أجاب قائلاً: « لا أباً لك، أتريد عشيرة أكثر مني، أنا عشيرته ».

وكان اختيار هشام لنصر بن سيار اختياراً موفّقًا، فقد كانت خراسان تضطرم ناراً منذ عهد طويل، فمضى نصر بعزم لا يلين، وإرادة قوية في إدارة الولاية، وفي خلال أربع سنوات من ولايته عُمِّرت خراسان عمارة لم يسبق لها مثيل، ووضع الخراج، وأحسن الولاية والجباية، وذلك ما جاء في قول الشاعر سوار بن الأشعر وهو يمتدح نصر بن سيار:

أضحت خراسان بعد الخوف آمنة — من ظلم كل غشوم الحكم جبار
لما أتى يوسفًا أخبار ما لقيت — اختار نصراً لها – نصر بن سيار[١]

ومضى نصر بن سيار لإخضاع المناطق المتمردة فيما وراء النهر (نهر جيحون) حيث الأبواب الحديد وسمرقند والشاش وفرغانة والصفر، فأخضع الثورات وقضى على الفتن، وعندما تُوفي هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥هـ، وولي الوليد بن يزيد الخلافة عمل الوليد على تعيين نصر مرّة أخرى على ولاية خراسان[٢].

---

(١) انظر « تاريخ الطبري » جـ٧ ص١٥٨.

(٢) انظر « الخلافة الأموية » عبد المنعم الهاشمي – دار ابن حزم – بيروت.

وعليه فقد تابع نصر بن سيار جهوده في مواجهة الثورة العباسية، فما أن ظهر خطرها حتى تصدى لها بكل قوة، وجابهها بكل حزم، ورأى نصر أن هذه الحركة تعمل ضد العرب، وتهدف إلى القضاء عليهم؛ ولذلك فقد حاول جمع العرب وحشدهم لقتال أبي مسلم الخراساني، وحاول حثّ العرب على ذلك، وحشد طاقتهم، ونبذ خلافاتهم في مواجهة هؤلاء فقال:

أبلغ ربيعة في مرو وفي يمن ... أن اغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب

وما بالكم تنشبون الحرب بينكم ... كأن أهل الحجر عن رأيكم غيب

وتتركون عدواً قد أحاط بكم ... ممن تأشب لا دين ولا حسب

من كان يسألني عن أهل دينهم ... فإن دينهم أن تهلك العرب

ورغم جهوده هذه، فقد وافته المنية في مرو سنة ١٣١ هـ (٧٤٨م) فمضى إلى ربه راضي النفس، مطمئناً.

بعد ذلك حملت عيون بني أمية وجواسيسهم أخبار العباسيين، فعندما باع عيسى بن معقل العجلي خادمه أبو مسلم الخراساني بمبلغ أربعمائة درهم إلى بكير بن ماهان في سنة ١٢٤ هـ - ٧٤١م، عاد أبو مسلم إلى خراسان لنشر الدعوة العباسية، في ذلك الوقت كانت عيون الأمويين ومخابراتهم تتابع حركة أبي مسلم الخراساني وتصرفاته.

وفي السنة التالية (١٢٥ هـ - ٧٤٢م) توفي هشام بن عبد الملك بن مروان، فانهارت هيبة ومكانة الأمويين، وضعفت قوتهم، وفتر بأسهم عندما تولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان الذي أحب الملذات والشراب، وأفرط في ذلك كله.

ومما يُروى في تاريخ الطبري عن سلوك الوليد: أنه تمادى في الشراب وطلب

الملذات فأفرط، فقال له هشام: ويحك يا وليد، ما أدري أعلى الإسلام أنت أم لا! ما تدع شيئًا من المنكر إلاّ أتيته غير متحاشٍ ولا مستتر، فكتب إليه الوليد:

يا أيهـا السـائل عن ديننا   نحن على دين أبي شـاكـر
نشـربهـا صـرفًـا وممزوجـة   بالسـخن أحـيـانًا وبالفـاتر

فغضب هشام على ابن مسلمة - وكان يكنى أبا شاكر - وقال له: يعيُّرني بك الوليد وأنا أرشحك للخلافة! فالزم الأدب واحضر الجماعة. وولاه موسم الحج سنة ١١٩ هـ، فأظهر النسك والوقار واللين، وقسّم بمكة والمدينة أموالاً، فقال مولى لأهل المدينة وهو يعرض ويتهكم بالوليد:

يا أيهـا السـائل عن ديننا   نحن على دين أبي شـاكـر

ولكن المؤرخون قالوا عنه:

«لما وُلّي الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وأفضت إليه الخلافة، لم يتردد في الذي كان فيه من اللهو واللّذة والركوب للصيد وشرب النبيذ، ومنادمة الفسّاق».

فتركت الأخبار الواردة عنه بذلك كراهية إطالة الكتاب بذكرها.

فثقل ذلك من أمره على رعيته وجنده، فكرهوا أمره، وكان من أعظم ما جنى على نفسه، حتى أورثه ذلك هلاكه وإفساده على نفسه بني عمه هشام وولد الوليد ابني عبد الملك بن مروان. مع إفساده على نفسه اليمانية، وهم أعظم فكان أن قام يزيد بن الوليد - الناقص - بقتل الوليد بن يزيد، ولم تمضِ على إمرته أكثر من خمسة عشر شهرًا» (١).

ولكن الأمر لم يستقم ليزيد بن الوليد، فقد خرج عليه سليمان بن هشام بن

(١) الطبري جـ٧ ص٢٣١.

عبد الملك بعمان ودمشق، وخرج عليه أيضًا مروان بن محمد بن عبد الملك الذي كان عاملاً للوليد على حمص.

وأعلنت الأردن وفلسطين تمردهما، ووجه يزيد قواته لإخضاع حركات التمرد المضادة له.

وكان مروان بن محمد في أرمينية، فما أن بلغه مقتل أخيه حتى قدم إلى الجزيرة الشامية متظاهرًا بأنه يطلب دم أخيه يزيد بن الوليد الناقص، ولكن موت يزيد بن الوليد سنة ١٢٦هـ - ولم تمضِ على إمارته ستة أشهر - وضع حدًا للخلاف.

فقد تولى مروان بن محمد إمرة المؤمنين، وكان عليه قبل كل شيء القضاء على «إبراهيم بن الوليد - أبي إسحق» فتم له ذلك بعد سبعين يومًا من وفاة يزيد، ولكن الثورة لم تهدأ، بل اندلعت نيرانها في الكوفة بقيادة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن علي بن أبي طالب، وأمكن القضاء على هذه الثورة بعد جهد، ثم إن حمص والشام أعلنتا تمردهما ضد مروان ثم أعلن سليمان بن هشام الثورة ضد مروان بن محمد وأيده أهل الرصافة.

واحتاجت هذه الثورات إلى جهود ضخمة لإخمادها، فمثلاً لكي يتم إخضاع ثورة حمص تم حصارها عشرة أشهر كاملة، ونصب ما يزيد على ثمانين منجنيقًا عليها لضربها، وفي العراق وخراسان كانت الثورة كلما تخمد تتأجج نارها من جديد، وتنتقل من بلد إلى بلد.

وأدت هذه الثورات إلى تفاقم الخلاف بين القيسية واليمنية، وفي الوقت نفسه ازدادت قوة الخوارج والحرورية، وأصبح الجو أكثر تهيئة للعباسيين ليقيموا دولتهم، فقد أصبحت البلاد مضطربة، وفي ظل هذا الاضطراب نهضوا لتنظيم دعوتهم، وحشد قواتهم، وفي خلال سنوات قليلة أصبح العباسيون قوة لها شأن، ويُحسب لها ألف حساب، بل من الصعوبة مواجهة هذه القوة.

ومع دخول سنة ١٣٠ هـ - ٧٤٦م انطلق أبو مسلم الخراساني رجل العباسيين الأول إلى «مرو» فدخلها بقواته، وتوالت الأحداث سريعًا، فلم يمضِ عام على ذلك حتى اجتاحت قوات الثورة العباسية خراسان وسيطرت على العراق [١].

ولم تفلح جهود مروان بن محمد (آخر الخلفاء الأمويين) في إيقاف حشود العباسيين التي تقدمت حتى وصلت الزاب، ودارت معركة أظهرت فيها قوات بقيادة عبد الله بن علي قدرًا كبيرًا من الصرامة والحزم مما أدى إلى انتصار العباسيين، وهروب مروان ومعه بعض أهله، وغنم العباسيون كل ما كان في معسكر مروان من سلاح وفير وأموال كثيرة، وكانت هذه المعركة تُسمى بمعركة «الزاب» ، وكان جيش مروان فيها قرابة ١٢٠ ألف مقاتل، وعلى الرغم من ذلك فلم يتمكن هذا الجيش من خوض المعركة بسبب انهياره المعنوي.

وعندما هرب مروان، عيّره من ولد سعيد بن العاص بقوله:

لجج الفـرار بمروان فـقـلت له	عاد الظلوم ظليمًا همه الهرب
أين الفرار وترك الملك إذ ذهب	عنك الهوينا فلا دين ولا حسب
فراشة الحلم فرعون العقاب وإن	تطلب نداه فكلب دونه كلب

انسحب مروان إلى حران وبها ابن أخيه إبان بن يزيد بن محمد بن مروان، عاملاً عليها، فأقام بها نيفًا وعشرين يومًا، ولكن عبد الله بن عليّ قاد قوات العباسيين ومضى لمطاردة مروان، فلما اقترب من حران، غادرها مروان ومعه أهله وولده وعياله، ومضى منهزمًا، وخلّف بمدينة حران أبان بن يزيد زوج ابنته والتي كان يُقال لها أم عثمان، وقدم عبد الله بن علي فتلقاه أبان وأعلن تأييده للعباسيين وبايعه ودخل في طاعته فأمنه ومن كان بحران والجزيرة.

ومضى مروان حتّى مرّ بقنسرين وعبد الله بن علي متبع له، ثم مضى من

(١) انظر «الخلافة العباسية» عبد المنعم الهاشمي - دار ابن حزم - بيروت.

قنسرين إلى حمص فتلقاه أهلها بالسمع والطاعة، فاقام بها يومين أو ثلاثة، ثم غادرها، فلما رأى أهل حمص قلة من معه طمعوا فيه، وقالوا: مرعوب مهزوم، فاتبعوه بعدما رحل عنهم، فلحقوه على أميال، فلما رأى غبرة خيلهم، أكمن لهم في واديين قائدين من مواليه، يُقال لأحدهم: يزيد، والآخر: مخلد، فلما دنوا منه وجاوزوا الكمينين ومضى الذراري صافهم فيمن معه وناشدهم، فأبوا إلاّ مكاثرته وقتاله، فنشب القتال بينهم وثار الكمينان من خلفهم، فهزمهم وقتلهم حيلة، حتى انتهوا إلى قريب من المدينة.

ومضى مروان حتى مرَّ بدمشق، وعليها الوليد بن معاوية بن مروان وهو أيضًا ختن (صهر) لمروان، متزوج بابنة له يقال لها أم وليد، فمضى وخلّفه بها حتى قدم عليه عبد الله بن عليّ، فحاصره أيامًا، ثم فتحت المدينة، ودخلها عنوة معترضًا أهلها، وقتل الوليد بن معاوية فيمن قُتل، وهدم عبد الله بن عليّ حائط مدينتها، ومرمروان بالأردن فانضم إليه واليها بمن معه، وسار إلى فلسطين، ثم إلى مصر، وعبد الله بن علي يطارده، إلى أن دارت المعركة الحاسمة في «بوصير» وقُتل مروان بن محمد ومن كان معه، وطويت صفحة العصر الأموي في بلاد الشام، وأُرسل رأس مروان إلى السفاح بالكوفة[١] .

وقد تمثل أبو العباس السفاح بالبيت التالي:

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ... ولا دماؤهم للغيظ ترويني

ومضى السفاح وأعوانه من الفرس يُتابعون أعمال الإبادة، وكان السفاح قد اتخذ من فارس رجلاً اسمه «سديف» مستشاراً له ومعينًا، ودخل سديف على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك، وقد أكرمه السفاح، فقال سديف محرضًا:

لا يغرنك ما ترى من رجال ... إن تحت الضلوع داء دويًا

فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويًا

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ج٤ من ص٣٢٨ إلى ص ٣٣٢ .

فقال سليمان: قتلتني يا شيخ، ودخل السفاح وأخذ سليمان فقُتل، وكذلك دخل شبل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي وعنده من بني أُمية نحو تسعين رجلاً على الطعام، فاقبل شبل واستشاره بأبيات من الشعر قال فيها:

أصبح الملك ثابت الأساس   بالبهاليل من بني العباس
طلبوا وترها ثم خشفوها   بعد ميل من الزمان وباس
لا تقبلن عبد شمس عشاراً   واقطعن كل رقبة وغراس
ذلها أظهر التودد منها   ووبها منكم كحر المراس
ولقد غاظني وغاظ سوائي   قربهم من نمارق وكراس

فما كان من السفاح إلاّ أن أمر بهم عبد الله، فضربوا بالعمد حتى قُتلوا، وبسط عليهم الأنطاع فأكل الطعام عليهم، وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعًا.

وكان فيمن قُتل محمد بن عبد الملك بن مروان، والغمر بن يزيد بن عبد الملك، وعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وسعيد بن عبد الملك، واستصفى كل شيء لهم من مال وغير ذلك، فلما فرغ عبد الله بن علي من مصرعهم أنشد شعرًا عبّر فيه عن شماتته.

وقيل إن سديفًا هو الذي أنشد هذا الشعر للسفاح، ومعه كانت الحادثة وهو الذي قتلهم. وقيل: إنه قال شعراً عبّر عن شماتته جاء فيه:

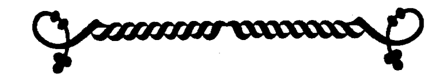
بني أمية قد أفنيت جمعكم   فكيف لي منكم بالأول الماضي

وقتل سليمانُ بن علي بن عبد الله بن عباس بالبصرة أيضًا جماعةً من بني أمية عليهم الثياب الموشاة المرتفعة، فلما رأى ذلك بنو أمية اشتدّ خوفهم وتشتت شملهم واختفى من قدر على الاختفاء.

وقد وجه العباس قوة لقتال الأمويين، فانطلق قائد القوة يُنشد شعرًا يُصور حال الأمويين جاء فيه:

يا آل مروان إن الله مهلككم ومبدل بكم خوفًا وتشريدًا
لا عمر الله من إنشادكم أحدًا وبثكم في بلاد الخوف تطريدًا

وانهارت الدولة الأموية في جو من المأساة الرهيبة، قد يصعب على المؤرخ وصفها وتصويرها؛ لما فيها من أعمال انتقامية تدل على الحقد الذي تجرد مرة واحدة، فلم تعد للحياة الإنسانية قيمة تذكر؛ ولذلك فقد كان كل من يحمل اسم «أمية» مهدد بالفناء والعدم، وكان لزامًا عليه أن يدفع ثمن هذا الانتساب، حتى وإن كان مظلومًا؛ ولذلك فقد كان محظوظًا من استطاع الهرب أو التواري من أمام هذه الجحافل المنتقمة الحاقدة.



الأندلس قبل الفتح الإسلامي

الأندلس هي شبه الجزيرة المعروفة باسم أسبانيا، وقد كانت أسبانيا في ذلك الوقت الذي امتدّ فيه سلطان العرب إلى الشواطئ القريبة منها، وإلى الجزر المجاورة لها، خاضعة لنير القوط، وكانت قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون كإفريقية، ولاية رومانية تخضع لسلطان روما.

يقول المستشرق الهولندي رينهرت دوزي[١]:

« كانت أسبانيا وقت أن تطلعت إليها أنظار المسلمين شديدة الضعف، ميسرة تمامًا على من يغزوها، ويرجع ذلك إلى ما كان عليه مجتمعها من وضع مؤلم، يتسم بالوهن الذي لم يكن جديداً عليها، بل كان متأصلاً فيها منذ وقت بعيد، فلم تكن تفترق في شيء - أيام كانت ولاية رومانية - عن بقية الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية أيام كانت تحت حكم القياصرة الأواخر من حيث الوضع المحزن، حتى ليقول أحد كتاب القرن الخامس للميلاد أنه لم يعد للإمبراطورية من كل ما كانت تملكه سوى الاسم، أضف إلى هذا أننا نجد فيها قلة من الأثرياء يملكون مساحات شاسعة من الأراضي المعروفة باسم « لاتيفونديا » شبه الإقطاعية، وتقوم إلى جانبهم فئة ضخمة من البرجوازية المنهارة والعبيد ورقيق الأرض، على أن الأثرياء وأصحاب الامتيازات وجميع الذين يشغلون المناصب السامية في الإمبراطورية وهم الذين انفردوا وحدهم دون سواهم بأن يسموا بالأمراء، والذين كانوا ينفردون بأن تنسب إليهم ألقاب الشرف.

وكان هؤلاء كلهم معفون من جميع أنواع الضرائب التي تحملت عبْأها

---

(١) « المسلمون في الأندلس » تأليف رينهرت دوزي - ترجمة وتعليق د/ حسن حبشي - ط مصر - هيئة الكتاب جـ١ ص ٢٧ .

الطبقة الوسطى وحدها، كما كان هؤلاء المتميزون يتقلبون في متارف النعيم، ويعيشون عيشة الترف، فيسكنون القصور المطلة على الأنهار الجميلة، والواقعة على سفوح تلال تلاصقها كرمات العنب وأشجار الزيتون، وحيث يقضي أصحابها أيامهم في اللهو والسباحة والمطالعة والقنص والولائم »[١].

أما قصورهم فقد كسيت أبهاؤها بالطنافس الشامية والإيرانية المطرزة الموشاة، فإذا حلّت ساعة الطعام أثقل الخدم الموائد بأشهى أنواع اللحوم وفخر الأنبذة وترى الضيوف متكئين على سُرر مغطاة بمفارش أرجوانية يتطارحون الشّعْر، ويلقون السمع إلى أجواق العازفين ويتطلعون إلى الراقصات، ولم تؤدِ حياة البلهنية هذه إلاّ إلى مضاعفة بؤس العدد الكبير من أهل البلاد.

أما الطبقة الوسطى المعروفة بالكوريال (أو صغار الملاك) الذين يسكنون المدن ويقومون بتصريف الأمور المحلية فقد كانوا في أشد حالات الضيق من جراء الضرائب الرومانية.

أما النظام الإداري الذي كان مفروضًا فيه حماية الناس من الطغيان، فقد أصبح وسيلة لتحقيق جميع أنواع الاغتصاب والابتزاز، بل صار ضحية له، ذلك أن قسطنطين الأول قطع المصدر الرئيسي لدخل المدن والولايات باستيلائه على ممتلكاتها في نفس الوقت الذي تضخمت فيه المصروفات الحكومية؛ نظرًا لازدياد البؤس العام، ومع ذلك فقد كان مقدَّرًا في أعضاء الكوريال، وأعني بهم سكان المدينة المالكين لقطاع يزيد على خمسة وعشرين فدانًا، ولا ينتمون للطبقة ذات الامتيازات - أن يقوموا بسداد ما يعجز عن سداده الملزمون وذلك بدفعهم إياه من جيبهم الخاص.

وعجز صغار الملاك عن تحطيم هذا الالتزام الذي تأصّل وأضحى كلاً موروثًا

---

(١) المصدر السابق ص٢٨.

إلى حدٍ غدوا معه مرتبطين بالأرض ارتباطًا لا يستطيعون معه بيعها دون ترخيص من الإمبراطور الذي كان يُعد نفسه المالك الحقيقي لجميع أراضي الإمبراطورية، ويعتبر رعاياه عمَّالاً بها، وكثيراً ما دفع اليأس صغار الملاّك إلى ترك وظائفهم وقراهم للانخراط في سلك الخدمة الحربية أو الاسترقاق، غير أن الحكومة – بعينها النقّاذة ويدها الحديدية – كانت قلما تفشل في كشف أمرهم، وإن كشفتهم أعادتهم قسرًا إلى طائفتهم، فإن لم يقدَّر لها النجاح في ذلك أحلت مكانهم رجالاً ذوي سمعة سيئة أو أشراراً أو هراطقة أو يهوداً أو رجالاً من طريدي العدالة؛ ذلك لأن مرتبة صغار الملاّك أو الكوريال التي كانت في السابق مرتبة شرف وامتياز أصبحت سبة وعقوبة(١).

أمّا بقية الشعب الأسباني (الأندلسي) فكانت إما مزارعين أو عبيداً، وإن لم تكن العبودية الزراعية قد تلاشت غير أنّه منذ مستهل العهد الاستعماري أخذ الاسترقاق في الانتشار بسبب عاملين أحدهما – ما عاناه الريفيون الأحرار من الفقر والضيق الشديد. وثانيهما – هو ارتقاء أحوال عبيد الأراضي، ومن ثم كانت هذه الحال وسطًا بين الحرية والاسترقاق، الذي لم يكن له في بادئ الأمر من قانون سوى العرف أو التعاقد، ثم أصبح منذ عهد دقلديانوس مسألة نظام عام، ومهمة حكومية وموضوعًا يشغل على الدوام بال الدولة التي اضطرت – بأي ثمن – أن تدفع الفلاحين إلى المزارع المهجورة، وبالجند إلى الجيش، ومن ثم صار لهذا النظام أسلوبه الذي يميزه عن سواه، وأصبح له عسكره وقوانينه الخاصة به، أمّا عُمّار الأراضي الذين كانوا يأخذون جزءًا معينًا من غلته، فقد أصبحوا – من بعض الوجوه – في حال أحسن من الرقيق إذ أُبيح لهم الزواج الذي حُرِّم على الرقيق وصار في استطاعتهم امتلاك الأراضي دون أن يتمكن سيدهم من مصادرة أملاكهم، وإن حُرّم عليهم التصرف فيها بالبيع دون رضاه، ثم إنهم كانوا في نظر

(١) «المسلمون في الأندلس» رينهرت روزي جـ١ ص٢٩ .

القانون في مرتبة فوق مرتبة الأقنان، فكانوا يدفعون للدولة ضرائب شخصية، وينخرطون في سلك الجيش، لكنهم كانوا يشبهون العبيد في توقيع العقوبات الجثمانية عليهم، ولا يحق لهم التحرر، ولم يكونوا عبيداً للشخص، بل للأرض، فتراهم مرتبطين بالأرض التي يزرعونها – برباط غليظ موروث لا تنفصم عراه، ومن ثم لا يستطيع المالك أن يبيع أرضه من غير عمّارها، أو العمار من غير الأرض التي هم عليها.

أمّا أشد الطبقات بؤسًا فكانت طبقة الرقيق الذين يُباعون أو يتهاداهم أصحابهم كالأنعام والمتاع، وكان عددهم ضخمًا إذا قيس بالأحرار، حتى قيل: إن البعض اقترح ذات مرة في مجلس الأعيان تمييز الرقيق بلباس خاص بهم، فرفض القوم اقتراحه «مخافة ألاّ يأبه به رقيقنا»(١).

وقيل أن رجلاً واحداً كان يمتلك أربعة آلاف عبد، وقد أخذ عدد الرقيق في التزايد – بدلاً من النقصان – في أُخريات أيام الإمبراطورية، وكان أحد أهالي غاله (وهي فرنسا الحالية) المسيحيين لديه خمسة آلاف من العبيد، وعند آخر ثمانية آلاف، يُعاملون أقسى معاملة، فقد أمر أحد السادة بجلد عبد له ثلاثمائة جلدة؛ لأنه تركه ينتظر الماء الساخن، غير أن الآلام التي كان يذوقها هؤلاء التعساء على يد سادتهم كانت لا تُقاس قط بما يلاقونه على أيدي رفاقهم الموكول إليهم مراقبتهم (٢).

بعد هذه الصورة التي رسمها لنا المستشرق الهولندي رينهرت روزي في كتابه «المسلمون في الأندلس» نتساءل: ألم يكن الإسلام بتعاليمه وشرائعه السمحة ضروريًا لهذا المجتمع الأندلسي المملوء فسادًا من أعلى القمة إلى أسفل القاع؟

(١) المصدر السابق ص ٢٩.

(٢) «المسلمون في الأندلس» تاليف رينهرت روزي جـ١ ص ٣١. ترجمة د/ حسن حبشي.

لقد كان المجتمع الأندلسي (الأسباني) في حاجة ماسة إلى هؤلاء الرجال الذين حملوا العدل على أكفهم وأعناقهم لينشروه في أرض المعمورة كافة بما جاء به دينهم شرائع العدل وفضائل الأخلاق، أما من حيث الجانب السياسي فقد كانت أسبانيا (الأندلس) في الوقت الذي امتد فيه سلطان العرب إلى الشواطئ القريبة، وإلى الجزر المجاورة لها كانت خاضعة لنير القوط وظلمهم، وكانت قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون ولاية رومانية تخضع لسلطان روما، فلما اضمحل سلطان روما وغزتها القبائل البربرية الجرمانية في أوائل القرن الخامس الميلادي اقتسمت هذه القبائل أملاك رومة الغربية، واستولت على إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وكانت إسبانيا من نصيب القوط.



القوط وأسبانيا (الأندلس)

القوط هم إحدى هذه القبائل أو الشعوب البربرية التي هبطت من شمال أوروبا، وقوّضت صروح الإمبراطورية الرومانية، وتقول الأساطير القديمة إنهم نزحوا من إسكندناوة، وهي رواية يؤيدها كثير من القرائن والشواهد.

ويذكر المؤرخ تاسيبتوس، أنهم كانوا منذ ظهور النصرانية إلى أواخر القرن الثاني يسكنون شواطئ البلطيق الجنوبية، وأنّ قبائل عديدة من الوندال كانت تسكن على ضفاف نهر «أودَر» وهنالك من المشابهات بين القوط والوندال، في الدين والعادات والأخلاق والتقاليد، ما يدل على أنهما يرجعان في الأصل إلى شعب أو جنس واحد.

وفي عهد الإمبراطور اسكندر سيڤروس (٢٢٢ - ٢٣٥م) ظهرت طلائع القوط في ولاية «راسيا» [١] الرومانية، وأغارت على بعض مدنها، وكان هذا نزوحهم الثاني، وقد استقروا حينئذ في إقليم «البوكرين» وفي عهد الإمبراطور ديسيوس عبروا نهر الدانوب، وخربوا ولاية فيريا[٢] الرومانية ثم تقدموا إلى قلب البلقان، فسار ديسيوس لقتالهم، ولكنه هُزم، وتفرق جيشه سنة (٢٥٠م) وسار القوط إلى اليونان فعاثوا فيها فسادًا وخربوها.

ولم ينقطع فسادهم ولا عيثهم، حتى نشط الإمبراطور قسطنطين الكبير لقتالهم ورد عدوانهم، فحاربهم في عدة مواقع وهزمهم هزيمة شديدة، وردهم إلى أقاصي راسيا سنة (٣٢٢م) وفرض عليهم شروطًا فادحة، ثم حاربهم الإمبراطور ڤالينس قيصر قسطنطينية، وهزمهم في سنة (٣٦٩م)، وفي سنة

(١) د/ عنان «دولة الإسلام في الأندلس»، كانت ولاية راسيا تقع في شرق حوض الدانوب وتشغل مكان رومانيا والمجر حاليًا.

(٢) تقع ولاية فيريا في وسط البلقان وتشغل مكان بلغاريا حاليًا. المصدر السابق - الهامش جـ١ ص ٢٨.

(٣٧٥م) زحف الهون من المشرق على القوط ومزقوهم، ففروا إلى ضفاف الدانوب واستنجدوا بالإمبراطور وطلبوا الدخول في طاعته، فأجابهم إلى ذلك، واستقروا حيناً في ولاية تراقية، ولكنهم ثاروا مراراً من جراء قسوة الحكام الرومانيين وعسفهم [١].

وفي عهد الإمبراطور هورنويوس، قام القوط بثورة أعظم وأبعد أثراً بقيادة زعيمهم «الاريك»، وخربوا تراقية واليونان، ثم عبروا إلى إيطاليا وافتتحوا رومة ونهبوها سنة (٤١٠م).

ولكن زعيمهم «ألاريك» توفي في نفس هذا العام فارتدوا إلى الشمال، ثم عقدوا الصلح مع الإمبراطور، واندمجوا في الجيش الإمبراطوري، وقاموا بقمع الثورات المحلية في غاليه أو غاليس (جنوب فرنسا)[٢] وشمالي أسبانيا، ثم استقروا في أواسط فرنسا وجنوبها، فيما بين نهري اللوار والجارون، واتخذوا «تولوز» عاصمة لهم، وأقطع الإمبراطور ملكهم مقاطعة «ڤاليا» ليحكمها، وقامت بذلك مملكة قوطية تابعة للدولة الرومانية، وعاون القوط (أو دولة القوط) على محاربة الوندال والآلان والسوابيين، وعاونها بالأخص ملكهم تيودريك الأول ابن «الأريك» على هزيمة آتيلا التتري وبرابرته الهون في موقعة شالون سنة (٤٥١م)، ثم عبر خلفه وأخوه «تيودريك الثاني» إلى أسبانيا؛ لانتزاعها من الوندال والسوابيين المتغلبين عليها، مشترطاً على الدولة أن يحتفظ بما يفتتحه من أسبانيا لنفسه ولعقبه، وحارب الوندال والسوابيين وهزمهم سنة (٤٥٦م)، وافتتح أسبانيا ما عدا ركنها الشمالي الغربي (جليقية) الذي استعصم به الوندال حيناً، ولم تأت نهاية القرن الخامس حتى ملك القوط شبه الجزيرة كلها، وامتدّ ملكهم من اللوّار إلى شاطئ أسبانيا الجنوبي.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» لابن الأثير جـ٤ ص٢٠٥ .

ولكن الفرنج غزوهم من الشمال، وأجلوهم عن فرنسا في أعوام قلائل، فاستقروا في أسبانيا، واتخذوا طليطلة دار ملكهم، ووضعوا لمملكتهم الجديدة نظمًا وقوانين خاصة، تتأثر بروح الحضارة والأنظمة الرومانية، وكانوا أيضًا قد اعتنقوا النصرانية منذ أواخر القرن الرابع، كما اعتنقها الوندال وغيرهم من الشعوب البربرية، التي تقاسمت تراث رومة وأملاكها، ولبث القوط زهاء قرنين سادة لأسبانيا حتى الفتح الإسلامي(١).

أما وقت الفتح الإسلامي، فقد كانت المملكة القوطية تجوز دور انحلالها قبل ذلك بأمد طويل، وكان المجتمع الأسباني يُعاني صنوف الشقاء والبؤس، وقد مزّقته عصور طويلة من الظلم والإرهاق والإيثار، ولم يكن القوط في الحقيقة أُمّة بمعنى الكلمة، فإنهم لم يمتزجوا بسكان الجزيرة، ذلك الامتزاج الذي يجعل الغالب والمغلوب، والحاكم والمحكوم، أمة واحدة، بل كان القوط يستأثرون بمزايا الغلبة والسيادة، وينعمون بإحراز الإقطاعات والضياع الواسعة، ومنهم وحدهم الحكام والسادة والأشراف، أمّا سواد الشعب الأعظم، فقوامه طبقة متوسطة رقيقة الحال، وزرّاع أشبه بالأرقّاء يلحقون بالضياع، وأرقاء للسيد عليهم حق الحياة والموت.

وإلى جانب السادة والأشراف، يتمتع رجال الدين بأعظم قسط من السلطان والنفوذ؛ ذلك أن القوط كانوا أتقياء مؤمنين رغم خشونتهم، وكان للأحبار عليهم تأثيرٌ شديدٌ، وقد استطاعوا أن يوجهوا القوانين والنظم، و أن يصوغوا الحياة العقلية والاجتماعية، وفقًا لمُثُل الكنيسة وغاياتها، ثم استغلوا هذا النفوذ في إحراز الضياع وتكديس الثورات، واقتناء الزراع والأرقاء، وهكذا كانت ثروات البلاد كلها تُجمع في يد فئة قليلة ممتازة من الأشراف ورجال الدين، اختصت بترف العيش ومتاع الحياة، وكل نِعَم الحرية والكرامة والاعتبار.

---

(١) د/ عنان جـ١.

هكذا كانت أسبانيا حينما افتتح العرب أفريقية واقتربوا من شواطئ الأندلس، وكان على عرش أسبانيا يومئذ الملك وتيزا خلف الملك إجيكا وولده، وكان يحكم مملكة مزّقها الخلاف، و شعبًا أضناه العسف، وتحمل بعض الروايات الأسبانية القديمة على وتيزا، وتصفه بأنه كان ملكًا خليعًا فاجرًا، مغرقًا في شهواته، وأنه كان على رأس بلاط منحل وضيع الخلال، ويقول البعض الآخر أنه كان بالعكس ملكًا فاضلاً حَسَن السيرة، وافر الحكمة والعدالة، وأنه عمل على رد المظالم وإقامة العدل.

ويقول د/ عنان [١]: «المرجح المتداول: أنه أحسن السيرة في بداية عهده، وردّ إلى اليهود سابق حقوقهم وامتيازاتهم، ولكنه حاول أن يحد من سلطة الأشراف والأحبار، وأن يجمع السلطة في يد العرش، فسخط عليه الأشراف ورجال الدين، ودبّروا لإسقاطه ثورة بعد ثورة، ولكنه أخمدها جميعًا، وهدم جميع المعاقل والحصون الداخلية؛ لكي يحطم سلطان خصومه ويُجردهم من وسائل الدفاع والمقاومة، فلم يزدهم البطش والهزيمة إلاَّ ظمأً إلى الخروج والثورة، وكان في مقدمة خصومه الذين يخشى بأسهم دوق تيودرفريد الذي نفاه أبوه الملك إجيكا إلى قرطبة، فزاد على ذلك أن سمل عينيه مبالغة في النكاية به، وحاول أن يفعل ذلك في «بلاجيوش» ولد غاڤيلا دوق كتابريا، ولكنه استطاع الفرار من نقمته، وكان الشعب من جهة أخرى يرزح أبدًا تحت نير الجور والإرهاق، فكان عرش القوط يرتجف فوق بركان مضطرم من السخط.

وتقول الرواية النصرانية [٢]: إن الزعماء الناقمين انتهزوا فرصة اقتراب أسطول إسلامي من جنوب أسبانيا ورفعوا لواء الثورة، وأن وتيزا استطاع أن يرد هذا الأسطول، وإن تيودر مير قائد الأسطول القوطي هزم المسلمين في معركة

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» جـ١ ص٣٢.

(٢) المصدر السابق ص٣٣.

بحرية كبيرة، وذلك في سنة (٧٠٨م) ، وربما كان المقصود بهذه المعركة هو الحملة البحرية التي جهزها موسى بن نصير بقيادة ابنه عبد الله سنة (٨٩هـ - ٧٠٨م) وهي المعروفة بغزوة الأشراف، ولكن المسلمين لم يُهزموا عندئذ في أية موقعة بحرية[١].

وكان العرب قد طوقوا أسوار سبته معقل القوط في الضفة المقابلة من البحر، وأمدَّ وتيزا حاكمها الكونت يوليان بأشجع جنده، فانتهز خصومه فرصة ضعفه في الداخل ليدبروا الثورة مرة أخرى، وقاد الثورة عندئذ زعيم جريء هو ردريك ابن دوق « تيودرفريد » الذي فقأ وتيزا عيني أبيه، فكان يُحفّزه باعث الانتقام أيضًا، وكان يتزعم حزبًا قويًا، والتفّ حوله رجال الدين والأشراف والأسر الرومانية، فجمع جيشًا كبيرًا، ونادى بنفسه ملكًا.

ووقعت بين الفريقين حرب أهلية شديدة، وقد قيل إن وتيزا قُتل في هذا الصراع، وخلص الملك لمنافسه، و في رواية أخرى أن ردريك ظفر به وفقأ عينيه انتقامًا لأبيه، ويُقال أيضًا أنه ارتدّ إلى إحدى الولايات الشمالية وامتنع بها حتى وفاته، وكذلك يختلف المؤرخون في تاريخ ولاية ردريك الملك، فيقول البعض، ومنهم ردريك الطليطلي : إنّه تولّى سنة (٧١١ م)، وحكم مع وتيزا قسمًا من أسبانيا، وأنه لما توفي وتيزا في سنة (٧١٣م) استأثر بالحكم مدى عام آخر حتى فتح أسبانيا.

وعلى أي حال فإن المعركة استمرت زمنًا بين ردريك وولدي وتيزا، وهما إيفا وسيزبوت يعاونهما عمهما أوباس أسقف طليطلة وإشبيلية ورأس الكنيسة، والتف حولهما رجال الدين، ووصل أنصار الحكم القديم، وكان ردريك قويّ الجانب وافر الشجاعة والعزم، فاستطاع أن يُخمد الثورة في كل ناحية، واستتب له الأمر حينًا، ومع ذلك فقد قضى على عرش القوط أن يظل مضطربًا مهتزًا.

(١) المصدر السابق.

وذلك أن خصوم ردريك اتجهوا بأبصارهم إلى خارج الجزيرة، وكان الكونت يوليان حاكم سبتة والمضيق، محطّ أنظارهم ومساعيهم، وقد اختُلِفَ في أمر الكونت يوليان اختلافًا بيِّنًا، فالروايات العربية القديمة تُشيد بذكره، وبالدور العظيم الذي أداه في الفتح[١]، ويُنكر وجوده بعض أكابر المؤرخين الأسبان مثل «ماسدي» وغيره، ولكن الرواية العربية أرجح؛ لأن الكونت يوليان كان قوطيًا أسبانيًا، وأنّه كان يرتبط ببلاط طليطلة بصلات وثيقة، وقد أيدت الرواية العربية بعض الروايات النصرانية المتأخرة التي تقول أن الكونت يوليان كان حاكمًا لسبته، وهي يومئذ من أملاك العرش القوطي، وإنه كان رجلاً شجاعًا، ولكنه كان مغامرًا منتقمًا، وإنه كان من أكابر الأشراف الذين يرجع أصلهم إلى القوط، وأنه كان قريبًا للملك وتيزا.

ولما نشب الخلاف الداخلي حول العرش، انضم الكونت إلى أنصار الحكم القديم، وأنصار الملك وتيزا، وكان غنيًا شديد البأس، كثير الأتباع والجند، يعتصم بالبحر، بعيدًا عن سلطة العرش، ويقبض على مفتاح أسبانيا (الأندلس) بحكمه لسبته والمضيق، وكان من خصوم الحكم الجديد يخشى عواقبه على مركزه وسلطانه، فاتصل به ابنا وتيزا وباقي الزعماء الخوارج، واستقر الرأي على الاستنجاد بالعرب جيران الكونت.

وهذا هو السبب التاريخي للتحالف الذي عُقد بين يوليان وموسى بن نصير، وانتهى بفتح العرب لأسبانيا، وقيل أن يوليان كان يعمل مع العرب بدافع الانتقام الشخصي أيضًا، فقد كانت له ابنة رائعة الحسن تُدعى فلورندا أوكابا، أرسلها إلى بلاط طليطلة جريًا على رسوم ذلك العصر، لتتلقى ما يليق بها من التربية بين كرائم الفضائل والفرسان، فاستهوى جمالها الفتّان قلب ردريك، فاغتصبها وانتهك عفافها.

---

(١) «ابن الأثير» جـ٤، «نفح الطيب» جـ١، وغيره مثل ابن القوطية في «افتتاح الأندلس».

وعلم الكونت بذلك فاستقدم ابنته إليه وأقسم بالانتقام، ونزع ردريك ذلك العرش الذي اغتصبه، فلما نشبت الحرب الأهلية بين ردريك وخصومه، والتجأ هؤلاء الخصوم إليه، رأى الفرصة سانحة للعمل، ولم يرَ خيراً من الاستنصار بالعرب ومعاونتهم على فتح أسبانيا.

ومهما كان من أمر يوليان، ومهما كان من بواعث غضبه ونقمته على مليكه فقد كان تدخله أكبر عامل في تذليل فتح المسلمين لشبه الجزيرة الأسبانية، والقضاء على مملكة القوط.



فتح الأندلس

في ظل هذه الظروف والأحداث التي تحدّثنا عنها كان العرب قد أتموا فتح المغرب الأقصى، واستولوا على ثغر طنجة، وأشرفوا على شواطئ الأندلس من الضفة الأخرى من البحر، وما بقي من فتح أفريقية سوى ثغر سبته الذي يقع مقابل طنجة في الطرف الآخر من اللسان المغربي، وكانت سبته قد استطاعت لمنعتها وسهر حاكمها الكونت يوليان تُحبط كل محاولة لأخذها.

وقد مكث موسى بن نُصير في القيروان، وخلّف طارق بن زياد في طنجة فتطلع طارق نحو حصن سبته، الذي عجز المسلمون عن الاستيلاء عليه أيام عقبة ابن نافع، وأيام موسى بن نصير أيضاً.

وكان موسى بن نصير يتوقُ إلى افتتاح هذا الثغر المنيع، الذي يحكمه يوليان والذي بدوره قد احتك بالعرب المسلمين وخاصة عندما وصل موسى إلى طنجة، ولمّا أحسّ يوليان بقوة المسلمين عمل على كسب ود طارق بن زياد أمير طنجة، «وكان طارق بن زياد رجلاً سياسيًا بعيد النظر، فلعله صادق يوليان؛ ليستعين به على إخضاع من تحت سلطانه من البربر وهم كثيرون»[1].

ويقول ابن عبد الحكم[2]: «فراسل طارق يوليان، ولاطفه حتى تهاديا».

وبالطبع فإن طارق لم يلاطف يوليان ليتّقي شرّه، وإنما ليستفيد منه فيما هو أهم من سبته، فقد كانت أنظار المسلمين تتطلع إلى الأندلس.

وبينما كان موسى بن نصير يتطلع إلى افتتاح سبته؛ لتكون نقطة انطلاق إلى الأندلس، بينما هو على هذه الحال إذ جاءته رسالة من الكونت يوليان نفسه يعرض فيها تسليم معقله، ويدعوه إلى فتح الأندلس، وجرت بينهما المفاوضة

(١) «فجر الأندلس» د/ حسين مؤنس ص٥٥.
(٢) «فتوح مصر وأخبارها».

حول هذا العمل الكبير – وذكرت المصادر أنهما اجتمعا في سفينة في البحر، وقيل أن يوليان استدعى موسى إلى سبته، وهنالك وقعت المفاوضة بينهما – وقد استجاب موسى بن نصير لدعوة الكونت يوليان فقد وجد أن ما يعرضه يوليان فرصة عظيمة وهائلة وخاصة عندما عرض عليه تسليم سبته وباقي معاقله، وتقديم سفنه لنقل المسلمين في البحر، ومعاونته بجنده وإرشاده[١].

عندئذ كتب موسى بن نصير إلى الوليد بن عبد الملك خليفة المسلمين يبلغه بأمر هذا العرض، وجاء رد الوليد أن يختبر هذا العرض بالسرايا والحملات الصغيرة في البداية وألاّ يزج بالمسلمين إلى أهوال البحر، برغم أن المسلمين كانوا قد خاضوا قبل ذلك غمار المعارك البحرية.

ظل موسى بن نصير قابعًا بطنجة يُعد العدة للفتح، في حين اعتقد يوليان وحلفاءه أن دور موسى والعرب هو المساعدة لاستعادة حكمهم لأسبانيا، ولم يقصدوا بدعوة موسى أن يمتلك أسبانيا وكان اعتقادهم أن العرب متى امتلأت أيديهم بالأسلاب والغنائم، رجعوا إلى أفريقية[٢].

استمع موسى بن نصير لنصيحة أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وبدأ بمحاولة صغيرة، فجهّز خمسمائة مقاتل بينهم مائة فارس، بقيادة ضابط من البربر يدعى طريف بن مالك، فعبروا البحر من سبته في أربع سفن قدمها يوليان إلى البقعة المقابلة التي سُمّيت جزيرة طريف باسم قائد الحملة، وذلك في رمضان سنة إحدى وتسعين (يوليو سنة ٧١٠م) ، وجاست الحملة الجزيرة الخضراء بإرشاد يوليان، فاصابت كثيراً من الغنائم، وقُوبلت بالإكرام والترحيب، وشهدت كثيراً من دلائل خصب الجزيرة وغناها، ثم عادت في أمن وسلام، وقصّ قائدها على موسى نتائج رحلته؛ فاستبشر بالفوز، وجدّ في أهبة الفتح.

---

(١) « دولة الإسلام في الأندلس » د/ عنان جـ١ ص٣٩.

(٢) « ابن الأثير » انظر جـ١ ص٢١٤.

وفي (رجب سنة ٩٢هـ - إبريل سنة ٧١١م) جهز موسى بن نصير جيشًا من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثي، وكان يومئذ حاكمًا لطنجة، وكان طارق بن زياد «رجلاً طويلاً أشقر، بعينيه حَوَل وبيده شلل»[١]، وكان ضخم الهامة، وفي كتفه الأيسر شامة[٢]، وكان طارق كما ذكرنا مولى لموسى بن نصير، وقيل إنه من سبي البربر، وقيل إنّه بربري من بطن من بطون نفرة[٣]، وقد تلقى طارق الإسلام عن أبيه زياد عن جده عبد الله، وهو أول اسم عربي إسلامي في نسبته، ثم ينحدر مساق النسبة بعد ذلك خلال أسماء بربرية محضة حتى ينتهي إلى نغزة، وهي القبيلة التي ينتمي إليها[٤].

ومن حيث الجندية كان طارق جنديًا عظيمًا ظهر في غزوات المغرب بفائق شجاعته وبراعته، وقدّر موسى مواهبه لمقدرته واختاره لحكم طنجة وما يليها، وهي يومئذ أخطر بقاع المغرب الأقصى وأشدها اضطرابًا، ثم اختاره لفتح الأندلس، فعبر البحر من سبته بجيشه تباعًا في سفن يوليان القليلة، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التي مازالت تحمل اسمه إلى اليوم وهو «جبل طارق» وذلك في يوم الإثنين (الخامس من رجب سنة ٩٢هـ - ٢٧ إبريل سنة ٧١١م)[٥].

وقد اقتحم طارق المنطقة المجاورة غربًا بمعاونة يوليان وإرشاده، وزحف على ولاية الجزيرة التي كان يحكمها تيودمير القوطي عامل ردريك[٦]، واحتل قلاعها، بعد أن هَزم شراذم من القوط تصدت لوقفه، وبادر حكام الولايات المجاورة بإخطار بلاط طليطلة بالخطر الداهم، وكان لزريق (ردريك) يشتغل يومئذ بمحاربة بعض الخوارج في الولايات الشمالية، فهرع إلى طليطلة شاعرًا بفداحة

(١) «الإمامة والسياسة» جـ٢ ص٧٤.
(٢) «نفح الطيب» للمقري جـ١ ص٨٩.
(٣) «البيان المغرب» لابن غداري جـ٢ ص٦.
(٤) المصدر السابق جـ٢ ص٦.
(٥) «نفح الطيب» للمقري جـ١ ص١١٩.
(٦) ردريك هو لزريق، كما تسميه المراجع العربية.

الخطر المحيط بعرشه وأمته وبعث قائده أديكو لرد العدو حتى يستكمل أهبته، ولكن طارقًا هزمه واخترق المنطقة الوسطى والغربية في المثلث الأسباني، والتي تُسمى الفرنتيرة معتزمًا السير صوب عاصمة القوط.

معركة وادي لَكَّه:

كان لزريق أميرًا شجاعًا وافر المقدرة والعزم، ولكنه كان طاغية يُثير بقسوته وصرامته كثيرًا من السخط والكراهية، وكان عرشه يرتجف فوق بركان من الخلاف، وكانت أسبانيا قد مُزّقت شيَعًا وأحزابًا، كل حزب أو شيعة تتطلع إلى السلطة، وكان أهم هذه الأحزاب وأقواها حزب العرش القديم الذي يلتف حوله ولدي «غيطشة» وهما «أبه» و«شتمبرت»، ومع ذلك فقد اعتصم القوط عند الخطر الداهم بنوع من الاتحاد، واستطاع لزريق (ردريك) أن يجمع حوله معظم الأُمراء والأشراف والأساقفة، وحشد هؤلاء أتباعهم ورجالهم، فاجتمع للقوط يومئذ جيش ضخم تقدّره بعض الروايات بمئة ألف مثل ابن الأثير[1] تزيد أو تقل قليلاً.

وسار لذريق نحو الجنوب للقاء المسلمين، وكان طارق قد وقف على أمر هذه الأهبة العظيمة، فكتب إلى موسى يستنجد به، فأمدّه بخمسة آلاف مقاتل، فبلغ المسلمون اثنى عشر ألفًا، وانضم إليهم يوليان في قوة صغيرة من أتباعه وكان القوط يفوقون عدد المسلمين، فهم أضعاف عددهم، وكان المسلمون يُقاتلون في أرض عدوهم التي تحتوي على هضاب وطبيعة وعرة شاقة، ولكن قائدهم البطل طارق بن زياد تقدّم إلى هذه الموقعة الحاسمة بعزم الأبطال وشجاعة الأسود، فكانت المعركة على ضفاف نهر وادي لكَّة أو وادي بكة[2] في هذا السهل الصغير الذي تحدّه من الجنوب سلسلة من التلال العالية، وعلى ضفاف بحيرة خندة ونهر بارباتي – هناك تلاقى جيش المسلمين وجيش القوط.

---

(١) «الكامل في التاريخ» جـ٤ ص ٢١٤، وانظر «نفح الطيب» للمقري جـ١ ص١١٢، الذي يقدره سبعين ألفا.

(٢) انظر «دولة الإسلام في الأندلس» د/ عنان جـ١ ص٤٢.

ووقف القائد المسلم طارق ابن زياد يقول لجنوده: أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم - والله - إلاّ الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مائدة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلاّ سيوفكم، ولا أقوات لكم إلاّ ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرًا، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم؛ فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم، بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة؛ وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت.

وإني لم أُحذركم أمرًا أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعًا فيه للنفوس، أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم بأوفى من حظي، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان، الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في القصور ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانًا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارًا وأختانًا، ثقةً منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان؛ ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة...

ثم قال: إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال، وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أُنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه، فإن قُتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشل ريحكم، وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير، وإياكم وإياكم أن ترضوا بالدنية ولا تعطوا بأيديكم، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة، والراحة من المهانة والمذلة، وقد أحلّ الله لكم

ثواب الشهادة، فإنكم إن تفعلوا، والله معكم ومعينكم ... وهاأناذا حامل حتى أغشاه[١] فاحملوا بحملتي[٢].

هنالك تلاقى جيش الإسلام وجيش النصرانية، وذلك في (الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢ هـ - ١٧ يوليه سنة ٧١١ م) وفرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة شغلت بالمعارك البسيطة، وفي اليوم الرابع التحم الجيشان ونشبت بينهما معركة عامة، وظهر لزريق في الميدان في حلل ملوكية فوق عرش تجره الخيل القوية.

واستمرت المعركة هائلة مضطرمة بين القوى النصرانية الضخمة، وبين القوة المسلمة المتواضعة نحو أربعة أيام، ولكن الجيش القوطي كان رغم كثرته مختل النظام منحل العرى، وكان يقود جناحيه إيفا وسيزبوت خصما ردريك، وتتكون صفوفه من أتباعهما وأتباع حلفائهما من الأمراء والزعماء الناقمين، الذين تظاهروا بالإخلاص وقت الخطر، وكلهم يتحين الفرصة للإيقاع بالملك المغتصب، فكانت الخيانة تُمزق جيش القوط شرَّ ممزق، واستمال يوليان والأسقف أوباس وهما في صف المسلمين كثيراً من جند القوط، وبثا بدعايتهما في الصفوف الموالية للزريق كثيراً من عوامل الشقاق والتفرق، فأخذ كل أمير يسعى بسلامة نفسه، وتمكن الجيش الإسلامي - على ضآلة عدده - بجَلَده وثباته واتحاد كلمته، من جيش القوط، فلم يأتِ اليوم السابع من اللقاء حتى تم النصر لطارق بن زياد وجنده، وهُزم القوط شر هزيمة، وشتتوا ألوفًا في كل صوب.

أما ردريك آخر ملوك القوط - أو لزريق كما يسميه العرب - فقد اختفى عقب الموقعة، ولم يُعثر له على أثر فيقول ابن الأثير[٣] أنه غرق في نهاية الموقعة، فقد رمى نفسه مختاراً في النهر[٤]، وقد أثقلته الجراح، ومات قتيلاً أو غريقًا في المعركة.

---

(١) يقصد لزريق ملكهم.

(٢) د/ عنان «دولة الإسلام» جـ١ ص٤٧.

(٣) «الكامل في التاريخ» جـ٤ ص٢١٤.

(٤) «نفح الطيب» جـ١ ص١٢١.

وعلى إثر هذه الموقعة الحاسمة التي هُزِمَ فيها الجيش القوطي شر هزيمة ومُزّق تمزيقًا، ساد الرعب في أوساط القوط، فامتنعوا بالحصون والجبال، وقصدوا إلى الهضاب والسهول، وذاعت أنباء النصر في طنجة وسبته، وما جاورهما من أراضي العدو، وزحف طارق بجيشه شمالاً، وكانت بقية الجيش القوطي قد اجتمعت عند «أستجة» لتحاول رد الجيش الفاتح، فالتقى الجيشان هناك ثانية، وهُزم القوط مرّةً أُخرى، ولم يبقَ إلاّ أن يستولي الفاتحون على المدن والقواعد الحصينة واحدة بعد الأُخرى.

وكان يوليان وأصحابه إلى جانب المسلمين، يعاونهم بالنصح والإرشاد كما قدّمنا، ففي أستجة وضعت خطة السير وتقرر أن يسير طارق بنفسه إلى طليطلة عاصمة المملكة القوطية، وأرسل طارق مغيثًا الرومي مولى الوليد بن عبد الملك إلى قرطبة في سبعمائة فارس، فاقتحم أسوارها الحصينة واستولى عليها دون مشقة، و أرسل حملات أُخرى إلى غرناطة والبيرة ومالقة، فافتتحت مالقة وفرَّ سكانها إلى الجبال، ثم لحق جيشها بالجيش المتجه إلى البيرة وغرناطة، فحوصرت غرناطة قليلاً وفُتحت، ثم فُتحت البيرة.

وكان المسلمون يضمون إليهم في كل مدينة من المدائن المفتوحة حامية صغيرة لحفظها، ثم سار المسلمون بعد ذلك شرقًا نحو ولاية مرسية، وكانت تسمى يومئذ تيودمير (أو تدمير) باسم أميرها، وقاعدتها مدينة أوريولة، وكان تيودمير جنديًا كبيرًا، وافر العزم والبأس، فالتقى بالمسلمين ونشبت بينه وبينهم معارك شديدة، هلك فيهم معظم رجاله، فارتدّ إلى أوريوله، وامتنع بها، وعرض النساء، حسبما تقول الرواية، على الأسوار في أثواب الرجال إيهامًا بكثرة جنده، واستطاع بثباته وجلده أن يعقد الصلح مع المسلمين بشروط حسنة أنقذت بها مدينته من السبي والجزية [١].

---

(١) «ابن الأثير» جـ٤ ص ٢١٥، وابن عذارى في «البيان» جـ١ ص١٣.

وقد نصَّ الصلح على ما يلي:

« نسخة كتاب الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى لتدمير عيدوس »

« بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد العزيز إلى تدمير، أنه نزل على الصلح، وأنّه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه ملكه، ولا أحد من النصارى من أملاكه، إنهم لا يقتلون ولا يسبون أولادهم ولا نساؤهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا تحترق كنائسهم ما تَعَبَّدَ ونَصَحَ، وأن الذي اشترط عليه أنّه صالح على سبع مدائن، أوريوالة وبلنتله، ولقنت، ومولة، وبقسرة، وأنه، ولورقة، وأنه لا يأوي لنا عدواً، ولا يخون لنا أمنًا ولا يكتم خبراً علمه، وأنه عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة، وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير وأربعة أقساط خلاًّ، وقسطي عسل، وقسطي زيت، وعلى العبد نصف ذلك، .. كُتب في أربع من رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة .. شهد على ذلك... ».

وسار طارق في بقية جيشه إلى طليطلة مخترقًا هضاب الأندلس وجبال سيرا مورينا (جبل الشارات) التي تفصل بين الأندلس وقشتاله، بإرشاد يوليان وأصحابه، وكان القوط قد فروا منها نحو الشمال بأموالهم وآثار قديسهم، ولم يبقَ بها سوى اليهود وقليل من النصارى، فاستولى طارق عليها، وأبقى على من بقي من سكانها، وترك لأهلها عدةّ كنائس، وترك لأحبارهم حرية إقامة الشعائر الدينية، وأباح للنصارى من القوط والرومان اتباع شرائعهم وتقاليدهم، واختار لحكمها وإدارتها أوباس مطرانها السابق وأخا الملك وتيزا.

وتابع طارق زحفه شمالاً، فاخترق قشتالة ثم ليون في وهاد ومفاوز صعبة، وطارد فلول القوط حتى استرقة، فلجأت إلى قاصية جلّيقية واعتصمت بجبالها الشامخة، وعبر طارق جبال اشتوريش (استورياس).

« وهنا تذكر الرواية العربية أن طارقًا انتهى إلى مدينة المائدة خلف جبال

استوري، فاستولى على مائدة سليمان بن داود، وهي خضراء من زبرجد حافاتها منها، وأرجلها ثلاثمائة وخمسة وستون. ويُقال إن هذه المائدة غنمها الرومان من المشرق أو بيت المقدس في بعض غزواتهم، ثم نقلوها إلى روما، فغنمها منهم القوط حين افتتحوا روما، ثم أحرزها العرب عند فتح أسبانيا»[١].

وذكر ابن الأثير أن أحد ملوك أسبانيا في عهد الوندال غزا بيت المقدس وأحرز المائدة[٢].

وذكر صاحب «الروض المعطار» وبعض مؤرخي الإفرنج: «أن هذه المائدة من نفائس ملوك القوط، وأن العرب عثروا عليها في كنيسة طليطلة»[٣].

وواصل طارق بن زياد سَيْرَهُ حتى أشرف على ثغر «خيخون» الواقع على خليج بسكونية (غسقونية) فكان خاتمة زحفه ونهاية فتوحاته، وقد وصل إلى مياه المحيط، ثم عاد إلى طليطلة، حيث تلقى أوامر موسى بن نصير بوقف الفتح، و كان قد مرّ عام على دخوله أسبانيا.

موسى بن نصير في الأندلس:

ذكرت مصادر عربية كثيرة[٤] أن موسى بن نُصير لم يكن يتوقع كل هذا الفوز لقائده طارق بن زياد، فلما علم بمدى فوزه ونصره، أُعجب به إعجابًا شديدًا، ولكن هذا الإعجاب تحول إلى حسد وغيرة، وخشي أن يُنسب هذا الفتح العظيم إليه دونه، فكتب إليه ألاّ يتقدم حتى يلحق به، ويتوعده بالعقاب إذا توغل بغير إذنه.

---

(١) انظر «دولة الإسلام في الأندلس» د/عنان – الهامش ص٥١ جـ١ .

(٢) «الكامل في التاريخ» جـ٤ ص٢١٢ .

(٣) «الروض المعطار» ص٥.

(٤) من هذه المصادر: «الكامل في التاريخ» لابن الأثير جـ٤ ص٢١٥، وابن عبد الحكم» ص٢٠٧، وابن خلدون جـ٤ ص١١٧ .

أما ابن عذارى[١] فقد ذكر تعليلاً دقيقًا عندما قال: بأن طارقًا خالف الأوامر الصادرة إليه بألاّ يجاوز قرطبة أو حيث تقع هزيمة القوط.

وهذا التعليل قريب إلى الدقة لما هو معروف عن موسى بن نصير من الحذر والحيطة واستماعًا لنصيحة الوليد بن عبد الملك من أن التوغل كثيرًا دون حساب لقوة العدو واختبارًا لها قد يأتي بالكوارث والهزائم، وهذا لا يجعلنا نستبعد الغيرة؛ فموسى بن نصير بشر ككل البشر.

عبَرَ موسى بن نصير البحر إلى أسبانيا في جيش قوامه ثمانية عشر ألفًا منهم عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر، وحملهم في سفن صنعها خصيصًا لهذا الأمر، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان، وذلك في (رمضان سنة ٩٣ هـ - سنة ٧١٢م)، واستهل زحفه بمدينة شذونة فاستولى عليها، ثم سار إلى تريونة، وهي يومئذ من أمنع حصون الأندلس، فاستولى عليها بمعاونة يوليان وأصحابه، ثم قصد بعدئذ إلى أشبيلية أكبر وأعظم قواعد بلاد الأندلس، فافتتحها بعد أن حاصرها شهرًا، ثم سار إلى ماردة وحاصرها فترة طويلة، وقُتل تحت أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين في كمين دَبَّرهُ النصارى، وعندما اشتدّ الحصار على أهلها، دعا القوم إلى السلم، فأرسل أهلها إليه رسلاً، فدخلوا على موسى أول يوم من المفاوضات، فإذا هو أبيض شعر الرأس واللحية، لقد ذهب أثر خضابه؛ فظهر الشيب، ولم يتفق لهم معه على أمر، وعاودوه في اليوم الثاني - وكان قبل عيد الفطر بيوم واحد - فإذا هو قد صبغ لحيته، فجاءت كما وصفها المقرئ في نفح الطيب: «كضرام العرفج» أي كالنار في لونها، والعرفج شجر شديد الالتهاب، أي أصبحت لحيته حمراء اللون، فعجبوا من ذلك، وعاودوه يوم الفطر (العيد) فإذا هو قد سوَّدَ لحيته، فازداد تعجبهم منه؛ لأن أهل الأندلس لم يعرفوا الخضاب ولا استعماله قبل الفتح الإسلامي.

---

(١) «البيان المغرب» جـ٢ ص١٥ وما بعدها.

فقالوا لقومهم: إنّا نقاتل أنبياء، يتخلّقون كيف شاؤوا، ويتصورون في كل صورة أحبوا، كان ملكهم – يقصدون موسى – شيخًا، ثم صار شابًا، والرأي أن نقاربه ونعطيه ما يسأله، فما لنا به طاقة. فأذعنوا عند ذلك، وأكملوا صلحهم، وفُتحت المدينة يوم عيد الفطر الأول (سنة ٩٤هـ) [١].

وتمّ الصلح على أن تكون أموال الغائبين والكنائس غنيمة للمسلمين ودية لمن قُتل منهم[٢] .

وقصد موسى بعدئذ إلى طليطلة، فالتقى بطارق على مقربة منها، وكان قد سار إلى استقباله فأنّبه وبالغ في إهانته، وزجه مصغرًا إلى ظلام السجن بتهمة الخروج والعصيان، وقيل بل هَمَّ بقتله[٣] .

وقد انفرد ابن عبد الحكم برواية مضمونها: «أن طارقًا استجار بمغيث الرومي وكان عائداً من الأندلس إلى المشرق، ووعده بمئة عبد مكافأة إذا هو أبلغ أمره إلى الوليد بن عبد الملك، فقام مغيث بالرسالة، وبادر الوليد بالكتابة إلى موسى أن يُطلق سراح طارق ويتوعده إذا أساء إليه، وحمل مغيث هذا الكتاب إلى الأندلس، فأخرج موسى عن طارق ورده إلى منصبه»[٤] وذكر أن طارقًا ترضى موسى فرضيَ عنه وقبل عذره[٥] .

موسى وطارق معًا على الطريق:

وضع موسى وطارق خطة لافتتاح ما بقي من أسبانيا، ثم زحفا نحو الشمال الشرقي واخترقا ولاية أراجون (الثغر الأعلى) وافتتحا سرقسطة وطركونة

---

(١) انظر «نفح الطيب» جـ١ ص٢٥٣.

(٢) «دولة الإسلام في الأندلس» د/ عنان جـ١ ص٥٢ .

(٣) هذه الأقوال وردت في «الكامل» لابن الأثير جـ٤، و«نفح الطيب» للمقري جـ١ ص١٢٧، وابن عبد الحكم ص٢٠٨، و«جذوة المقتبس» للحميدي ص ٦ .

(٤) ابن عبد الحكم ص٢١٠ .

(٥) «تاريخ الطبري» جـ٢ ص٩٨.

وبرشلونة وغيرها من المدائن والمعاقل، ثم افترق الفاتحان، فسَار طارق نحو الغرب ليغزو جلّيقة، وليتم القضاء على فلول القوط، وسار موسى شمالاً فاخترق جبال البرنية (جبال ألبرت أو البرتات أو الممرات) وغزا ولاية لانجدوك التي كانت تابعة إذْ ذاك لملوك القوط.

واستولى على قرقشونة كاركاسون، وأربونه (ناربون). ثم نفد إلى مملكة الفرنج وغزا وادي الرون (رذونة) حتى مدينة لوطون (ليون) فاضطرب أُمراء الفرنج، وأخذوا في الأهبة لرد الغزاة ويُقال أن المعارك الأُولى بين العرب والفرنج وقعت في تلك السهول على مقربة من أربونة.

عندئذ كتب الوليد بن عبد الملك إلى موسى يُحذره من التوغل بالمسلمين في دروب مجهولة ويأمره بالعود، في الوقت الذي فكر فيه القائد الجريء أن يخترق أوروبا غازيًا فاتحًا، وأن يصل إلى الشام من طريق القسطنطينية، وأن يفتح في طريقه أمم النصرانية والفرنجة كلها، وهذا ما يقوله المؤرخ العربي ابن خلدون ــ عن حلم الفاتح العربي العظيم موسى بن نصير ــ .

يقول ابن خلدون: « وجمع أن يأتي المشرق على القسطنطينية، ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس، ويخوض ما بينهما من بلاد الأعاجم أمم النصرانية مجاهداً فيهم، مستلحمًا لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة »[1].

ولم يكن موسى بن نصير غافلاً عن حلمه الكبير فقد كان يُقدِّر تنفيذ مشروعه العظيم بجيش ضخم يقتحم البرية يؤيده من البحرأسطول قوي، فيبدأ بافتتاح مملكة الفرنج، ثم يقصد مملكة اللومبارد في شمالي إيطاليا، فيخترقها فاتحًا إلى روما قاعدة النصرانية، فيفتتحها ويقضي فيها على كرسي النصرانية، ويُتابع سيره بعدئذ شرقًا إلى سهول الدانوب مقتحمًا ثغور القبائل الجرمانية التي تسيطر على ضفافه، ثم يخترق أراضي الدولة البيزنطية حتى قسطنطينية، فيستولي

---

(١) ابن خلدون جـ٤ ص١١٧ .

عليها، ثم يعبر إلى آسيا الصغرى قاصداً إلى دمشق، فيصل بذلك أملاك الخلافة الإسلامية فيما بين المشرق والمغرب من طريق الشمال، كما اتصلت من طريق الجنوب.

ويقول الدكتور عنان[١] : «ولم يكُ ثمّة ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم، فقد كان الإسلام يومئذ في ذروة الفتوة والقوة والبأس، وكانت جيوشه تقتحم أرجاء العالم القديم ظافرة أينما حلّت..».

ثم يضيف: «ولم يكن حلمًا وإغراقًا ما تصوره موسى بن نصير واعتزمه، ولكن سياسة الإحجام والتردد التي اتبعها بلاط دمشق نحو الفتوح الغربية والتي كادت تحول دون فتح أسبانيا، أودت بذلك المشروع البديع، وكتب الوليد بن عبد الملك إلى موسى يُحذره من التوغل بالمسلمين في دروب مجهولة ويأمره بالعودة، فارتدّ موسى مُرغمًا آسفًا، ولكنه تمهّل في العود حتى يتم إخضاع معاقل جليقية التي اعتصمت بها فلول القوط، ويُطهّر أسبانيا بأسرها من كل خروج ومقاومة، فاخترق جليقية، واستولى على معظم معاقلها، ومزّق كل قوة تصدت لمقاومته، ولم يبقَ من النصارى سوى شراذم يسيرة اجتمعت حول زعيمها «بلابيوس»، ولجأت إلى قاصية جليقية، وبينما كان موسى يتأهب للحاق بها وسحقها، إذ وصله كتاب آخر من دمشق يستدعيه وطارقًا، ويأمرهما بتعجيل العود»[٢] .

ولعل أقوى البواعث التي حملت الوليد على هذا الاستدعاء ما نمى إليه من خلاف موسى وطارق، وخوفه أن ينتهي هذا الخلاف، بتفرق كلمة المسلمين ونكبتهم في تلك الأقطار الجديدة المجهولة التي افتتحوها.

ولربما كان خوف الوليد بن عبد الملك من استقلال موسى بن نصير بهذا الملك الجديد البعيد النائي عن بلاد الخلافة باعثًا لاستدعائه إلى دمشق.

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» جـ١ ص٥٤ .

(٢) المصدر السابق.

ولربما كان أيضًا ما بلغ الوليد عن وفرة الأموال والغنائم والتحف التي اغتُنمت من الأندلس لربما كان ذلك باعثًا لاستدعاء موسى إلى دمشق.

ويذكر المؤرخون أن استدعاء الوليد لموسى كان بلا ريب خطرًا على مستقبل الإسلام في الأندلس، ذلك أن هذه القوى النصرانية الصغيرة التي نجت من المطاردة، واعتصمت بصخور جليقية، لم تلبث أن نمت وقويت، وكانت منشأ المملكة النصرانية التي قامت في الشمال، ولبثت قرونًا تكافح دولة الإسلام في أسبانيا حتى انتهت بالقضاء عليها.

وفي نفس الوقت الذي كان يُستدعى فيه موسى إلى دمشق، كان عبد العزيز ابن موسى قد افتتح منطقة الساحل الواقعة بين مالقة وبلنسية، وأخمد الثورة في أشبيلية وباجة، وافتتح لبله وغيرها من المعاقل والحصون، وأبدى في معاملة البلاد المفتوحة كثيرًا من الرفق والتسامح، والاعتدال في تطبيق الأحكام وفرض الضرائب.

موسى يعود إلى دمشق:

اتخذ موسى بن نصير أُهبته للعود إلى دمشق نزولاً على أوامر الخليفة، فنظَّم حكومة الأندلس قبل رحيله ما استطاع، وجعل حاضرتها أشبيلية؛ لاتصالها بالبحر، وكانت حاضرتها أيام الرومان، واختار لولايتها ولده عبد العزيز، واستخلف على المغرب الأقصى ولده عبد الملك، كما استخلف على أفريقية عبد الله، أكبر أولاده.

وفي شهر ذي الحجة سنة خمس وتسعين (أغسطس ٧١٥م) قفل راجعًا إلى المشرق وطارق معه، وفي ركبه من نفيس التحف والغنائم ما لا يقدر ولا يوصف، وقد أفاضت الروايات الإسلامية في وصف ما غنمه المسلمون في الأندلس من الغنائم الجليلة والسَّبي الذي لا يُحصى.

ونقول: إن موسى بن نصير حمل إلى دمشق من التحف والذخائر من الذهب والدر والياقوت والزبرجد ما لا يُقدر، منها مائدة سليمان السالفة الذكر؛ وأما السبايا فيقال: أنه حمل منها ثلاثين ألفًا، بينهم مئات من أشراف القوط، والوصفاء المختارين، من ذوي الشباب الغض والجمال الباهر ذكورًا وإناثًا.

وذكر ابن القوطية[١] أن موسى بن نصير عاد ومعه من أبناء الملوك والعجم أربعمائة، وعلى رؤوسهم التيجان من الذهب، وفي أوسطهم مناطق الذهب.

ويقول المقري في «نفح الطيب»: «وجد العرب في طليطلة حين فتحوها من الذخائر والأموال ما لا يُحصى، فمن ذلك: مئة وسبعون تاجًا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الكريمة، ووجد فيها ألف سيف ملوكي، ومن الدر والياقوت أكيال، ومن أواني الذهب والفضة ما لا يُحيط به وصف»[٢].

أيام موسى بن نصير الأخيرة:

وفي مصير موسى بن نصير بعد وصوله دمشق روايات كثيرة:

- قيل: إنه وصل دمشق قبل وفاة الوليد بن عبد الملك، وقدم إليه الأخماس والغنائم، فاكرمه وأحسن إجازته.
- وقيل: بل وصل عقب وفاة الوليد وارتقاء سليمان بن عبد الملك عرش الخلافة، وأن سليمان غضب عليه ونكبه.

ويقول ابن الحكم[٣] أن موسى بن نصير مرّ بمدينة الفسطاط في أواخر شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين (٩٦هـ) في طريقه إلى دمشق، وقد توفي الوليد في منتصف جمادى الآخرة من هذا العام، أي بعد وصول موسى إلى مصر بأكثر من شهرين ونصف، ولما كانت مسافة السفر بين الفسطاط ودمشق لا تتجاوز في هذا

---

(١) «فتح الأندلس» لابن القوطية، (ص١٠).
(٢) «نفح الطيب» (جـ١) من (ص١٣٠: ص١٣٦).
(٣) «فتوح مصر» (ص١/ ٢)

العصر بضعة أسابيع، فإن الوقت كان يكفي لمقدم موسى على الوليد قبل وفاته بأسابيع[١].

وتذكر رواية ابن الحكم: أن سليمان بن عبد الملك سخط على موسى بن نصير ونكبه، ذلك أن موسى وصل إلى الشام والوليد في مرض موته، فكتب إليه سليمان ولي العهد أن يتمهل في السير؛ رجاء أن يموت الوليد بسرعة!! فيقدم عليه في صدر خلافته بما يحمل من التحف والغنائم الكثيرة، فأبى موسى، وجدّ في السير حتى قدم والوليد حيّ فسلّم إليه الأخماس والغنائم، ثم توفي الوليد بعد ذلك بقليل مستخلفًا أخاه سليمان على كرسي الخلافة، فغضب سليمان على موسى، وزاد في حقده عليه ما قدمه في حقه طارق ومغيث من مختلف التهم، وفي الحال أمر بعزله، واتهمه وبنيه باختلاس مقادير عظيمة من المال والتحف، واستجار موسى بصديقه يزيد بن المهلب من نقمة سليمان – وكان من المقربين وذوي النفوذ عنده – فيروى أن يزيداً قال له:

«لم أزل أسمع عنك أنّك من أعقل النّاس وأعرفهم بمكائد الحروب ومداراة الدنيا، فقل لي كيف حصلت في يد هذا الرجل بعدما ملكت الأندلس، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار، وتيقّنت بعد المرام واستصعابه، واستخلفت بلاداً أنت اخترعتها، وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمعاقل ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك في يد من لا يرحمك، ثم إنك علمت أن سليمان ولي العهد، وأنه الولي بعد أخيه، وقد أشرف على الهلاك لا محالة، وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك إلى التهلكة، وأحقدت مالكك ومملوكك»[٢] .

ومازال يزيد بن المهلب بسليمان حتى عفا عن موسى، وأعفاه من الغرامة

---

(١) د/عنان (جـ١، ص٥٧).

(٢) انظر «تاريخ الأندلس» لابن القوطية (ص١٠: ١١)، «فتوح مصر» لابن عبد الحكم (ص٢١١)، «نفح الطيب» (جـ١، ص١٣٤).

الفادحة التي قضى بها عليه، ويُقال بل عفا عنه في حياته، ولم يعفه من الغرامة، وأن موسى استطاع أن يفتدي نفسه ببعض ما فرض عليه، وأن سليمان عفا عنه بعد ذلك(١) .

وأمَّرَ ابنه عبد الله على أفريقية، وابنه عبد العزيز على الأندلس، ومهما كان من عفو سليمان عن فاتح الأندلس المخلص الغيور على دينه، وما قيل أنه كان يطوف أحياء العرب مع حُراسه؛ ليسأل بعض المال ليفتدي نفسه، والذي ما لبث على تلك الحال حتى توفيَ وهو في حالة من البؤس والذلة بوادي القرى في شمال الحجاز، حيث ينسب مولده، ووفاته في سنة (٩٧هـ) .

مهما كان من هذه الأخبار التي تثير في النفس شجونًا، فإن التاريخ يذكر وسيذكر أمرين مهمين:

أولهما: أن موسى بن نصير فاتح الأندلس لم يلقَ حقه من التكريم، بل غمط حقه وفضله أشنع غمط، وأبدت الخلافة بهذا الجحود والنكران ما يشعر المرء بألم الجور والظلم الذي وقع على اسم الرجل وتاريخه وشخصه، وأن الخلافة لم تقدر البطولة في هذا الموطن حق قدرها، ولم تقدر عظمة هذا الفتح العظيم الذي غنمته على يد رجلها القدير وقائدها الحكيم موسى بن نصير.

ثانيهما: أن موسى بن نصير كان من أعظم رجال الحرب والإدارة في القرن الأول للهجرة، وقد ظهرت براعته الإدارية في جميع المناصب التي تقلدها، كما ظهرت براعته الحربية في جميع الحملات البرية والبحرية التي قادها، على أن هذه المواهب تبدو بنوع خاص في حكمه لإفريقيا، حيث كانت الحكومة الإسلامية تواجه شعبًا شديد المراس، يضطرم بعوامل الانتفاضة والفتنة، وإذا كان موسى قد أبدى في معالجة الموقف

---

(١) «فتوح مصر» ابن عبد الحكم (ص٢١٣) .

وإخماد الفتنة كثيراً من الحزم والشدّة، فقد أبدى في الوقت نفسه خبرة فائقة بنفسية الشعوب، وبراعة في سياستها وقيادتها، وكان موسى فوق مواهبه الإدارية والعسكرية، غزير العلم والأدب، متمكنًا من الحديث والفقه، عالمًا بالفلك، مُجيداً للنثر والنظم»[١].

هذا هو موسى بن نصير صاحب الفضل الأول في عبور الإسلام إلى أوروبا.

أيام طارق بن زياد الأخيرة:

لم تتحدث الروايات الإسلامية كثيرًا عن أيام طارق بن زياد، إلاّ ما ذُكر على استحياء من أن سليمان بن عبد الملك كان ينوي تعيينه واليًا على الأندلس خلفًا لموسى بن نصير، إلاّ أنه عدل عن تلك الرغبة؛ حينما شرح له مغيث الرومي فاتح قرطبة كيف كان يتمتع طارق بن زياد في الأندلس بعظيم الهيبة والنفوذ، وذلك توجسًا من طمع طارق بالاستقلال بهذا القطر أو الإقليم النائي البعيد عن حاضرة الخلافة[٢].

وقد كان مغيث يحقد على طارق وموسى منذ الفتح ويسعى إلى منافستهما والإيقاع بهما، وكان لوقيعته بهما ومساعيه ضدهما أكبر الأثر في استدعائهما إلى دمشق، ولا تذكر الرواية التاريخية شيئًا حاسمًا عن مصير طارق، فمنها من يقول أنه استُقبل في دمشق استقبالاً حسنًا، ومنها من يقول أنه لقى نفس المصير التعس الذي قيل إن موسى بن نصير لقيه، وأنه مات في فقر وضعة[٣].

مصير الكونت يوليان:

الكونت يوليان هو الرجل الذي مهد لفتح الأندلس، يقول الدكتور عنان في مصيره[٤] : «لم تُشر الرواية الإسلامية إليه، وفي بعض الروايات أنّه عاد بعد

---

(١) «نفح الطيب» (جـ١، ص١٣٣، ١٣٤).

(٢) المصدر السابق (جـ٢، ص٥٥).

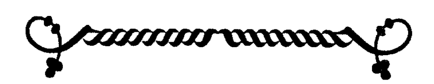
(٣) «دولة الإسلام» د/عنان (جـ١، ص٦٠) الهامش.

(٤) «دولة الإسلام في الأندلس» (جـ١، ص٦٠، ٦١).

الفتح إلى سبته وأُقطع ما حولها من الأراضي، وقُلِّدَ إمارتها؛ جزاء خدماته، ولكنه بقي نصرانيًا هو وبنوه الأقربون، ثم دخل عقبه في الإسلام بعد ذلك.

وتقول الرواية الكنسية الإسلامية أنه قُتل بين مواطنيه في معركة نشبت بينهم وبينه، أو أنه قُتل بعد ذلك بأعوام في ولاية الحر الثقفيّ بيدِ العرب لريبة في ولائه، وتقول هذه الرواية أيضًا أن العرب أعدموا ابني وتيزا وأفراد أسرته لمثل هذا السبب.

وهذا ما تنفيه الرواية الإسلامية، بل وتؤكد عكسه تمامًا، فالمصادر الإسلامية تُجمع كلها على أن العرب أحسنوا معاملة إيفا أو أيبا، وسيزبوت ابني وتيزا وعمهما أوباس، فأما أوباس فقد عُيِّن كما تقدم مطرانًا لطليطلة، وأُقطع إيفا وسيزبوت ما كان لأبيهما من الضِياع، ثم توفي إيفا أكبر الأخوين بعد ذلك بأعوام عن ابنة تُدعى سارة وولدين صغيرين، فاغتصب سيزبوت ميراثه وضياعه، فبادرت سارة بالسفر مع أخويها إلى دمشق، وشكت عمها إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، فأنصفها وقضى لها بردِّ ميراث أبيها، وبعث بذلك إلى والي الأندلس أبي الخطار الكلبي، وتزوجت سارة في دمشق من عيسى بن مزاحم وهو سيد عربي، ورُزِقت منه بولدين هما إبراهيم وإسحاق، ثم عادت إلى الأندلس، وأحرز ولداها مكانة ممتازة، وإليها ينتسب ابن القوطية القرطبي المؤرخ صاحب «تاريخ الأندلس»، نِسْبَةً إلى لقبها العربي وهو سارة «القوطية»[١].



(١) المصدر السابق.

الأندلس بعد الفتح الإسلامي

في دولة كانت ترزح تحت نير الظلم والاضطهاد، وقد كانت حتى عهد الفتح الإسلامي ترزح في غمار مرهقة من الجور والعسف، وكانت الأقليات المتسلطة من الأمراء والنبلاء تحكم شعبًا بأسره وتستغله أشنع استغلال، في وسط هذا كل جاء الإسلام؛ ليقضي على هذا كله، فيحمل بين يديه العدل والحرية والمساواة إلى الناس جميعًا، وليعطي كل ذي حق حقه، ويقضي على البغي والظلم.

وقضى الفتح الإسلامي على سلطان الطبقات المتسلطة من الأمراء والنبلاء، فتنفس الشعب الصعداء، وعندما وضع المسلمون الجزية فرضوها بالمساواة والاعتدال والعدل، بعد أن كانت الضرائب تُفرض بحكم الهوى والجشع، وأمِنَ الناس على حرياتهم وحياتهم وأموالهم، وترك الفاتحون (من أهل الإسلام) لرعاياهم (أهل الأندلس) تركوا لهم قوانينهم يتبعوها، وقضاتهم وقضائهم، واختاروا لهم حكامًا من أبناء جنسهم.

وعامل المسلمون النصارى واليهود بالتسامح، فلهم دينهم وعقائدهم وشعائرهم، وكل ما فُرض عليهم هو أداء الجزية، ومن دخل منهم الإسلام سقطت عنه الجزية، وأصبح كالمسلم سواء بسواء في جميع الحقوق والواجبات، فالعرب كانوا يتحلون بكثير من التسامح، فلم يرهقوا أحدًا في شئون الدين[1].

وقد عني الفاتحون عقب الفتح بتنظيم شئون الحكم والإدارة، فقُسّمت أسبانيا على ضوء تقسيمها القديم أيام الرومان والقوط، في البداية إلى أربع ولايات كبيرة على رأس كل منها حاكم يعينه الحاكم العام، ويُسأل أمامه مباشرة عن أعماله وشئون إدارته. أما حاكم الأندلس أو واليها العام، فكان تعيينه في المبدأ راجعًا إلى حاكم أفريقيا يختاره بموافقة الخليفة.

---

(١) «الإسلام في الأندلس» رينهرت دوزي (جـ١).

تقسيم الأندلس إلى ولايات

قُسمت الأندلس إلى عدة ولايات معروفة بمدنها وقصباتها كالتالي[١]:

- **الولاية الأولى** – كانت الولاية الأولى تشمل إقليم الأندلس، الممتد بين البحر المتوسط ونهر الوادي الكبير، وما يلي هذا النهر حتى نهر وادي يانه، وأشهر مدنها: قرطبة، وأشبيلية، ومالقة، وإستجة، وجيان.
- **الولاية الثانية** – وتشمل جميع أسبانيا الوسطى من البحر المتوسط شرقًا إلى حدود البرتغال غربًا (لوزيتانيا) ثم إلى نهر دويرة (دورو) شمالاً، وأشهر قواعدها طليطلة، على نهر تاجُه، وقونقه، وشقوبيه، وبلنسية، ودانية، ولقنت، وقرطاجنة، ومرسية، ولورقة، وبسطه.
- **الولاية الثالثة** – جليقية ولوزيتانيا (البرتغال القديمة) وأشهر قواعدها: ماردة، ويابرة، وباجة، ولشبونه، وقلمرية، ولك، واسترقة، وشلمنصة، وغيرها.
- **الولاية الرابعة** – تمتد من نهر دويرة إلى جبال البرنية (جبال ألبرت أو الممرات) على ضفتي نهر إبرة (إيبرو)، وغربًا إلى جليقية، وأشهر قواعدها: سرقسطة، وطرطوشة، وطركونة، وبرشلونة، وأرقلة (أرجل)، وبلد الوليد، ووشقة، وببشتر.
- **الولاية الخامسة** – لما اتسع نطاق الفتوح الإسلامية شمالاً، أُنشِئت ولاية خامسة شمالي جبال البرنية شاملة لأربونة، ونيمة (أولدمشو) وقرقشونة، وبزييه، وأجده، وماجويلون (أومقلون) ولوديث.

وقد تفرقت القبائل في هذه الولايات والقواعد الجديدة، تفرقت القبائل والعشائر المختلفة:

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» د/ عنان (جـ١، ص٧٠).

- فنزلت قبائل دمشق بكورة قرطبة.
- وحمص بأشبيلية، ولبله وأنحائهما.
- وقنسرين بجيان وأنحائهما.
- وفلسطين بشذونه والجزيرة دريَّة ومالقة وأنحائها.
- وقبائل اليمن بطليطلة وأراضيها.
- ونزل الفرس بشربيش وأحوازها.
- ونزل العراقيون بكورة البيرة وغرناطة.
- ونزل المصريون بتدمير وماردة وأشبونه وأراضيهما.
- ونزل الحجازيون بالقواعد الداخلية[١].
- أما البربر فقد نزل أغلبهم بالأطراف الغربية في نواحي ماردة وبطليوس وأراضي البرتغال، ونواحي الثغر الأوسط شمالي طليطلة فيما وراء نهر التاجة، وفي بعض أنحاء الثغر الأعلى، وفي قطاع قونقة والسهلة، ونزلت أقليات منهم بين القبائل العربية، بنواحي شاطبة ولقنت، وفي أحواز شذونة وأراضي الفرنتيزة[٢].

ونجد القبائل العربية قد احتلت معظم الوديان الخصبة في شبه الجزيرة، بينما نزل البربر بالعكس في أقاليم وهضاب قاحلة، ولم يحتلوا من البقاع الخصبة سوى القليل.

ويقول د/ عنان[٣]: «وقد كان هذا التقسيم المجحف للأقاليم المفتوحة عاملاً من عوامل ازدياد الشقاق بين العنصرين الفاتحين العربي والبربر».

---

(١) ابن خلدون (جـ٤، ص١١٩).
(٢) «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم (ص٤٦٤، ٤٦٥).
(٣) «دولة الإسلام» (جـ١، ص٧١).



ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير
(أول ولاة المسلمين للأندلس)

عرفنا أن موسى بن نصير اختار قبل رحيله إلى المشرق، ولده عبد العزيز لولاية الأندلس، وذلك في (ذي الحجة سنة ٩٥هـ)، فكان أول ولاتها من المسلمين، وأن سليمان بن عبد الملك قد أقر هذا الاختيار، فقضى عبد العزيز بن موسى في ولايته زهاء عامين عنيَ فيهما بتحصين الثغور، وقمع الخروج والعصيان، وافتتح عدّة أماكن وحصون، وأبدى همّة في تنظيم الحكومة الجديدة وإدارتها، وأنشأ ديوانًا لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها، لتوافق مشارب الرعايا الجدد من أهل الأندلس، ولتجمع حولها كلمة المسلمين من مختلف القبائل.

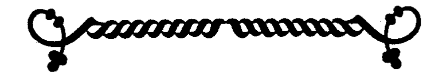
وشجع الزواج بين العرب والأسبان، وتزوّج هو بالملكة «إيجلونا» ابنة ملك القوط[1] (وقيل أرملته)، واشتهر اسمها بين العرب بأم عاصم أو إيله، واختار في إشبيلية عاصمة الأندلس الجديدة دير «سانتا روفينا» ليكون مقامًا له ولزوجته، وفيه أُجريت أول تعديلات على الطراز العربي.

ووفد عليه المهاجرون من مصر والشام والعراق وفارس، فأحيوا بالجزيرة سبل الزراعة والصناعة والتجارة، ولكنه لم يستطع أن يوفق بين مختلف القبائل، ولا أن يهدئ من ثورة الجند، هذا إلى ما ثار من ريب حول مقاصده بانقياده إلى زوجته، واتخاذه نوعًا من رسوم الملك حتى قيل أنّه تنصّر، وقيل أنه كان يبغي الملك ويسعى بتحريض زوجته ويعمل للاستقلال بأسبانيا.

كل هذا جعل خصومه يشنون عليه وعلى تصرفاته دعاية قوية، انتهت بالثورة، فوثب به جماعة من الجند على رأسهم وزيره حبيب بن أبي عبيدة

---
(١) ابن عذارى في «البيان المغرب» (جـ٢، ص٢٢).

الفهري، وقتلوه أثناء صلاته بأحد مساجد إشبيلية، وذلك في (رجب سنة ٩٧هـ - يناير سنة ٧١٦م)، وبعثوا برأسه إلى دمشق، مما يدل على أن سليمان بن عبد الملك والخلافة في دمشق لها دور في مقتله، حتى قيل إن سليمان عرض الرأس على موسى؛ زيادةً في إيلامه والتشفّي منه[١].



(١) انظر «تاريخ الأندلس» لابن القوطية (ص٤١)، وابن عبد الحكم (ص٢١٢) وما بعدها، وابن عذارى في «البيان المغرب» (جـ٢، ص٢٢، ٢٣).

ولاية أيوب بن حبيب، والحر بن عبد الرحمن الثقفي

بعد مقتل عبد العزيز بن موسى اتفق الزعماء في إشبيلية على تولية أيوب بن حبيب اللخمي، وهو ابن أخت موسى بن نصير، وكان عاقلاً صالحًا؛ فهدأت الخواطر نوعًا ما، ولبث في ولايته ستة أشهر، ثم أقاله محمد بن يزيد الذي خلف عبد الله بن موسى في ولاية أفريقيا، وعيّن لولاية الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفي، الذي نقل عاصمة الحكم إلى قرطبة[١]، فقدمها في (ذي الحجة سنة ٩٧هـ) في جماعة كبيرة من وجوه أفريقيا.

وأنفق الحر مطلع ولايته في قمع الفتن والقضاء على المنازعات التي كانت قائمة بين العرب والبربر، وإصلاح الجيش، ومطاردة الخوارج والمعتدين من الجند، وتنظيم الإدارة وتوطيد الأمن، وكان الحر صارمًا جائرًا شديد الوطأة، ثم سار نحو الشمال في جيش ضخم؛ ليستعيد المدن والحصون الشمالية التي غزاها المسلمون من قبل، فعبر جبال البرنية، واخترق ولاية سبتمانيا أو لانجدوك في (ربيع سنة ٩٩ هـ - ٧١٨م).

وكانت مدن سبتماتيا وقرقشونة وأربونة وبزيه ونيمه تابعة لمملكة القوط، وكانت تخلفت عن الطاعة بعد أن غزاها المسلمون لأول مرة بقيادة موسى بن نصير - كما ذكرنا - فافتتحها الحر واستولى عليها، وتابع زحفه حتى ضفاف نهر الجارون، ولكنه اضطر أن يعود أدراجه، عندما علم أن النصارى في منطقة ناڤار الجبلية (نبرّه أو بلاد البشكنس) قد نظموا حركة مقاومة خطيرة، وأن الأحوال قد اضطربت في قرطبة، واختل النظام، وعادت المنازعات والدسائس تعمل عملها في تقويض الأمن والسكينة، فقضى الحر وقتًا طويلاً في قمع الفتنة، حتى عزله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في منتصف سنة مئة (١٠٠ هـ)؛ لقسوته وصرامته، واضطراب النظام في عهده، فكانت ولايته سنتان وثمانية أشهر، سادت فيها القلاقل والفتن[٢].

---

(١) «نفح الطيب» (جـ٢، ص٥٦).
(٢) «دولة الإسلام في الأندلس» د/عنان.

ولاية السمح بن مالك الخولاني

كان عمر بن عبد العزيز قد تولى الخلافة، فاختار لولاية الأندلس السمح بن مالك الخولاني، وقرر أن تكون الأندلس ولاية مستقلة عن أفريقية تابعة للخلافة مباشرة؛ وذلك لما رآه من أهميتها واتساع شئونها، وكانت إلى ذلك الحين تابعة لوالي أفريقيا، وهو الذي يقوم بتعيين ولاتها.

وذكر ابن عذارى[١] أن عمر بن عبد العزيز فكّر في إخلاء الأندلس وإجلاء المسلمين قاطبة عنها؛ لانقطاعهم بها، وعزلتهم فيما وراء البحر عن باقي أقطار الخلافة، فقيل له: إن المسلمين قد تكاثروا بها واستقروا. فعدل عن مشروعه. وقالوا: «وليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل، فإنّ مصيرهم مع الكفار إلى بوار إلاّ أن يستنقذهم الله برحمته».

وجاء «السمح بن مالك الخولاني» إلى الأندلس في (رمضان سنة ١٠٠هـ - أبريل سنة ٧١٩م) مزودًا بنصائح الخليفة، وأولها بالطبع العدل، فمنه يأخذ وبه يقتدي، والرفق بأهل الرعية الجدد، وأن يُقيم كلمة الحق والدين.

وكان السمح بن مالك حاكمًا وافر الخبرة والحكمة والعقل، فقبض على زمام الأمور بحزم وهمَّة، وبادر بقمع المنازعات والفتن وإصلاح الإدارة والجيش، وخمس جميع أراضي الأندلس التي فُتحت عنوة، وقرر عليه الخراج بنسبة الخمس بعد أن حصرها جميعًا.

وأنشأ السمح قنطرة قرطبة الشهيرة على نهر الوادي الكبير؛ تحقيقًا لرغبة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وأبدى في جميع أعماله حزمًا ورفقًا وعدلاً، فالتفّ الزعماء حوله، وخبت الفتنة وهدأت الخواطر، واستقرّ النظام والأمن، وكان السمح جنديًا جريئًا وقائدًا عظيمًا، فلما انتهى من مهمة التنظيم والإصلاح

---
(١) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٢٥).

تاهب لاستئناف الغزو، وتوطيد سلطان الخلافة في الولايات الجبلية، والقواعد الشمالية، التي لم يستطع أن يتمم إخضاعها الحر الثقفيّ، فزحف على لانجدوك «سبتماتيا» في أواخر سنة (٧١٩م) في جيش ضخم، وفي جماعة كبيرة من وجوه الزعماء والقادة، واخترق جبال البرنية من الشرق من ناحية دوسيون، واستعاد أربونة وقرقشونة، ومعظم قواعد «سبتمانيا» وحصونها، وعاث في تلك الانحاء، وشتت كل قوة تصدت لمقاومته، ووقعت هذه الغزوة الشاملة في سنة (٧٢٠م – ١٠١هـ)، وقد اجتاح العرب يومئذ غاليس القوطية كلها، وجميع قواعد «سبتمانيا» ثم اتجه السمح بعد ذلك نحو الشرق ليغزو مملكة الفرنج الجنوبية، وزحف نحو «تولوز»، وكان الصدام العنيف بين العرب والفرنج.

عبور السمح بن مالك إلى فرنسا:

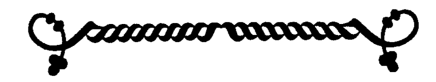
تولى «كارل مارتل» قيادة دولة الفرنج بعد صراع داخلي طويل، وأصبح محافظًا للقصر لا ينازعه منازع، وذلك منذ سنة (٧٢٠م)، وأصبح يحكم جميع الفرنج في أوستراسيا ونوستريا.

أما السمح بن مالك والي الأندلس الإسلامي، فقد غزا ولاية سبتمانيا القوطية، واستولى على قواعدها، وزحف المسلمون بقيادته على مدينة تولوشه (تولوز) عاصمة أكوتين، وكان أورد دوق أكوتين أحد أعضاء الأسرة المدڤنجية، أقوى أمراء الفرنج في فرنسا وأشدهم بأسًا، وكان أثناء الاضطراب الذي ساد مملكة الفرنج قد استقل بإقليم أكوتين وبسط نفوذه على جميع فرنسا الجنوبية، من اللوّار إلى البرنيه، والتف حوله القوط والبشكنس (النافاريون) وأخذ يطمح إلى انتزاع ملك الفرنج، أو ملك أسرته، ويُعد العدّة لقتال كارل مارتل المتغلب عليه، ولكنه اضطر أن يشغل عن مشروعه برد خطر العرب الداهم.

أمّا السمح فقد استولى على سبتمانيا وأقام بها حكومة إسلامية، ووزع الأراضي بين العرب والسكان، وفرض الجزية على النصارى، وترك لهم حرية

الاحتكام إلى شرائعهم، ثم زحف نحو الغرب؛ ليغزو أكوتين كما قدّمنا، فقاومه البشكنس والغسقدنيون سكان هذه الأنحاء أشد مقاومة، ولكنه فرّق جموعهم وقصد إلى تولوشه، وكان الدوق أودو قد جمع في تلك الأثناء جيشًا ضخمًا، وسار لرد العرب، وعلم السمح بذلك فارتدّ عن مهاجمة تولوشة ليلقى جيش الدوق - رغم تفوقه على جيشه في العدد -.

والتقى الفريقان بظاهر تولوشه، ونشبت بينهما معركة هائلة سالت فيها الدماء الغزيرة، وكثر القتل في الجيشين، وأبدى المسلمون - رغم قلتهم - شجاعة خارقة، وتراوح النصر حينًا بين الفريقين، ولكن السمح سقط قتيلاً من فوق جواده، فاختل نظام الفرسان المسلمين، ووقع الاضطراب في الجيش كله، وارتدّ المسلمون إلى سبتمانيا بعد أن فقدوا زهرة جندهم، وسقط عنهم عدة من الزعماء الأكابر، وذلك في التاسع من ذي الحجة سنة اثنين ومئة (٩ يونيو سنة ٧٢١م - الموافق ١٠٢هـ)[١]، وكان لابد للجيش أن يختار قائداً يحل محل السمح بن مالك.



(١) «البيان المغرب» لابن عذارى (جـ٢، ص٢٥)، «تاريخ ابن خلدون» (جـ٤، ص١١٨).

عبد الرحمن الغافقي واليًا على الأندلس

كان لمقتل السمح بن مالك أثرٌ في نفوس المسلمين، لكنهم تداركوا الأمر واختاروا عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي لقيادة الجيش.

من هو الغافقي: هو أبو سعيد عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي نسبة إلى غافق، وهي قبيلة من قبائل الأزد.

وقيل: بل هو غافق بن الحارث بن عك بن الحارث بن عدنان وعُرف بالعكي نسبة إلى بني عك، وغافق بطن منهم، تابعي جليل، ورجل فذ، جمع إلى الشجاعة والإقدام العدل في الأحكام، والسهر على مصالح العباد، وبُعْد النظر في السياسة، تعمد المؤرخون الإيجاز في سيرته والاكتفاء بمجرد الإشارة مع عظيم تقديرهم له[١].

رحل عبد الرحمن الغافقي إلى أفريقية، ثم وفد على سليمان بن عبد الملك - الخليفة الأموي - بدمشق، وعاد إلى المغرب، فاتصل بموسى بن نصير وولده عبد العزيز أيام إقامتهما في الأندلس.

ظهرت براعته في إنقاذ الجيش الإسلامي من المطاردة، عقب مقتل السمح بن مالك الخولاني في طولوشه، وتولى على إثر معركة طولوشه (تولوز) سنة (١٠٢هـ)، فانتقل إلى أربونة، فانتخبه المسلمون أميرًا عليها، وأقره عامل أفريقيا، ولبث يُخمد الفتن حتى قدم عنبسة بن سحيم الكلبي، الذي اختاره بشر بن صفوان الكلبي والي أفريقية، واليًا للأندلس، وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد جعل الأندلس ولاية مستقلة كما قدّمنا، تتبع الخلافة مباشرة، ولكن خلفه يزيد بن عبد الملك لم يُقر هذا التعديل، فعادت الأندلس تابعة لإفريقيا كما كانت،

---

(١) «فجر الأندلس» د/ حسين مؤنس (ص٢٦١).

وقدم عنبسة بن سحيم الكلبي إلى الأندلس في صفر سنة (١٠٣هـ) وأنفق حينًا في تنظيم الإدارة، وضبط النَّواحي، وإصلاح الجيش، وإعداده لغزوات جديدة.

وفي أواخر سنة (١٠٥هـ) أوائل سنة (٧٢٤م) سار عنبسة في الجيش إلى الشمال غازيًا، وعبر جبال البرنية مرة أخرى، وغزا سبتماتيا التي فقد المسلمون كثيرًا من معاقلها، منذ هزيمة تولوشه، واستولى على قرقشونة ونيما وما بينهما من القواعد، وارتد القوط عن محالفة الفرنج إلى محالفته، وتابع زحفه شمالاً في وادي الرون ونفد إلى برجويته حتى مدينة أوتون، فغزاها وخربها في (أغسطس سنة ٧٢٥م) ثم غزا مدينة حصانص، وخشي أودوق أكوتين أن يهاجمه المسلمون مرّة أخرى؛ فسعى إلى مفاوضتهم ومهادنتهم، وبسط المسلمون سلطانهم قويًا في شرق جنوبي فرنسا.

وفي ذلك يقول المؤرخون: كان نجاح عنبسة راجعًا إلى الجرأة والبراعة، أكثر منه إلى القوة والكثرة، وكان لينه ورفقه وحسن معاملته للسكان عاملاً في تقوية سلطان الإسلام في جنوبي فرنسا»[1].

ولكن المفاجأة أصابت المسلمين في مقتله عندما داهمتهم جموع كبيرة من الفرنج فأصابت منهم إصابات بالغة، ارتدوا على أثرها للداخل، وقتل عنبسة متأثرًا بجراحه في المعركة في (شعبان سنة ١٠٧هـ - ديسمبر سنة ٧٢٥م)، وعاد الاضطراب إلى الجزيرة.

وعلى مدى خمسة أعوام بعد وفاة عنبسة توالى الولاة على الأندلس.

- فتولى عذرة بن عبد الله الفهري، ولبث في منصبه شهرين.
- ثم يحيى بن سلمة الكلبي - ولاه بشر بن صفوان عامل إفريقية، فقدم الأندلس سنة (١٠٧هـ) وامتد حكمه عامين ونصف لم يحدث فيها شيء يُذكر.

---

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» د/ عنان، (جـ١، ص٨٢).

■ ثم تولى عثمان بن أبي نسعة الخثعمي، فقدمها في (شعبان سنة ١١٠هـ)، ولبث في منصبه ستة أشهر ثم عُزِلَ.

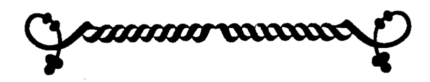
■ ثم تولى حُذيفة بن الأحوص القيسي فلم تطل ولايته سوى أشهر أيضًا.

■ ثم تولى الهيثم بن عبيد الكلابي – أو الكناني – فقدم الأندلس في (المحرم سنة ١١١هـ).

وبالطبع فإن هذا التتابع أصاب الجزيرة بالخلل والاضطراب، وتفاقم الخلاف بين الزعماء والقبائل.

فلما ولي الهيثم حاول أن يقمع الفوضى والسيطرة على النظام، وفي سبيل تحقيق ذلك طارد الشغب والفوضى بشدة، واضطهد معظم مخالفيه في الرأي، وبالأخص اليمنية، وتتبع كثير منهم بالسجن والمطاردة، وقاد حملة ضد «منوسة» وهو زعيم بربري غامض الشخصية، كان حاكمًا لمنطقة الاسترياس، وظهرت منه أعراض التمرد، وفشل الهيثم في قمع التمرد؛ نتيجةً لتفكك الجيش وتمرد البربر، ولم يلبث الهيثم أن توفي بعد أن حكم الأندلس عامين.

فاختارت «الجماعة» مكانه محمد بن عبد الله الأشجعي؛ حتى يُعيَّن الوالي الجديد، فلبث في منصبه شهرين؛ حتى عُيِّنَ عبد الرحمن الغافقي واليًا على الأندلس مرة أخرى في (صفر سنة ١١٣هـ)[١].



---

(١) «نفح الطيب» (جـ٢، ص٥٦).

ولاية عبد الرحمن الغافقي الثانية سنة (١١٣هـ)

بموافقة خليفة المسلمين هشام بن عبد الملك عيّن عبيدة بن عبد الرحمن السلمي، والي إفريقيا: عبد الرحمن الغافقي واليًا على الأندلس في (صفر سنة ١١٣هـ - أبريل سنة ٧٣١م)، فكانت ولايته الثانية.

وقد كان عبد الرحمن - كما ذكرنا من قبل - جنديًا عظيمًا، ظهرت مواهبه الحربية في غزوات فرنسا، وحاكمًا قديرًا بارعًا في شئون الحكم والإدارة، ومُصلحًا كبيرًا يضطرم رغبة في الإصلاح، بل كان بلا شكّ أعظم ولاة الأندلس وأقدرهم جميعًا، وقد تحدّث ابن عبد الحكم وغيره[١] على تقدير عبد الرحمن الغافقي والتنويه برفيع خصاله، والإشادة بعدله وحلمه وتقواه.

ورحبت الأندلس قاطبة بولاية الغافقي، وأحبه الجند لعدله ورفقه ولينه، وجمعت هيبته كلمة القبائل فتراضت مضر وحمير، وذاب الصراع بين اليمنية والقيسية في ظلّ عدله هناك، وعاد الوئام للجيش.

وبدأ عبد الرحمن ولايته بزيارة الأقاليم المختلفة، فنظم شئونها، وطاف الأقاليم - أقاليم الأندلس - ينظر شئون الناس ومظالمهم، ويقتص من القوي للضعيف، ويعزل الولاة الذين حادوا عن جادة الاستقامة، ويستبدل بهم ولاةً معروفين بالعدل والنزاهة، متأهبًا لفتح بلاد الغال - أو غاليا - والتي عُرفت عند المسلمين باسم: «الأرض الكبيرة» وهي فرنسا حاليًا.

دعا عبد الرحمن المسلمين من اليمن والشام ومصر وإفريقية إلى مناصرته، فأقبلت عليه الجموع المؤمنة المجاهدة؛ فازدحمت بهم قرطبة قاعدة الأندلس في أيامه، وكان عبد الرحمن الغافقي يتوقُ إلى الانتقام لمقتل السمح بن مالك وهزيمة

---

(١) انظر «جذوة المقتبس» للحميدي (جـ٦، ص ٢٥٥) مع ابن عبد الحكم (ص٢١٦) وما بعدها.

المسلمين في تولوشه (تولوز) ، وبدأ الفرنج والقوط في الولايات الشمالية بالتحرك لمهاجمة المواقع الإسلامية.

عندئذ لم يرَ بدًّا من السير إلى الشمال قبل أن يستكمل كل أهبته، على أنه استطاع أن يجمع أعظم جيش سيَّره المسلمون إلى فرنسا، وفي أوائل سنة (٧٣٢م) أوائل سنة (١١٤هـ) سار عبد الرحمن إلى الشمال مخترقًا ولاية أراجون (الثغر الأعلى) وناڤار (بلاد البشكنس) وعبر البرنية عن طريق بنبلونة، ودخل فرنسا في (ربيع سنة ٧٣٢م) وزحف فوراً على مدينة آرل الواقعة على نهر الرون، لتخلفها عن آداء الجزية، وقد استولى عليها بعد قتال عنيف ومعركة هائلة نشبت على ضفاف النهر بينه وبين قوات الدوق أودو.

ثم زحف غربًا وعبر نهر الجارون، وانقض المسلمون على ولاية أكوتين، فتساقطت مدنها ووديانها، وكانت إمارة أكوتين في ذلك الوقت تمتد بين نهر الرون شرقًا وخليج غسقوين (بسكونية) غربًا، وبين اللوار شمالاً ونهر الجارون جنوبًا، وتشمل مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبيرجور وسانتونج وبواتو وڤنده وجزءًا من انحو[١].

وقد حاول أورد قائد الفرنج أن يوقف زحف المسلمين، ولكن الجيشين التقيا على ضفاف نهر الدردون، فهزم الدوق أودو هزيمة فادحة، ومزّق جيشه شرَّ ممزق، وقد تحدّث مؤرخي الفرنج عن ذلك فقال حبرهم[٢]:

« والله وحده يعلم كم قُتل في تلك الموقعة من النصارى » .

ثم واصل عبد الرحمن الغافقي ورجاله الشجعان مطاردة جيش الدوق حتى عاصمته بوردو (بروال) واستولى عليها بعد حصار قصير، وفرّ الدوق في نفر من صحبه إلى الشمال، وسقطت أكوتين كلها في يد المسلمين، ثم ارتد

---

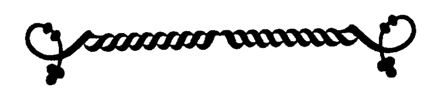
(١) د/ عنان . الهامش (جـ١، ص٩٠) .
(٢) إيزديدور الباجي – المصدر السابق.

عبد الرحمن نحو الرون كرّة أُخرى، واخترق جيش المسلمين برجونية واستولي على ليون، وبيزا نصون، ووصلت طلائعه حتى صانص التي تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط، وارتد عبد الرحمن بعد ذلك غربًا إلى ضفاف اللّوار؛ ليُتم فتح هذه المنطقة، ثم يقصد إلى عاصمة الفرنج.

وواصل الجيش الإسلامي مسيرته الظافرة، حتى افتتح نصف فرنسا الجنوبي كله من الشرق إلى الغرب في بضعة أشهر فقط.

وامتدت سيطرة المسلمين على خط قدّره المؤرخون بألف ميل من صخرة طارق (جبل طارق) إلى ضفاف اللّوار، وقد كاد هذا الاقتحام وبهذه المسافة الطويلة، كاد أن يحمل العرب إلى حدود بولونيا وأودية وسهول اسكتلندا.

ويقول جيبون أحد مؤرخيهم: «فليس الرّين بأمنع من النيل أو الفرات، ولعل أسطولاً عربيًا كان يصل إلى مصب التيمز دون معركة بحرية، بل ربما كانت أحكام القرآن تُدرس الآن في معاهد أكسفورد، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحي والرسالة»(١).



(١) د/ عنان (جـ١، ص٩١)، والمؤرخ هو إدوارد جيبون.

معركة بلاط الشهداء

الفرنجة: شعبة من أولئك البربر الذين غزوا روما، وتقاسموا تراثها، وحلوا في ألمانيا وفرنسا، وتعني كلمة الفرنجة «الحر».

حكم منهم البيت الميروفنجي من سنة (٤٨١م) وحتى سنة (٧١٦م)، وكان الحكام الميروفنجيون في آخر حياتهم كما وصفهم المؤرخ إينهارت: أنه لم يكن للملك شيء في المملكة سوى اسمه، وذوائب شعره المرخاة، ولحيته الطويلة، حتى إذا جلس الواحد منهم على عرشه، أخذ يلهو بإدارة شؤون الدولة الصبية، فيستقبل الرسل الوافدين عليه من مختلف الممالك، ويكلمهم بكلمات يتلقنها ليتفوَّه بها صاغراً مأموراً، ولم يكن للملك ما يصح أن يدعيه لنفسه سوى ضيعة صغيرة فيها مسكنه الضئيل حجمه، وحاشيته القليل عددها، فإذا اقتضى الأمر سفراً، ركب عربة مثل عربات المزارعين من أهل الريف تجرها الأبقار، ويسوقها فلاح من الفلاحين، وإذا جاء إلى القصر، أو ذهب إلى الاجتماع السنوي العام، سار موكبه في هذه الهيئة، على حين أصبح رئيس البلاد مسيطراً في شؤون الإدارة والحكم، مهيمناً على جميع المسائل السياسية الداخلية منها والخارجية»[١].

وكان ملك الفرنج يومئذ تيودوريك الرابع، ولكن ملوك الفرنج كانوا في ذلك العصر أشباحًا قائمة فقط، وكان المحافظ شارل مارتل هو الملك الحقيقي، يستأثر بكل سلطة حقيقة، وعليه يقع عبء الدفاع عن ملكه، وأمته، فاجتمعت الفرنج إلى ملكها الأعظم شارل – وهذه سمة لملوكهم – فقالت له: ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب، كنّا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من

---

(١) «تاريخ أوروبا – العصور الوسطى» تأليف: هـ. أ. ل فيشر، الطبعة الثالثة – دار المعارف – مصر ص٧٠ .

مغربها، واستولوا على بلاد الأندلس، وعظيم ما فيها من العدّة والعدد، بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم.

فقال لهم ما معناه: «الرأي عندي أن لا نتعرض لهم في جرحتهم هذه؛ فإنهم كالسيل يحمل من يصادره، وهم في إقبال أمرهم، ولهم نيات تغني عن كثرة العدد، وقلوب تُغني عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم، ويتخذوا المساكن، ويتنافسون في الرياسة، ويستعين بعضهم ببعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر»[1].

ويقول الدكتور عنان في هذا الشأن:

«ونستطيع أيضًا أن نُفسر تمهل شارل مارتل بانه كان يقصد إلى ترك خصمه ومنافسه أودو دون إغاثة؛ حتى يقضي المسلمون على مُلكه وسلطانه، فيتخلص بذلك من منافسته ومناوأته»[2].

وعلى أي حال فإنّ عبد الرحمن كان قد اقتحم أكوتين وجنوبي فرنسا كله، حينما تأهب شارل مارتل للسير إلى لقائه، وجاء الدوق أودو بعد ضياع، وتمزيق قواته يطلب العون والنجدة من خصمه القديم شارل مارتل، وكان شارل قد حشد جيشًا ضخمًا من الفرنج ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة، والعصابات المرتزقة فيما وراء الراين، يمتزج بين المقاتلة من أمم الشمال كلها، وجنّد جندًا غير نظاميين، نصف عراة يتشحون بجلود الذئاب، وتنسدل شعورهم الجعدة، فوق أكتافهم العارية، وسار زعيم الفرنجة في هذا الجيش الجرار نحو الجنوب لملاقاة العرب في الجبال والهضاب؛ حتى يُفاجئ العدو في مراكزه قبل أن يستكمل الأهبة لرده، وكان الجيش الإسلامي قد اجتاح عندئذ جميع أراضي أكوتين التي تقابل اليوم من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبريجور وسانتونج وبواتو،

(١) «نفح الطيب» (جـ١، ص١٢٩).

(٢) «دولة الإسلام في الأندلس» (جـ١، ص٩٨).

وأشرف بعد سيره المظفر على مروج نهر اللوار الجنوبية، حينما يلتقي بثلاثة من فروعه هي «الكريز» و«الڤيين» و«الكلين».

جرت المعركة في السهل الواقع بين مدينتي بواتييه وتور، حول نهري كلين وڤيين فرعي اللّوار، على مقربة من مدينة تور، وجعل الجيش الإسلامي في زحفه الممتد بين مدينتي بواتييه وتور، كما قدّمنا، واستولى المسلمون على بواتييه، ونهبوها وأحرقوا كنيستها الشهيرة، ثم هجموا على مدينة تور الواقعة على ضفة اللوار اليسرى واستولوا عليها، وفي ذلك الحين كان جيش الفرنج قد انتهى إلى اللوار، دون أن يشعر المسلمون بمقدمه في البداية، وأخطأت الطلائع الإسلامية تقدير عدده وعدته، فلما أراد عبد الرحمن أن يقتحم اللوار، لملاقاة العدو على ضفته اليمنى، فاجأه شارل مارتل بجموعه الجرارة، وجيشه الكبير العدد والعدة، ووجد عبد الرحمن أن جيش الفرنج يفوقه في العدد والعدَّة، فارتدَّ من ضفاف النهر ثانية إلى السهول الواقعة بين تور وبواتييه (بلاط الشهداء) وعبر شارل اللّوار غربي تور، وعسكر بجيشه على بعد أميال قليلة من الجيش الإسلامي بين نهري كلين وڤيين فرعي اللّوار.

حالة الجيش الإسلامي قبل القتال:

كانت حالة الجيش الإسلامي تدعو إلى الخوف والقلق، فقد كان الشقاق مضطرمًا بين قبائل البربر التي يتألف منها معظم الجيش، وكانت تتوقُ إلى الانسحاب ناجيةً بغنائمها الكبيرة، وكان المسلمون في الواقع قد استصفوا ثروات فرنسا أثناء سيرهم وانتصارهم المظفر، فقد أثقلوا أنفسهم بما لا يقدر ولا يحصى من الذخائر والغنائم والسبيّ، فكانت هذه الأثقال النفيسة تحدث الخلل في صفوفهم، وتُثير بينهم ضروب الخلاف والنزاع، وقدّر عبد الرحمن خطر هذه الغنائم على نظام الجيش وأُهبته، وخشيَ مما تُثيره في نفوس الجند من الحرص والانشغال، وحاول عبثًا أن يحملهم على ترك شيء منها، ولكنه لم يشدد في

ذلك خيفة التمرد، وكان المسلمون من جهة أُخرى، قد أنهكتهم غزوات أشهرٍ متواصلة منذ أن دخلوا فرنسا، ونقص عددهم بسبب تخلف حاميات عديدة منهم، في كثير من القواعد والمدن المفتوحة، ولكن عبد الرحمن تأهب لقتال العدو، وخوض المعركة الحاسمة بعزم وثقة(١).

بدء المعركة:

لقد بدأت المعركة قرب تور، وانتهت قرب بواتييه، وقد قيل أن مكانها كان بجوار قصر كبير، والقصر يسمى بلاط، وربما كان لهذا القصر علاقة كبيرة بحوادث المعركة(٢).

بدأ القتال في اليوم الثاني عشر أو الثالث عشر من أكتوبر سنة (٧٣٢م) أواخر (شعبان سنة ١١٤هـ)، ونشبت بين الجيشين معارك مجلبة مدى سبعة أيام أو ثمانية، احتفظ فيها كل بمراكزه، وفي اليوم التاسع نشبت بينهما معركة عامة، فاقتتلا بشدّة وتعادل، حتى دخول الليل، واستأنفا القتال في اليوم التالي، وأبدى كلاهما منتهى الشجاعة والجلد، حتى بدأ الإعياء على الفرنج، ولاح النصر في جانب المسلمين، ولكن حدث عندئذ أن افتتح الفرنج ثغرة إلى معسكر الغنائم الإسلامي، وخشى عليه من السقوط في أيديهم.

وتقول رواية أخرى – ربما أكثر وضوحًا –: أن معسكر الغنائم سوف يقع في يد العدو، فارتدت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة إلى مَا وراء الصفوف لحماية الغنائم، وتواثب كثير من الجند للدفاع عن غنائمهم، فدبٌ الخلل في صفوف المسلمين، وعبثًا حاول عبد الرحمن أن يُعيد النظام وأن يُهدئ روع الجند، وبينما هو يتنقل أمام الصفوف يقودها ويجمع شتاتها، إذ أصابه من جانب الأعداء سهم أودى بحياته، فسقط قتيلاً من فوق جواده، وعمّ الذعر

(١) «نفح الطيب» (جـ١، ص١٠٩)، (جـ٢، ص٥٦).
(٢) «فجر الأندلس» د/ حسين مؤنس (ص٢٧١).

والاضطراب في الجيش الإسلامي، واشتدت وطأة الفرنج على المسلمين، وكثر القتل في صفوفهم، ولكنهم صمدوا للعدو حتى جنَّ الليل، وافترق الجيشان دون فصل، وكان ذلك في اليوم (الحادي والعشرين من أكتوبر سنة ٧٣٢م) – أوائل (رمضان سنة ١١٤هـ)[١].

وهنا اضطرم الجدل والنزاع بين قادة الجيش الإسلامي، واختلف الرأي، وسرى التوجس والفزع، ورأى الزعماء أن كل أمل في النصر قد غاض وضعف، فقرروا الانسحاب على الفور، وفي الحال غادر المسلمون مراكزهم، وارتدوا في جوف اللّيل وتحت جنح الظلام جنوبًا صوب قواعدهم في سبتمانيا، تاركين أثقالهم ومعظم أسلابهم وقد غنمها العدو منهم، وفي فجر الغد، لاحظ شارل وحليفه أودو سكون المعسكرات العربية، فتقدما منها بحذر وإحجام، فألفياها خاوية خالية، وخشي شارل الخديعة والكمين؛ فاكتفى بانسحاب العدو، ولم يجرؤ على مطاردته، وآثر العود بجيشه إلى الشمال.

وفي وصف مُبالغ فيه جاء في روايات الغربيين للمعركة قال أحدهم:

« ولما رأى عبد الرحمن أن السهول قد غصت بجموعه؛ اقتحم الجبال، ووطئ السهول بسيطها ووعرها، وتوغّل مُثخنًا في بلاد الفرنج وسحق بسيفه كل شيء، حتى أن أودو حينما تقدّم لقتاله على نهر الجارون وفرَّ منهزمًا أمامه، لم يكن يعرف عدد القتلى سوى الله وحده، ثم طارد عبد الرحمن الكونت أودو، وحينما حاول أن ينهب كنيسة تور المقدسة ويحرقها، التقى شارل أمير فرنج أوستراسيا، وهو رجل حرب منذ فتوته، وكان أودو قد بادر بإخطاره، وهناك قضى الفريقان أسبوعًا في التأهب، واصطفا أخيرًا للقتال، ثم وقفت أمم الشمال كَسُورٍ منيع، أو منطقة من الثلج لا تُخترق، وأثخنت في العرب بحد السيف »[٢].

---

(١) انظر ابن عذارى في « البيان المغرب » (جـ١، ص٣٧)، « الكامل » لابن الأثير (جـ٥، ص٧٤)، وابن خلدون (جـ٤، ص١١٩)، والمقري (جـ٢، ص٥٦)، و« ابن عبد الحكم » (ص٣١٧) بتصرف يسير.

(٢) « دولة الإسلام » د/ عنان – والرواية عن إيزيردر الباجي الذي كان معاصرًا للموقعة.

ولما أن استطاع أهل أوستراسيا (الفرنج)، بقوة أطرافهم الضخمة، وبأيديهم الحديدية، التي تُرسل من الصدر توًا ضرباتها القوية، أن يُجهزوا على جموع كبيرة من العدو، التقوا أخيرًا بالملك (عبد الرحمن) وقضوا على حياته، ثم دخل الليل ففصل بين الجيشين، والفرنج يلوحون بسيوفهم العالية احتقارًا للعدو، فلما استيقظوا في فجر الغد، ورأوا خيام العرب الكثيرة كلها مصفوفة أمامهم، تأهبوا للقتال معتقدين أن جموع العدو جاثمة فيها، ولكنهم حينما أرسلوا طلائعهم، ألفوا جموع المسلمين، قد فرَّت صامتة تحت جنح الليل تولى شطر بلادها، على أنهم خشوا أن يكون هذا الفرار خديعة يعقبها كمين من الجهات الأخرى، فأحاطوا بالمعسكر حذرين، ولكن الغزاة كانوا قد فرّوا، وبعد أن اقتسم الفرنج الغنائم والأسرى فيما بينهم بنظام، عادوا مغتبطين إلى ديارهم ».

وتحدث المؤرخ الغربي إدوارد جيبون عن نتائج هذه المعركة بالنسبة للفرنج فقال :

« إن هذه الموقعة أنقذت آباءنا البريطانيين وجيراننا الفرنسيين من نير القرآن المدني والديني، وحفظت جلال رومة، وأخّرت استعباد قسطنطينية، وشدّت بأزر النصرانية، وأوقعت بأعدائها بذور الفشل »[١].

المسلمون في الأندلس بعد معركة بلاط الشهداء:

لم يخسر المسلمون في بلاط الشهداء بقدر ما خسرت بلاد الأندلس من هزيمة المسلمين ووقف تقدمهم، ولا نستدل على قولنا هذا إلا بأقوالهم هم، فيقول « ول ديورانت » في قصة الحضارة : « ولم تشهد بلاد الأندلس في تاريخها كله حكمًا أكثر حزمًا وعدالة وحرية مما شهدته في أيام فاتحيها العرب »[٢].

وقد بالغ المسيحيون الأوربيون في تقدير عدد القتلى من المسلمين، حتى

(١) المصدر السابق.

(٢) قصة الحضارة – ول ديورانت.

أوصلهم أحد مؤرخيهم إلى (٣٧٥) ألف قتيل، فهل حشد عبد الرحمن الغافقي نصف مليون جندي على أقل تقدير لتكون خسائره هذا الرقم الفلكي؟ وإذا كانت هذه الأرقام حقيقية فمن أين جاء الغافقي بتمويل ومواصلات هذه الجيوش الجرارة، والتي لو حشدها المسلمون لكانت أوربا كلها تحت أقدامهم في أقل من عام.

ولو كانت هناك مطاردة من « شارل » وجنوده لصدقنا أقوالهم عن التمزيق والأشلاء؛ بسبب فوضى المطاردة والذعر، ولكن الحقيقة أن « شارل » برغم النصر الذي حققه هو الذي كان مذعوراً، فقد وقف أمام معسكر المسلمين خائفاً مرتاباً يظن أنها حيلة من حيل الحرب وأن المسلمين على وشك إعادة الهجوم والقتال، فوجد خيامهم خالية، وقد انسحبوا انسحاباً منظماً، وذهبوا في جنح الظلام، أما هو فلم يجرؤ على مواصلة المطاردة، أو حتى التفكير في ذلك، بل انسحب شمالاً مكتفياً بما حققه.

ولم يتوقف المسلمون عند أحداث بلاط الشهداء، بل تحالف « مورون » دوق مرسيليا مع يوسف بن عبد الرحمن الفهري والي أربونة، وزحفا معاً وعبروا نهر الرون، واستوليا على آرل عام (٧٣٥م)، ثم حاصرت الجيوش المتحالفة مدينة فرتا وهي المعروفة اليوم باسم « سان ريمي » ثم تقدمت هذه الجيوش واستولت على أفينيون، وهي التي يسميها العرب « صخرة أبينون » كما وصل المسلمون إلى نهر ديرانس » أحد فروع نهر الرون، وهو الذي تقع عليه مدينة أفينيون، عند نقطة اتصاله بالرون، وظلّ المسلمون يتحكمون في « بروفانس » أربع سنوات، لم يجرؤ خلالها أحدٌ على منازعتهم السلطان فيها[١].

وزحف شارل مارتل عام (٧٣٢م)، واستولى على لودون (ليون)، وكان المسلمون قد تخلوا عنها بعد بلاط الشهداء، كما تخلوا عن برجنديا، وفي عام (٧٣٥م) توفي الدوق أودو، ووافق شارل على أن يخلف « هينود » أحد أبناء

---

(١) « المسلمون في أوروبا » (ص١١٧)، وانظر « فجر الأندلس » (٢٧٨) د/ حسين مؤنس.

أودو في منصب الدوقية، مع تبعيته لشارل، فاقسم «هينود» يمين الولاء له. ولمّا اطمأنّ عبد الملك بن قطن الفهري إلى نجاح قائده يوسف الفهري، انصرف إلى تدعيم سلطان المسلمين في إمارات جبل البرانس، لكنّه لم يوفّق، فولى الخليفة مكانه عقبة بن الحجاج السلولي عام (١١٦هـ - ٧٣٤م) والسلولي كما وصفه ابن عذارى «صاحب بأس ونجدة ونكاية للعدو»[١].

لقد كان السلولي من طراز سلفه الغافقي في حب الجهاد والعدل، وذلك ما ذكره ابن عذارى أيضًا؛ إذْ يقول عنه: «أن الرجل كان إذا أسرَ الأسير لم يقتله حتى يدعوه إلى الإسلام، ويُبيّن له فضائله، فأسلم على يديه ألف رجل»[٢].

مما يُثبت لنا تاريخيًا أن عقبة السلولي، ومن عَمِلَ تحت إمرته من المسلمين كانوا يُؤثرون الرفق، حتى مع الأسرى - ومن كان مصيرهم القتل في قواعد الحرب في تلك الأيام - فكيف بأهل المدن والأرياف أو الأديرة والكنائس.

ولمّا تولى عقبة بن الحجاج السلولي بعد عبد الملك بن قطن الفهري لم يجد ما يأخذه عليه، فعهد إليه بقيادة الخيّالة، وأرسله إلى الثغر، وأخذ يُعدّ العُدَّة لعبور البرانس[٣].

وقد اشتدّ عزم المسلمين وازداد إصرارهم على الثأر لبلاط الشهداء، فحصّنوا ما بأيديهم من مدن فرنسا «غاليا»، و شحنوها بالمقاتلين، ثم عبروا «دوفيني» شمال بروفانس، وفتحوا «فالانس» على نهر الرون، واستعادوا «ليون» و«برجنديا»[٤].

وجال عقبة السلولي في شرق فرنسا، في الوجهة التي سلكها عنبسة قبله،

---

(١) «البيان المغرب» لابن عذارى (جـ٢، ص٢٩).
(٢) المصدر السابق.
(٣) «ابن عبد الحكم» (ص٢٩٣).
(٤) «نفح الطيب» (جـ١، ص٢٢٠).

ولكنه لم يصل إلى ما وصل إليه عنبسة شمالاً، وسينال الشهادة قرب قرتشونه، إحدى مدن سبتمانيا في (صفر سنة ١٢٣هـ)[١].

في هذه الأثناء استعدَّ شارل مارتل لاسترداد ليون وبروفانس وأفنبيون، والتي تُعدّ مفتاح الرون، وقرر الاستيلاء على مرسيليا أيضًا؛ ليتخلص من تحكم المسلمين في جنوب فرنسا، هذا التحكم الذي يؤدي إلى ضيق اقتصادي شديد لغرب أوروبا.

استولى شارل مارتل عام (٧٣٧م) على أفينون، واقتحمها بعد أن استمات المسلمون في الدفاع عنها، ثم حاصر أربونة معقل المسلمين في جنوبي فرنسا، وأميرها يومئذ «الهيثم» - أو هرثمة كما في بعض المصادر -، ولكنه عجز عن فتحها؛ إذْ أسرع عقبة السلولي، وأرسل جيشًا عن طريق البحر؛ لنجدة أربونة غير أن شارل مارتل باغت هذه النجدة قبل أن تتهيأ للقتال، وقضى عليها.

ورغم ذلك صمدت أربونة للحصار، مما اضطر شارل إلى الرحيل عنها بعد أن نازل المسلمين أيامًا، أُصيب له فيها رجالٌ عديدون، فتعثَّرَ عليها المقام، وخامره ذعرٌ وخوفٌ من المسلمين، فزال عنهم راحلاً إلى بلدِهِ، وقد نصب في وجه المسلمين حصونًا على وادي ردونة، ملأها بالرجال والعتاد، فأصبحت ثغرًا بين بلاده والمسلمين[٢].

وقبل رحيل شارل أمر رجاله بتخريب القلاع في «نيم» و«آجه» و«بيزبي»، و«ماجلون» التي تُعرف باسم «ثغر المسلمين»، إذ كانت مرسى آمنًا للسفن الإسلامية القادمة من الأندلس وإفريقية، فكان تخريبه لها بقصد حرمان المسلمين من الإمدادات التي تصل عن طريقها[٣].

(١) المصدر السابق (جـ١، ص٢٠٥).
(٢) انظر «نفح الطيب» (جـ١، ص٢٧٤).
(٣) «فجر الأندلس» (ص٢٨١) وما بعدها.

الخلافة الأموية والأندلس

كانت هذه الأحداث تجري على قدمٍ وساق، بينما كانت الدعوة العباسية تشغل الخلافة الأموية عن بذل العناية الواجبة بهذا الإقليم البعيد عن مركز الخلافة في أقصى الغرب، وقد انشغلت الخلافة ومركزها في دمشق انشغالاً كاملاً عن الأندلس، وأوكلت هذا الأمر لأمراء إفريقية والأندلس وإمكاناتهم، وزاد الأمر خطورة ثورة الخوارج في إفريقية عام (٧٤٠م)، ثم ثورة البربر ضد العرب في أسبانيا وتكرارها عام (٧٤٠م، ٧٤٧م) .. كل ذلك يُفسّر لنا ما تتابع من بعض الهزائم في فرنسا، مما أثّر على الروح المعنوية في مسلمي الأندلس.

وفي عام (١٣٢هـ - ٧٥٠م) قامت الدولة العبّاسيّة، وانتقلت الخلافة من دمشق إلى بغداد مما أدى إلى انقسام العالم الإسلامي.

ولم يقتصر التغيير على الشرق، بل شمل الغرب أيضًا، فقد حلّت الدولة الكارولنجية مكان الدولة الميروفنجية، فبعد وفاة شارل مارتل عام (٧٤١م)، ورثه أبناؤه الثلاثة «كارلمان، وبيين القصير، وابنٌ غير شرعي هو جريفو» وساعدت الظروف «بيين القصير» فانفرد بالنفوذ عام (٧٤٧م) بسبب دهائه، وتأييد البابوية له، فأنهى حكم الميروفنجيين.

وانتهى الوضع السياسي في منتصف القرن الثامن للميلاد، الموافق النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، انتهى إلى وجود ثلاث قوى عالمية هي:

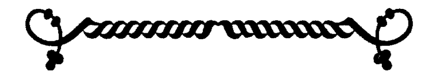
١ - الإمبراطورية الإسلامية، الأُمويون ثم العباسيون.

٢ - الإمبراطورية البيزنطية، في شرق أوروبا.

٣ - دولة الفرنجة الكارولنجية في غرب أوروبا.

ولم يقف الأمر بالنسبة لأوضاع المسلمين ولم تستقر عند هذا الحد، فخلال هذه الظروف المضطربة في العالم الإسلامي، قام المسيحيون في مدن سبتمانيا بمساعدة الجيش الفرنجي، فتمكّن «أنسمندس» القوطي من إرجاع المسلمين عن سبتمانيا ومدنها عام (٧٥٢م)، واستعاد أغلب المدن، أما «أربونة» وهي آخر حصن قويّ للمسلمين، فقد حاصرها الفرنجة، وطال حصارها لمناعتها، وتمكّن المسلمون خلال الحصار من قتل القائد القوطي في كمين، وبقيت أربونة ممتنعة على أعدائها[١].

ولما دخل عبد الرحمن الداخل الأُموي الأندلس، واستتب الأمر له عام (١٤٠هـ - ٧٥٨م) ذلك ما سنعرض له في الصفحات القادمة.



(١) «المسلمون في أوروبا» (ص١٢٢، ١٢٣).

النهاية في المشرق والبداية في المغرب

بالرغم من أن الخلافة الأموية كانت تسيطر على أراضٍ واسعة مترامية تُشكل دولة عظيمة لها قوة وشكيمة، إلاّ أن انهيارها جاء سريعًا وفي أوج هذه العظمة والأطراف المترامية؛ وذلك لأنها كانت تقوم على دعائم مضطربة من جراء تلك الأحقاد التي أثارتها السياسة الأموية في نفوس خصومها، فقد كانت هذه الأحقاد تُحيط مُلك بني أُميّة بسياج خطر من الحفيظة والبُغض، ولقد كانت هذه الخصومة الخطرة التي طالما تغذّت بظمأ الانتقام، هي عماد الدعوة الشيعية التي لبثت تشق طريقها منذ مقتل عليّ بن أبي طالب، ثم مقتل بنيه من بعده[١].

وفي أوائل القرن الثاني من الهجرة، استطاع الشيعة أن يظهروا في النواحي، ولاسيما في العراق وخراسان، وأن يُدبّروا عِدّة ثورات محلية خطيرة، وقد أُخمدت هذه الحركات الأُولى في سيل من الدماء، ولكن إراقة الدماء كان يُذكي ظمأ الانتقام، ولم تكن المعركة متكافئة من الوجهة الماديّة، فلم يكُ للشيعة جيوش منظمة أو موارد يُعتدّ بها، ولكن الخطر كان يكمن في نواحيها المعنوية، واشتدّ هذا الخطر حينما ضعف أمر العمال والولاة في النواحي، واتسع الأمر على الحكومة المركزية، وانحلّ سلطانها في الأماكن والولايات النائية، وأضحى عُرضة للانتقاض والانهيار.

وقد ظلّ دعاة الشيعة قرابة النصف قرن يُنظمون دعوتهم، ويضعون لها الأصول والقواعد، ويحشدون لها الأنصار والأتباع، وكانت دعوتهم تلقى تأييدًا كبيرًا في الخفاء، شأنها شأن الدعوات السرية الثورية، وبرغم اختلاف الشيعة فيما بينهم، إلاّ أنهم اتحدوا واتفقوا على خصومة بني أُميّة ومواجهتهم في السر، ثم فيما بعد في العلن.

---

(١) انظر «الخلافة الأموية والخلافة العباسية» ضمن هذه السلسلة.

وقد كانت إمامة الشيعة بعد مقتل الحسين بن عليّ إلى أخيه محمد بن عليّ ابن أبي طالب، المعروف بابن الحنفية، وهو أخو الحسن والحسين من الأب فقط، ويُعرف بابن الحنفية نسبة لأمه خولة بنت جعفر بن قيس المعروفة بالحنفية، فلما توفي ابن الحنفية سنة (٨١هـ)، قام بها ولده أبو هاشم ثم عبد الله بوصية منه، واستمرّ أبو هاشم أيام الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان قائمًا بأمر الشيعة، يفدون عليه ويُؤدون له الخراج، ثم توفي مسمومًا سنة (٩٨هـ) بتحريض من سليمان بن عبد الملك – فيما يُقال – ، وأوصى بالإمامة إلى ابن عمه محمد بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس كبير علماء الشيعة يومئذ، والعباس هو ابن عبد المطلب عم النّبيّ ﷺ(١).

وتقدّمت الدعوة الشيعية على يدّ محمد بن علي تقدُّمًا كبيرًا، وظفرت في ذلك الحين بأعظم دعاتها السياسيين، وهو أبو مسلم الخراساني، وقد كان أبو مسلم شخصية عظيمة تتمتع بقدرة ومواهب فائقة، ولكن الغموض يحيط – مع ذلك – بأصله ونشأته، وتختلف الرواية في أمره اختلافًا كبيرًا؛ حتى أنها لتختلف فيما إذا كان من الأحرار أو الموالي، فيقول البعض: أنه حرّ، يرجع إلى أصل فارس رفيع المنبت، وأنه وُلِدَ بأصبهان ونشأ بالكوفة، واسمه الحقيقي إبراهيم بن عثمان بن بشار، ويقول البعض: أنه من الموالي، وأصله من أصبهان، واسمه إبراهيم.

وقيل: بل كان عبدًا لبكير بن ماهان أحد عمال السِّنْد، وإنه استصحبه إلى مكة في زيارة لإبراهيم الإمام، فاعجب إبراهيم بذكائه وفِطْنَتِهِ واشْتراه منه، وأما تسميته بأبي مسلم، فيُقال أنه سمى نفسه عبد الرحمن بن مسلم، واتّخذ كُنيته أبا مسلم. وقيل: إن إبراهيم الإمام هو الذي سماه بهذا الاسم.

(١) انظر «الخلافة العباسية» في هذه السلسلة. «الخلافة العباسية» عبد المنعم الهاشمي، ط دار ابن حزم – بيروت.

ولعلّ أرجح رواية في شأن هذا الداعية الكبير أنه كان فتىً مغموراً ، وُلِدَ بمرو في أُسرة رقيقة الحال، ونشأ بأصبهان، واتّصل منذ فتوته ببعض نقباء الشيعة في الكوفة، فآنسوا فيه ذكاءً خارقًا، وحماسةً تضطرم لآل البيت وقضيتهم، وسار معهم إلى محمد بن علي بن عبد الله بمكة، فأُعجب بذكائه وعزمه، واختاره داعيةً للشيعة في خراسان، موطنه وأصلح ميدان لنشاطه، ولما ظهر أبو مسلم وقوي أمره، وكثر أنصاره، ادّعى أنّه من آل البيت من ولد سليط بن عبد الله بن عباس[1]، ولما توفى محمد بن عليّ وخلفه في الإمامة ولده إبراهيم الملقب بالإمام بعهد منه سنة (١٢٦هـ).

وقد استمر أبو مسلم في مهمته، يبُثُّ الدعوة، ويحشد لها الأنصار، وكانت خراسان كما قدّمنا أخصب ميدان للدعوة الشيعية لبُعْدها عن الحكومة المركزية في دمشق، وتعاقُب الفتن بين المضرية واليمنية، وكان أمير خراسان من قِبَل بني أُمية نصر بن سيّار قد وُضِعَ في موقف صعب، ومأزق شديد، فراح يستنجد بحكومة الخلافة الأموية في دمشق، ولكن دون جدوى، وهو يشهد ازدياد حركة الشيعة، ويرى تفاقم الحوادث، وهو عاجز عن فعل شيء في مواجهة المد الشيعي الذي يشتدّ ويجتاح خراسان بسرعة، ويُروى أن نصر بن سيار كتب إلى مروان بن محمد الخليفة يومئذ، هذا الشعر الفياض بالنبوءة والنذير يستنجد به، ويستحثه للدفاع عن عرشه وتُراث أسرته:

أرى بين الرماد وميض جمر	ماجج بأن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى	وإن الحرب أولها الكلام
فإن لم يطفئها عقلاء قوم	يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعري	أأيقاظ أُمية أم نيام
فإن كانوا لحينهم نيامًا	فقل قوموا فقد حان القيام
فقري عن رحلك ثم قولي	على الإسلام والعرب السلام

(١) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (جـ٥، ص٩٥) وما بعدها.

وكان أبو مسلم قد أعدّ العُدَّة والخُطَّة للانقضاض على رجل الأمويين في منطقة خراسان وهو نصر بن سيار، فهبَّ هبّةً واحدة مع صحبه على قوات بني أُميّة، ودارت معارك طاحنة بين عامي (١٢٩هـ، ١٣٠هـ)، واستولى أبو مسلم على مرو وسمرقند وخراسان ونيسابور، وطردَ منها عُمال بني أُميّة، وفرّ نصر بن سيّار إلى العراق، وبسط أبو مسلم سلطانه على خراسان وفارس، ورفع فيهما لواء الشيعة الأسود، ودعا لأبي العباس السفاح أخي إبراهيم الإمام وخلفه، وكان الخليفة الأمويّ مروان بن محمد قد هاله ما رأى من تغَلْغُلِ الدَّعوة الشيعية في النواحي، فقبض على إبراهيم الإمام، وهو يومئذ بإحدى القرى الشامية (دهي الحميمة - بحوران)، وزجّه إلى السجن حتى مات سنة (١٣٢هـ) وزعم أخوه عبد الله أبو العباس وأصحابه، أنّه أوصى إليه من بعده، فدعا له أبو مسلم في خراسان وفارس حسبما تقدّم ثم سيَّر أبو مسلم جيشًا إلى العراق، فلقيه أميرها ابن هُبيرة وفرَّ إلى الشمال، واستولى الشيعة على العراق، ودعوا لأبي العباس بالخلافة في (ربيع الآخر سنة ١٣٢هـ). ونزل أبو العباس عبد الله السفاح «بالكوفة»، واستقرّ بها يرقب الحوادث[1].

في ذلك الحين كان مروان بن محمد - أو مروان الثاني - (ويُعرف مروان بن محمد أيضًا بمروان الجعد، ومروان الحمار) الذي وُليَّ الخلافة سنة (١٢٧هـ)[2]، وكان مروان يتأهب للدفاع عن خلافة وملك بني أُميّة، الذي تصدَّع صرحه سراعًا؛ فحشد جيشًا ضخمًا، وسار شرقًا حتى وصل إلى ضفاف نهر الزَّاب، وهو فرع من دِجْلة يتَّصِلُ به في الضفة الشرقية جنوب شرقي الموصل، وسار للقائه قائد المسوّدة الشيعة في الشمال، أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي وأمدَّه أبو العباس بجيش آخر بقيادة عمه عبد الله بن علي، وبلغت قوات الشيعة كلها زهاء عشرين ألفًا، وبلغت القوات الأُمويّة زهاء مئة وعشرين ألفًا.

---

(١) انظر «الخلافة العباسية» عبد المنعم الهاشمي، دار ابن حزم - بيروت ط ٢٠٠٢.

(٢) «الخلافة الأموية» عبد المنعم الهاشمي، دار ابن حزم - بيروت.

ولكن عزائم وحماسة الشيعة كانت أكثر شكيمة من كثرة الجيش الأموي الذي خبت عزائمه، واختلّت صفوفه وغاضت قواه المعنوية، والتقى الفريقان على ضفة نهر الزاب اليُسرى، ونشبت بينهما معركة شديدة حاسمة، انتهت بهزيمة الجيش الأموي وتمزيقه، وذلك في (الحادي عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٢هـ - ٢٥ يناير سنة ٧٥٠م).

وغرق في النهر آلاف من جند الشام، واستولى الشيعة على غنائمه وأسلابه، وفرّ مروان في جمع من صحبه إلى الشام، فسار في أثره عبد الله بن عليّ، وحاصر دمشق، واقتحمها في الخامس من رمضان من نفس العام، وفرّ مروان إلى فلسطين، ثم إلى مصر، فبعث «السفاح» في أثره جيشًا بقيادة عمه صالح بن عليّ، فلحق به في مصر، وظلّ يُطارده من مكان إلى مكان؛ حتى ظفر به في قرية بوصير على مقربة من الجيزة، وهنالك مُزِّقَتْ البقيّة الباقية من أنصار بني أُميّة.

وقُتِلَ مروان الثاني آخر الخلفاء الأمويين بالمشرق وأرسل رأسه إلى «السفاح»، وذلك في (السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ١٣٢هـ) الموافق سنة (٧٥٠م)[١].

وهكذا وبسرعة تُثير الدهشة انهارت دعائم الدولة الأموية، وقامت على أنقاضها دولة بني العباس، ولو نظرنا إلى الوراء قليلاً نجد أنه مما لا شكّ فيه أنّ أكبر الفضل في تحطيم دولة الأمويين - ذلك الصرح الشامخ - وقيام دولة بني العباس يرجع إلى جهود تلك الشخصية العظيمة وهو أبو مسلم الخراساني.

ولكن بني العباس ما كادوا يتبوّأون ذلك الملك الواسع، حتى غلبت عليهم عصبية الأسرة، ووجدوا في أبي مسلم منافسًا غريبًا عليهم تُخشى عواقبه، فلم تمضِ أعوام قلائل حتى قُتِلَ أبو مسلم في (شعبان سنة ١٣٧هـ) قتله أبو جعفر

(١) انظر «الخلافة الأموية» عبد المنعم الهاشمي (ص ٣٩٠) وما بعدها.

المنصور أخو أبي العباس وخلفه[١]، ثم تتبع زعماء الشيعة من ولد عليّ بن أبي طالب بالقبض والمطاردة، حتى مزّق شملهم وسحق دعوتهم، وهكذا كانت نهاية الأمويين في الشرق؛ لتنطلق دولة بني العباس، وفي الوقت نفسه كانت بداية الأمويين في الغرب بعصر الأمراء، وعلى رأسهم عبد الرحمن الداخل (صقر قريش).



(١) انظر «قصة مقتله في «الخلافة العبّاسيّة» عبد المنعم الهاشمي.

عصر الولاة والتمهيد لقيام الدولة

وفيما كانت الأحوال في المشرق تُنذر بانقلاب شامل ضد الأمويين كانت حوادث الأندلس تُؤذن بانقلاب شامل وخطير يُحدد مصير الإسلام في هذه البلاد (بلاد الأندلس) في أقصى الغرب، وقد تحدّثنا عن الفتن والحروب الأهلية المتعاقبة، وكيف أنها كانت تدفع بالأندلس إلى مصير مجهول بالنسبة للإسلام والمسلمين لا ندري عواقبه.

ففي الأندلس اجتمع أهلها على يوسف بن عبد الرحمن الفهري، غير أنّه كان كبير السن، ضعيف البنية، مما جعله سهل الحركة، وفقًا لإرادة الصُّمَيل بن حاتم زعيم القيسية في الأندلس، واجتمعت قضاعة على عبد الرحمن بن نُعَيم الكلبي، فجمع من الرجال مئتي رجل وأربعين فارسًا، في بيت القصر بقرطبة، وقاتل الحراس، وهجم على السجن، فأخرج أبا الخطار بن ضرام، الذي كان مسجونًا، وهرب به إلى لبْلَة، فأقام في كلب، وقبائل من حمص، فاكتنفوه ومنعوه[١].

كان الصُّميل بن حاتم مؤيداً ليوسف بن عبد الرحمن الفهري، واجتمع حوله الناس، غير أنه وقع خلافٌ في ذلك بين مضر واليمن؛ فانصرفت اليمن كلها إلى أبي الخطار، وزحف الصُّميل إلى يوسف، فكره يوسف الفهري الخلاف، وخاف الفتنة، وفشت البغضاء والشحناء، فنزل الصميل ومن معه، وجاء أبو الخطار ومن معه أيضاً، والتقت الفئتان بشقندة، وكانت موقعة حاسمة بين الفريقين.

وفي وصفها يقول ابن عذارى: فلا تسمع إلاَّ صهيلاً وصليلاً، ولا ترى إلاَّ قتيلاً، حتى تكسّرت الحطيّة، وتفللت المشرقية، والتفت الساق بالساق، وانضمت الأعناق إلى الأعناق، فلم يعهد حرب مثلها في المسلمين بعد حرب

---

(١) «البيان المغرب» لابن عذاري المراكشي (جـ٢، ص٣٥).

الجمل وصفين، إلى أن انهزمت اليمانية على أبي الخطار[١]. ورأى الصُّميل أن يستعين بأهل السوق للاشتراك في القتال في الوقت الذي تعبت فيه عساكر الفريقين، فبعث إلى غوغاء قرطبة خالد بن يزيد مولى يوسف الفهري، فأقبل معه (٤٠٠) أربعمائة رجل يحملون العصى والسيوف والمزاريق، وخرج الجزارون بسكاكينهم، فجاؤوا إلى قومٍ موتى[٢] قد أنهكهم القتل والتنكيل.

وأمعن أصحاب الصُّميل بن حاتم في اليمنية تقتيلاً وأسرًا، وكان من بين الأسرى أبو الخطار وابن حريث، فاستقدمهما الصُّميل مع جموع الأسرى إلى كنيسة شنت بنجنت بقرطبة، حيث قُتل سبعين منهم، وأصبح الصُّميل بذلك هو الوالي الفعلي للأندلس، فكانت له الرئاسة والتدبير والرسم، بينما كانت ليوسف بن عبد الرحمن الفهري الاسم فقط[٣].

ولما أخذ أبو الخطار، وأرادوا قتله، قال: ليس عليَّ فوت، ولكن دونكم ابن السوداء. ودلّ عليه، وقُتلا جميعًا.

وكان ابن حريث يقول: لو أن دماء أهل الشام سُقيت، لشربتُها في قدح، فلما استخرج من تحت الرحى ليُقتل، قال له ابن الخطار: يا ابن السوداء، هل بقى شيء في قدحك لم تشربه. ثم قُتلا (ابن الخطار – وابن حُريث)[٤].

كانت هذه الأحداث من نتاج صراع اليمنية والشامية في الأندلس، ولكن ماذا عن الشخصيات الثلاث الفاعلة في هذه الأحداث، وهم: أبو الخطار، وابن حريث، والصُّميل بن حاتم.

كان لكل هؤلاء دورٌ واضح في الصراع بين اليمنية والقيسية إلى أن انتهى

(١) المصدر السابق (٢/٣٦).
(٢) «تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس» (ص١٦٤).
(٣) المصدر السابق (ص١٦٤).
(٤) «البيان المغرب» لابن عذارى (٢/٣٦).

لصالح الصُّميل ومعه يوسف بن عبد الرحمن الفهري، ولنتحدث قليلاً عن الثلاثة، بل نتحدث عن خلافات العرب فيما بين أنفسهم ونزاعهم مع البربر.

فقد تولى أمر الأندلس خلال هذه الفترة (عصر الولاة) ٢٢ واليًا، حكم واحد منهم مرتين، ومعنى ذلك أن متوسط مدة الوالي أقل من سنتين، وهذا وحده يكفي لإعطائنا فكرة عن عدم الاستقرار الذي ساد الأندلس خلال هذه الفترة؛ ولذلك أسباب أهمها:

١ – اضطراب السياسة العامة لبني أُميّة بعد الوليد بن عبد الملك.

٢ – وقوع هذه السياسة فريسة للعصبيات القبلية والشخصية.

ولهذه الأسباب انعكس الأمر كله على الأندلس، ففي المغرب كان الخلاف الكبير بين العصبيات العربية، ثم خلاف العرب البلديين، وهم الفاتحون الأوائل للأندلس مع العرب الشاميين(١)، ثم خلافات هؤلاء جميعًا مع البربر، وكان لابد أن يمتد ذلك كله إلى الأندلس.

وهناك أيضًا التنازع على السلطان بين الطامعين فيه، يُضاف إلى هذا كله أن الأندلس بلدٌ قائم بذاته له ظروفه التي لا تُشبه ظروف أي بلد مما فتحه المسلمون في ذلك الحين، فإن الأندلس كان ثغراً لبلاد المسلمين، وكان لابد لأهله من العرب من مواصلة الفتوح فيما يليه من البلاد.

ومما يُلفت النظر هنا أن العرب رغم مشاغلهم الكثيرة في الأندلس، استطاعوا أن يواصلوا الفتوح في «غالة» – أي فرنسا – نحو ٢٠ سنة بعد تمام فتح الأندلس، وكسبوا خلال هذه الفترات انتصارات كبيرة تُضيف صفحات مجيدة إلى سجل الفتوح الإسلامية.

ولا يُقلل من أهمية الفتوح أنها وقعت بعد موقعة بلاط الشهداء؛ ولذلك سنرى أنّ المد العربي لم يكن ليستمر إلى ما لا نهاية، كان لابد أن يقف عند

---

(١) «معالم تاريخ المغرب والأندلس» د/ حسين مؤنس. (٢٧٧) – طبعة مكتبة الأسرة – مصر.

نقطة ما، ونقطة بلاط الشهداء نقطة رائعة بالنسبة لقوم عددهم قليل نسبيًا، بدأوا فتوحاتهم من المدينة المنورة عقب وفاة الرسول ﷺ مباشرة.

«وهناك أخيرًا مشاكل الحُكْم في الأندلس نفسه، وهو بلدٌ فسيحٌ جدًا دخله العرب في وقت بلغت فيه مظالم القوط ذروتها، فكان على العرب أن يُعالجوا مشاكل جمّة، وإن الإنسان ليدهش إذْ يراهم رغم صعوبة ظروفهم، وقلّة المدد الذي تلقوه من الحكومة المركزية، يستطيعون تسيير الأمور على نحو لا بأس به إطلاقًا، فلم يظلموا من أهل البلاد أحدًا، بل نشروا بينهم عدلاً لم تعرفه البلاد قبل ذلك، وعُنوا كذلك بالكثير من المرافق كالقناطر والطرق وشبكات الري وانشأوا مساجد في كل نواحي الأندلس تقريبًا»(١).

ومن حسن الحظ أن الأمور عندما بلغت غايتها في الاضطراب، ظهر عبد الرحمن ابن معاوية الداخل وصار الأمر إليه، وهو كما سنرى من عباقرة الحرب والسياسة في تاريخ الإسلام، فأنقذ البلاد من الفوضى، والعرب من نتائج الاستمرار في الحرب الأهلية، واحتفظ بثمرات جهود من سبقه من الحكام القادرين، فلم تضع هذه الجهود هباءً.

النزاعات والخلافات بين العرب وبين أنفسهم ونزاعهم مع البربر:

ولو نظرنا للأحداث السابقة لرأينا كيف صار أمر الأندلس إلى أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير في منتصف سنة (٩٧ هـ - مايو سنة ٧١٦م) تقريبًا.

ويمثل أيوب بن حبيب العرب البلديين، أي العرب الذين قاموا بالفتح والاستقرار في البلاد، وأصبحوا بمقتضى هذا يرون أنهم أولى بها من غيرهم.

وقد تحالف أيوب بن حبيب والنفر الذين اغتالوا عبد العزيز بن موسى مع الخليفة سليمان؛ أملاً في أن تُؤيدهم الحكومة المركزية ويستتب سلطانهم في البلاد.

(١) المصدر السابق.

ولم يفعل أيوب بن حبيب شيئًا يُذكر طوال فترة حكمه القصيرة (أربعة أشهر)، ولكنه هو الذي نقل العاصمة أشبيلية - عاصمة الأندلس آنذاك - إلى قرطبة؛ لأن موقعها أكثر توسطًا، ثم إن أعدادًا كبيرة من العرب البلديين سكنت حولها فأراد أن يعتز بهم.

ولكن الأمور لم تسر على ما قدره أيوب ومن معه، فقد قام «يزيد بن مسلم» والي سليمان بن عبد الملك على المغرب، بتعيين الحُرُّ بن عبد الرحمن الثقفي على الأندلس، فكان الحُرّ - على هذا - يُمثل الحكومة المركزية ويعتز بالجند الشاميين، مما أبعد عنه البلديين، وقد بدأ الحُرّ ولايته في (ذي الحجة سنة ٩٨هـ - ٧١٧م)، واستمر سنتين وثمانية أشهر، لا تُنسب فيها إليه أعمالاً ذات شأن، وكل ما فعله أنه أقام دار الإمارة في قُرطبة، وكانت هذه الدار في مواجهة قنطرة الوادي، وكانت قبل ذلك قصرًا للحاكم القوطي الذي انتزع مُغيث الرومي البلد من يده، وقد سكن مُغيثٌ في جانب من القصر عُرِفَ ببلاط مُغيث، ثم أخرجه منه أيوب بن حبيب وسكن فيه، فلما جاء الحُرّ بن عبد الرحمن الثقفي، زادت عنايته بالقصر وجعله قصر إمارة فعلاً وسمى هو والأرض الواسعة الممتدة قربه على ضفة النهر، باسم «بلاط الحُرّ»(١).

فلما صارت الأمور إلى عمر بن عبد العزيز في (١صفر سنة ٩٩هـ - ٢٢ سبتمبر سنة ٧١٧م) نظر في أمر المغرب والأندلس فأقام على الأول: إسماعيل بن عبيد الله، وعلى الثاني: عنبسة بن سحيم الكلبي، وكلاهما كان من خيرة الحكام.

بدأ عنبسة في (رمضان سنة ١٠٠ هـ - أبريل - مايو سنة ٧١٩م)، وبرغم قصر المدة التي تولاها، فإنه يُعدّ من الولاة القلائل الذين قاموا بجهود إصلاحية عمرانية، فهو أول من نظر في حصر أرض الأندلس وتمييز ما فُتح منها صلحًا مما فُتح عنوة، وبدأ استخراج الخُمس من الأراضي التي فُتِحَت عُنوة ليجعله ملكًا

(١) المصدر السابق (٢٧٩).

للدولة، وأتم هذا بما يتّصل بإقليم قرطبة، والمفروض أنه فُتح عنوة، وقد دخلت في الخمس أرض واسعة أنشأ الحرّ في بعضها مقبرة للمسلمين، ووزع الباقي على الزراع على أساس المزارعة، أي المناصفة في الغلة، ثم أعاد بناء قنطرة الوادي، وكانت قد تصدّعت.

وفي سنة (١٠٢هـ - ٧٢١م) خرج عنبسة غازيًا في غالة، فاستُشهد في «طرسونة» في يوم عرفة من العام نفسه، وبذلك يكون هذا الرجل قد ختم حياته بالاستشهاد في سبيل الله، وهو أعظم الصالحات.

«وقد كان عمر بن عبد العزيز قد فكّر في إخلاء الأندلس من المسلمين خوفًا على مصيرهم في ذلك الثغر السحيق في نظره، ولكنه عدل عن هذه الفكرة؛ إذْ كان المسلمون قد استقروا في البلاد، وكثروا وبدأ نفرٌ من أهلها يُسلِمون، فلم تكن هناك وسيلة لتنفيذ هذا القرار الخاطئ دون شك»[١].

وتولى بعد ذلك السمح بن مالك، وبعد موت عمر بن عبد العزيز، عاد الأمر في المغرب والأندلس إلى الشاميين، فصارت الخصومات بين الولاة والعرب البلديين، وانضم البربر إلى العرب البلديين؛ لاتفاق مصالح الجانبين، وجاء أشد الولاة تعصبًا للشاميين القيْسيِّين، هو الهيثم بن عبيد الكلابي الذي استمرّ حتى سنة (١١١هـ - ٧٣٠م)، وبعد الهيثم أُختير عبد الرحمن الغافقي، وقد استُشهد في بلاط الشهداء في (رمضان ١١٤هـ - أكتوبر ٧٣٢م).

وأقام عرب الأندلس على أنفسهم واحدًا منهم هو عبد الله بن قطن الفهريّ، والذي سيكون له دور كبير في الأندلس فيما بعد، واشتدت ثورة البربر في المغرب، وانتقلت أصداؤها إلى الأندلس، فبدأ أمر العرب في الأندلس يتحرج، وكانت ثورة البربر على العرب في الأندلس؛ لمحاولة العرب تمييز أنفسهم باختصاصهم بأحسن الأراضي تاركين للبربر أسوأها - مثلاً - وعلى العموم فإن

(١) «تاريخ المغرب» د/ حسين مؤنس (ص٢٨٠).

ثورة البربر أنكرت سيادة العرب جملةً، وقد وجدت صدىً في الأندلس، فقام البربر في النواحي التي كانت لهم فيها أغلبية على العرب الذين معهم وأخرجوهم، وخاصة من جليقية وحوض الدوير والأراضي فيما بين هذا النهر ونهر تاجه.

وكان أمير الأندلس إذْ ذاك عبد الملك بن قطن الفهري كبير العرب البلديين - كما ذكرنا - كان هو ومعظم من معه من اليمنية يحسبون أن الثورة قامت على الشاميين، فلما رآها موجّهة إلى العرب جميعًا وبلغه من العرب الهاربين إليه، من نواحي اشترقه وليون وشلمنقة وأبلة وشقوبية أنفسهم أن البربر يسيرون في ثلاثة جيوش وجهتها طليطلة وقرطبة، والجزيرة الخضراء على الترتيب، خاف الرجل سوء العاقبة.

في هذا الأثناء كان بلج بن بشر القشيري ومن معه محصورين في سبته بعد هزيمة الأشراف في المغرب، وكانوا يستغيثون بعبد الملك بن قطن دون جدوى، ولكنه اضطر إلى السماح لهم بالعبور إلى الأندلس؛ ليعاونوه على القضاء على البربر، وبدأ بالفعل بقيادة بلج سنة (١٢٣هـ - ٧٤١م)[١]، ولم ينقضِ عام على دخولهم الأندلس، وكانوا حوالي عشرة آلاف، حتى كانوا قد تمكنوا من القضاء على الثائرين، وكانت المعركة الحاسمة عند وادي سليط قرب الجزيرة الخضراء أوائل (١٢٤هـ - نوفمبر ٧٤١م)، وعقب ذلك أخذ أولئك العرب الشاميون المتعصبون يطاردون البربر، وكانت نتيجة ذلك أن روع بربر الأندلس روعًا شديدًا، فأخذوا يتركون أراضيهم، وخاصة في الوسط والشمال الغربي ويعودون إلى إفريقية، وكان لهذه الهجرة الجماعية أثرًا سيئًا على مستقبل الإسلام في الأندلس، فإن ألوفًا كثيرة من هولاء المسلمين الذي كان يُنتظر أن يعمروا بالإسلام كل نواحي شبه الجزيرة، هاجروا وتركوا كل الأراضي الواقعة شمال نهر تاجه خالية تقريبًا من المسلمين، فأصبحت هذه النواحي ابتداءً من النصف الثاني

(١) المصدر السابق.

للقرن الثامن الميلادي أراضي خلاء مفتوحة لنصارى الشمال؛ ليمتدوا كيفما يشاؤون، وسيعمر النصارى جزءًا كبيرًا منها خلال القرن التاسع الميلادي، ويُصبح حوض الدويرد أرضًا نصرانية، لقد خسر المسلمون نتيجةً لاختلاف بعضهم مع بعض ربع شبه الجزيرة، خسروه دون أن يُخرجهم منه عدوٌّ، وإنما أخرجهم منه كراهة بعضهم لبعض، وقلّة نظرهم إلى العواقب. وبعد أن انتصر الشاميون أصحاب «بلج» رفضوا العودة إلى إفريقية، كما كان الاتفاق بينهم وبين عبد الملك بن قطن، فوقع النزاع الشديد بين «بلج» وعبد الملك، وانتهى بعزل هذا الأخير، وولاية بلج بن بشر في (ذي القعدة ١٢٤هـ- سبتمبر ٧٤١م).

وقد أنكر أهل الأندلس جميعًا رياسة بلج ومن معه من الشاميين القيسيين، وقاموا عليهم وقتلوا بلجًا، فخلفه شاميٌّ شديدُ العصبية مثله هو ثعلبة بن سلامة العاملي، واشتدت الحرب بين البلديين من عرب وبربر في جانب، والشاميين في الجانب الآخر.

وسنرى الأحداث القادمة من خلال ثلاثة رجال، هم: أبو الخطار، والصميل، ويحيى بن حريث:

قدوم أبو الخطار من إفريقية:

أسرع عامل إفريقية فضلة بن صفوان الكلبي، فأرسل واليًا جديدًا إلى الأندلس هو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي، فبدأ ولايته في (رجب ١٢٥هـ - مايو ٧٤٣م)، وبدأ الرجل بداية مبشرةً، فأمن العرب والبربر البلديين على أراضيهم ومصالحهم، وأراد أن يُبعد عنهم أذى الشاميين، واجتهد كذلك في إبعاد أذى هذه المنازعات القبلية العربية عن أهل البلاد المسلمين، من أسلم منهم ومن لم يُسلم؛ لأنهم أساس عمارة البلاد ورخائها.

ثم نظر إلى الشاميين فتبيّن أنهم جميعًا متجمعون في قرطبة وإقليمها، وهذا

التجمع هو الذي يفتح لهم طريق التدخل في السياسة وشئون الدولة، ففكر في أن يوزعهم على نواحٍ شتَّى في الأندلس، لا ينزلها من البلديين وأهل اليمن أحدٌ، وقد أشار عليه بذلك أرطباس بن غيطشه، شيخ نصارى الذمة، وكان شخصية محترمة مقربة من الأمراء، وكان يُسمى «قرمس الأندلس» وانتهى الأمر إلى أن يذهب كل فريق منهم إلى ناحية فيستقروا فيها ويأخذوا ثلث الخراج الذي يؤديه نصارى الذّمة والمزارعون، على أن يُقدموا للحكومة عدداً معينًا من الجند كلما طلبت ذلك، وقد تم توزيع الشاميين على الكور (المحافظات أو المديريات) الآتية:

١ – جند مصر: كور أو محافظات أوكشونية وباجة وتدمير.

٢ – جند حمص: كور أو محافظة إشبيلية.

٣ – جند فلسطين: محافظة مالقة.

٤ – جند دمشق: محافظة البيرة وهي غرناطة.

٥ – جند قنسرين: محافظة جيان.

وقد أصبحت هذه المحافظات أو الكور الشمالية تُسمى بالكور المجندة، وقد استقرت فيها جماعات كثيرة من جند الشام الذين ذكرناهم واطمأنوا فيها، وكان عليهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية للدولة حول النظام الذي ذكرناه، ولهم الحق في مقابل ذلك في الاحتفاظ لأنفسهم بثلث خراج الأرض، وقد أصبحت هذه الأجناد من العناصر العسكرية الرئيسية في التنظيم للأندلس.

ولم يستطع أبو الخطار الاستمرار في هذه السياسة الحكيمة، فمال إلى اليمنية وثار النزاع من جديد.

الصُّميل بن حاتم ويوسف الفهري:

الصُّميل شخصية فريدة في بابها تجمع معظم النواحي الإيجابية والسلبية في كثير من العرب الجاهليين، الذين دخلوا الإسلام دون أن يمس الإيمان قلوبهم[١]؛

(١) «معالم تاريخ المغرب والأندلس» د. حسين مُؤنس (ص٢٨٤).

فهو شجاع لا يهاب الموت، كريمٌ يجود بكل ما في يده دون تردد، شهمٌ لا يرتكب ما يمس المروءة، وهو سيدٌ مُهذَّبٌ يعرف كيف يُعامل الناس، وهو أيضًا شاعرٌ يقول شعرًا يسيرًا، ولكنه يُعجب بالشعر الجيد، وهو بعد ذلك كله أُميٌّ لا يعرف من القرآن إلاَّ ندرًا يسيرًا، وهو عنيف في خصومته شديد الحقد، لا ينسى ثاره، ومسرفٌ في العطاء لا يكاد يُبقي شيئًا، وكان لا يتورع عن شرب الخمر، وهو ذكيٌّ خبيثٌ لا يفوته أمرٌ ولا يتردد في القضاء على خصومه، وهو كسولٌ في معظم أوقاته، فإذا قام على قدميه لم يهدأ وتحوّل إلى شيطان متّصل الحركة فيُصيب الناس والبلاد منه أذى شديدٌ.

هذا الرجل نظر في أمر الأندلس، فتبين بسبب قيسيته (أي شاميّته) أن الشاميين وحدهم لا يصلحون للحكم وقيادة الحرب، وأن أمر الأندلس لا يصلح إلاَّ إذا تعاون الفريقان على صورة من الصور، ولكنهم كذلك لا يستطيعون سيادة البلديين؛ لكثرة هؤلاء واستعدادهم للدفاع عن أنفسهم في كل حين، فبدأ أولاً فجمع الشاميين إلى لواء واحد هو لواؤه، ثم بحث في المعسكر الآخر (أي في البلديين) فاختار زعيمًا يؤيده ويُسَيِّر الأمر باسمه ذلك الوقت، فوجد يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي أجمع البلديون على رياسته، وكان الشاميون أيضًا مستعدين للخضوع له بسبب مضريتهم، وأخيرًا تمّ الاتفاق بين الرجلين على أن تكون الإمارة ليوسف الفهري، ويكون الصُّميل مستشاره وصاحب رأيه، واستقر الأمر على ذلك في (ربيع الثاني ١٢٩هـ - ديسمبر ٧٤٦م)، ولم تستقر الأمور لهما إلاَّ بعد حرب طويلة مع زعيم يمني يُسمى يحيى بن حُريث.

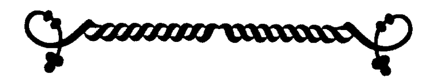
الزعيم اليمني يحيى بن حريث:

تمثلت العصبية في هذا الرجل بصورة أكثر تطرفًا؛ فقد بلغت عصبيته لليمنية مبلغًا جعله غير قادر إطلاقًا على احتمال أهل الشام بأي سبيل، ولكنّه انهزم وقُتل في معركة شقندة (١٣٠هـ - ٧٤٧م)، وخلا الأمر بعد ذلك للصُّميل ويوسف الفهري حتى جاء عبد الرحمن بن معاوية الداخل.

ظلّت الأندلس تحت حكم الصُّميل وعبد الرحمن الفهري مدّة عشر سنوات، وهي السنوات الأخيرة من عصر الولاة في الأندلس، وقد هدأت الأحوال في هذه السنوات، فيما عدا ما كان من مجاعةٍ شديدة بلغت ذروتها سنة (١٣٦هـ- ٧٥٣م)، وكانت هذه المجاعة نتيجة لما رأينا من حروب شديدة بين العرب فيما بين بعضهم البعض وبينهم وبين البربر، فازدادت الهجرة إلى إفريقية، وقلّ عدد المسلمين في شبه الجزيرة عمّا كان، ويُستثنى من ذلك إقليم سرقُسطة، وكان معظم أهله عربًا يمنيين؛ فاستقروا في الأرض وزرعوا فلم يتأثروا بهذه الفتن[١].

وكانت ولاية الصُّميل بن حاتم ويوسف الفهري ولايةً طويلة، امتازت بالهدوء النسبي الذي ساد البلاد في أثنائها، فلم نعد نسمع عن الخلافات العتيقة بين طوائف المسلمين من عرب وغير عرب، ولكن وضع الأندلس كان يحتاج إلى أكثر من هذا الهدوء، فقد كان يحتاج إلى حكم قوي ونشيط، فإنّ البلد خضع للمسلمين، لكنه لم يتحول إلى بلد إسلاميّ بعد، فقد كانت غالبية البلاد نصرانية، ولو استمر الوضع على هذا النحو، فإن أمر المسلمين كان لابد أن يتلاشى فهو بعيدٌ بعدًا شاسعًا عن قلب مملكة الإسلام ومركز الخلافة، فكان من العسير إمداده بالعون المستمر، ولو عادت الفتنة مرة أخرى ولو فترة قصيرة لأصبح تلافي النتيجة المحتومة، وفي هذه الأثناء قامت الدولة العباسية في (ربيع الأول ١٣٢هـ- ٧٤٩م)، والتي اقترنت بمذابح واسعة النطاق أُنزلت بالأمويين.

وهنا كانت البداية - بداية قيام الدولة الأموية في الأندلس -.



(١) المصدر السابق.

عصر الإمارة

عبد الرحمن الداخل

ساهمت حوادث الشرق في أن تعصف بآخر معاقل الأمويين وتقضي عليهم ليصعد العباسيون، وكذلك في الأندلس؛ فقد كانت الفتن والحروب الأهلية والحروب المتعاقبة، تدفع بالأندلس إلى مصير مجهول تُخشى عواقبه، وتعصف تباعًا بمنعة وقوة الإسلام في الغرب، وتُشجع الفرنج ونصارى الشمال على اقتطاع الأطراف النائية، وتوغل الفرنج في الأراضي الإسلامية، وتولى أمر الأندلس في ذلك المأزق العصيب يوسف بن عبد الرحمن الفهري، والذي وصفه بعض المؤرخين[١] بأنه رجلٌ قويٌّ حازم.

ولكن ولاية يوسف لم تكن حلاً نهائيًا للأزمة؛ لأنه تولى دون مصادقة شرعية من السلطة العليا (الخلافة في دمشق)، وهذه السلطة وهي الخلافة في دمشق انهارت، وقامت على أنقاضها دولة وخلافة جديدتان، وكان يوسف بن عبد الرحمن الفهري في ذلك الوقت الحاكم بأمره في الأندلس، وكانت الأندلس آنذاك إمارة أو دولة مستقلة، يتوقف مصيرها ومصير السلطات فيها على سير الظروف والحوادث، وكان للانقلاب الذي وقع في المشرق وتغيير الخلافة صدى واسع في الأندلس؛ إذْ قام بعض الخوارج على يوسف الفهري يدعو لبني العباس؛ طمعًا في الرياسة، ولكنه كان صدىً ضعيفًا لم يُحدث أثره، واستمر يوسف حاكمًا للأندلس، يُناهض الخارجين عليه بقوة وعزم شديدين، ولا ريب أنه كان يحرص على ذلك السلطان الذي ألقى إليه به القدر، بل لعله كان يعمل لغاية أتم وأبعد هي أن يُؤسس بالأندلس مملكة قوية يتبوأ عرشها، وأسرة ملوكية جديدة من بنيه وعقبه، يلقى إليها بهذا التراث الباذخ.

---

(١) «دولة الإسلام» د/عنان. - العصر الأول - القسم الأول (ص١٤٧) ط. الخانجي - مصر.

قصة المطاردة الدموية:

ظفر بني العباس بملك بني أمية، وفرَّقوا شمل أسرتهم، وأخذوا في تتبع من بقي من أمرائهم وزعمائهم؛ حتى لا تقوم لهم قائمة بعد، وعهد أبو العباس عبد الله (السفاح) إلى عمه عبد الله بن عليّ وهو بالشام، تنظيم هذه المطاردة الدموية، فتتبع وجوه بني أمية ومواليهم في كل مكان، وأمعن في مطاردتهم وسفك دمائهم، وقتل منهم جماعة كبيرة من الأمراء والسادة، ولم يبقِ حتى على النساء والأطفال، ولما شعر أن كثيرين منهم فروا ولاذوا بالاختفاء، زعم أنّ أبا العباس قد ندم على ما فرّط في حقهم، وأنه يشملهم بعفوه وأمانه؛ فخُدِعَ كثيرون منهم بهذا الوعد، ولبوا دعوة عبد الله إلى الظهور، واستطاع بهذه الوسيلة أن يقتل منهم نحو سبعين رجلاً.

وكانت مأساة هائلة ارتُكِبَت خلالها ضروب مروّعة من القسوة، ومثّل بكثير من الضحايا أشنع تمثيل، وأُلقيت جثثهم للكلاب، واستُخرِجت رُفات الخلفاء الأمويين من مثواها وبددت، ولم تُترك جريمة مثيرة، أو لون من العقاب أو المهانة، إلاّ كان فلُّ بني أمية لها فرائس وضحايا[1].

ولكن هذه المطاردة الشاملة لم تجتث الشجرة من أصلها، وشاء الله أن تفلت بعض فروعها من يد الجناة، وأن تزكوا لتستعيد أصلها الراسخ في أرضٍ أُخرى، هي أرض الأندلس، وكان ممن نجا من المذبحة الهائلة، فتىً من ولد هشام بن عبد الملك بن مروان هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، وكان وقت أن حلت النكبة ببني أمية - كان يُقيم مع أهله وإخوته في قرية تُعرف بدير خنان من أعمال قنسرين، وفيها كان مولده قبل ذلك بعشرين عامًا - حيث وُلِدَ في سنة (١١٣هـ - ٧٣١م) - وقيل: بل كان مولده بالعليا من أعمال تدمير - وتوفي أبوه معاوية في أيام أبيه هشام بن عبد الملك في سنة (١١٨هـ)، فكفله وإخوته جده هشام[2].

(١) ابن خلدون (جـ٣، ص١٣٢، ١٣٣)، وانظر «ابن الأثير» (جـ١، ص١٦١).
(٢) «نفح الطيب» (جـ١، ص١٥٦).

ولعل التاريخ الإسلامي كله، وفي سائر عصوره وأقطاره، لا يقدم إلينا شخصية تُضارع في قوتها، وثبت جنانها، وروعة خِلالها، المثيرة المؤثرة معًا، شخصية كشخصية عبد الرحمن الداخل، مؤسس الدولة الأموية في الأندلس، وأصل هذه الشجرة الباسقة من الأمراء والخلفاء الذي أضفت عهودهم، وأعمالهم المجيدة، ومنشآتهم العظيمة، على الدولة العربية الإسلامية في أسبانيا (الأندلس) أثوابها الوضاءة، وتراثها الحضاري الرفيع.

خرج عبد الرحمن الداخل من غمار العدم، بعد أن انهار ملك أسرته فجاة وتحطمت دولتهم في المشرق، وهي ما تزال في إبان قوتها وعنفوانها، تحت ضربات المتوثبين من بني العباس، وكان من الفروع القلائل التي شاء الله عز وجل أن تنجو من الشجرة التي اجتثّ الظافرون معظم فروعها، في مطاردة دموية شاملة يندر أن يقدم إلينا التاريخ الإسلامي لها مثيلاً.

الفرار الشهير:

إنّ قصة فرار عبد الرحمن ذاتها من المشرق إلى المغرب، بما يتخللها من الحوادث الماسوية، والمغامرات المدهشة، ما يُثير الإعجاب والعطف، فقد كان يرى الموت والأسر يُنذرانه في كل خطوة، وقد استطاع أن يجوز من الشام إلى المغرب الأقصى، مُخترقًا فلسطين، ومصر، وبرقة، والمغرب الأوسط، وأعين أعدائه ساهرة تُطارد فلول الأمويين، وتكاد تضع يدها عليه في كل لحظة، ومما هو جدير بالذكر أنه حيثما وصل إلى برقة استطاع أن يتنفس الصعداء لأول مرة، وأن يجد ملاذًا آمنًا مؤقتًا عند أخواله بني نفرة، وهي من برابرة طرابلس، وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح، وقد أقام لديهم طويلاً يرقب الفرص.

نعود إلى قصة الفرار الشهيرة، فها هو ذا عبد الرحمن يروي قصة فراره من المشرق، وهي قصة تُشبه قصص المغامرين الأبطال، بل هي قصة أشبه بالمعجزات

منها بقصة شاب مغامر، أيقن أنه هو الذي سَيُحيي دولة بني أُميّة، وسيُعيد إليها شبابها بعد أن أدركها الهرَم، وكادت تزول من الوجود.

يقول عبد الرحمن الداخل (صقر قريش):

«إني لجالس يومًا في تلك القرية، في ظلمة بيتٍ تواريتُ فيه لرمدٍ كان بي، وابني سليمان بكر ولدي يلعب قدامي، وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها، إذ دخل الصبي من باب البيت فزعًا باكيًا، فأهوى إلى حجري، فجعلتُ أدفعه لما كان بي، ويأبى إلاّ التعلق، وهو دَهِش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع، فخرجتُ لأنظر، فإذا بالرَّوع قد نزل بالقرية، فنظرت فإذا الرايات السود عليها منحطة، وأخٌ لي حديث السن كان معي يشتدّ هاربًا، ويقول لي: النجاة يا أخي؛ فهذه رايات المسودة، فضربتُ يدي علي دنانير تناولتها، ونجوت بنفسي والصبي وأخي معي، وأعلمت أخواتي بمتوجَّهي ومكان مقصدي، وأمرتهن أن يتبعنني ومولاي بدر معهن.

وخرجت فكمنت في موضعٍ ناءٍ عن القرية، فما كان إلاّ ساعة حتى أقبلت الخيل، فأحاطت بالدار، فلم تجد أثرًا، ومضيتُ ولحقني بدر، وأتيت رجلاً من معارفي بشطّ الفرات، فأمرته أن يشتري لي دوابّ، وما يصلح لسفري، فدلّ على عبد سوء له العامل، فما راعني إلاّ جلبة الخيل تحضرنا فاشتددنا في الهرب، فسبقناهما إلى الفرات، فرمينا فيه بأنفسنا، والخيل تُنادينا من الشط: ارجعا لا بأس عليكما، فسبحت حاثًا لنفسي، وكنت أحسن السبح، وسبح الغلام أخي.

فلما قطعنا نصف الفرات، قصَّر أخي ودُهش، لألتفت إليه لأقوي من قلبه، فإذا هو قد أصغى إليهم، وهم يخدعونه عن نفسه، فناديته: تُقتل يا أخي، إليّ إليَّ، فلم يسمعني، وإذا هو قد اغترَّ بأمانهم، وخشي الغرق، فاستعجل الانقلاب نحوهم، وقطعتُ أنا الفرات، وبعضهم قد همّ بالبحر للسباحة في إثري، فاستكلفه أصحابه عن ذلك، فتركوني.

ثم قدموا الصبي أخي الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه، ومضوا برأسه، وأنا أنظر إليه، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتملت فيه ثُكلاً ملأني مخافة، ومضيتُ إلى وجهي أحسب أني طائر وأنا ساعٍ على قدمي، فلجأت إلى غيضة أشبه، فتواريتُ فيها حتى انقطع الطلب، ثم خرجتُ أؤم المغرب حتى وصلت إلى إفريقية »[١].

تلك هي قصة الفرار الشهير، حيث هروبه من المشرق، وفراره من أيدي العباسيين الذين حاولوا اقتناصه أكثر من مرة، ولم يكن وصوله إلى إفريقية هو نهاية المتاعب، ولكنه واجه من المصاعب هناك ما يجعلنا نقف متعجبين أمام مغامراته، مما جعل أبا جعفر المنصور (الخليفة العباسي) يحمدُ اللهَ الذي حيَّد البحر بينه وبينه[٢].

الاختراق:

ما إن أَمِنَ عبد الرحمن خطر مطارديه، حتى سار متخفيًا، قاصداً إلى المغرب، ويقول المؤرخون[٣]: « إن المغرب كان مقصده منذ الساعة الأولى، وأن نفسه كانت تُحدّثه بما سيكون له في الأندلس من شأن، وأن بني أميّة كانوا قبل مصرعهم يهجسون بمثل هذه النبوءة ويُرددونها ».

ومن هذه الأهاجيس على الجانب الآخر وفي إفريقيا كان عند واليها عبد الرحمن ابن حبيب الفهري يهوديّ يُحدّث صحب مسلمة بن عبد الملك، وكان يتكهّن له. ويُخبره بتغلب القرشيّ المروانيّ الذي هو من أبناء الملوك – ملوك القوم – واسمه عبد الرحمن، وهو ذو ضفيرتين بملك الأندلس، ويورثها عقبه (أولاده وأحفاده)، فاتّخذ الفهريّ عند ذلك ضفيرتين؛ أرسلهما رجاء أن تناله الرواية،

(١) « نفح الطيب » (٣/ ٢٧).
(٢) « نفح الطيب » (٣/ ٣٦).
(٣) « أخبار مجموعة » (ص١٥)، وانظر « نفح الطيب » (جـ٢، ص٦٢)، و« البيان المغرب » (جـ٢، ص٤٣)، وابن خلدون (جـ٤، ص١٢١).

فلما جيء بعبد الرحمن، ونظر إلى ضفيرتيه، قال لليهودي: ويحك! هذا هو، وأنا قاتله»[١].

نعود الآن إلى الاختراق، فقد اخترق عبد الرحمن فلسطين ومصر، ولحق به مولياه بدر وسالم، وقد ألحقتهما به أخته شقيقته أم الأصبع، ومعهما دنانير للنفقة، وقطعة من الجوهر، ثم جاز إلى برقة، والتجأ إلى أخواله بني نفزة، وهم من برابرة طرابلس، وكما ذكرنا فإن أمه كانت بربرية من بني نفزة، وتُدعى «راح» وأقام عبد الرحمن لدى أخواله طويلاً يرقُبُ الفرص، والظاهر أن محاولة الاستيلاء على إفريقية لم تكن بعيدة عن ذهن هذا الرجل الجريء المغامر، وكان عبد الرحمن ابن حبيب قد انتزعها لنفسه في سنة (١٢٧هـ) ، ولما دالت دولة بني أمية دعا لبني العباس – كما قدّمنا –، ولكن الفتى الأموي لم يجد على ما يظهر أية فرصة للعمل في هذا السبيل، وكان عبد الرحمن بن حبيب يخشى على سلطانه من ظهور بني أُميّة في إفريقيا، فطارد اللاّجئين إليها منهم، وقتل ولدين للوليد بن يزيد بن عبد الملك كانا قد استجارا به، فقتلهما.

وثقل فلُّ بني أُميّة على ابن حبيب صاحب إفريقية، فطرد كثيراً منهم مخافةً، وأخذ مالاً كان مع إسماعيل بن أبان بن عبد العزيز بن مروان، وغلبه على أخته فتزوجها بكرهه وطلب عبد الرحمن فاستخفى[٢].

وأقام عبد الرحمن ببرقة مستخفيًا خمس سنين عند شيخ من شيوخ البربر يُدعى وانسوس، كانت له فيما بعد لديه حظوة، واستجار ببني رستم ملوك يتهرت، وسار في قبائل البربر إلى أن أقام عند قوم على شاطئ البحر، ولحق حينًا بمليلة وغيرها، وكان أثناء تجواله يدرس أحوال الأندلس وأخبارها، ويرقب فرص العبور إليها، وأخذ يُجهز بدراً مولاه؛ ليبعثه إلى الأندلس؛ ليتصل بموالي بني

---

(١) «نفح الطيب» (٣/٢٨).

(٢) المصدر السابق.

أمية، وكان عدد الموالي المسجلين بالأندلس لبني أمية بين الأربعمائة والخمسمائة، وكانت رياستهم لأبي عثمان عبيد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد - وهما من موالي عثمان بن عفان - .

التمهيد لدخول الأندلس:

وفي أواخر سنة (١٣٦هـ - ٧٥٣م) لاحت له فرصة العمل، وقوّى أمله ما علمه من اشتداد الخلاف بين المضرية واليمنية، فبعث بدراً مولاه (خادمه) إلى الأندلس؛ ليسبر غور شؤونها؛ وليحاول بث دعوته بين أنصار بني أمية وأهل الشام، فنزل بدرٌ بساحل البيرة (كورة غرناطة) وكانت نزل جند الشام، وفيها تجتمع عصبة بني أُميّة وأنصارهم، وكانت رياسة الأمويين - أو المروانية - والشاميين يومئذ لزعيمين من موالي بني أُمية - كما أسلفنا - هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد؛ فاجتمع بدر بأبي عثمان وأبلغه رسالة عبد الرحمن، وناشده العمل لنصرته، وبث دعوته بين أصدقائه وشيعته، ولاسيما بين اليمنية، وهم خصوم يوسف الفهري ومنافسوه.

وقال لهم بدر:

« ما رأيكم في رجل من أهل الخلافة يطلب الدولة بكم، فيُقيم أودكم، ويُدرككم آمالكم. فقالوا: ومن لنا به في هذه الديار؟!. فقال بدر: ما أدناه منكم!، وأنا الكفيل لكم به »، ثم ذكر لهم خبر عبد الرحمن ومكان وجوده، وأنه يقدم نفسه إليهم، فقالوا: « فجئ به أهلاً، إنّا سراعٌ إلى طاعته، وأرسلوا بدراً بكتبهم يستدعونه »[١].

عندئذ استجاب أبو عثمان لهذه الدعوة، وكانت بينه وبين الصُّميل مودة وصداقة، ففكر في التماس عونه في ذلك المشروع، وسار إليه مع عبد الله بن خالد

---

(١) « الإحاطة » لابن الخطيب (جـ١، ص٤٥٣)، ط ١٩٥٦م .

في طليطلة، وكان الصميل قد ارتدّ منهزمًا عن سرقُسطة، وفي نفسه مرارة من يوسف؛ لأنه قصّر في غوثه وإنجاده، ففاوضاه في أمر عبد الرحمن وطلبا منه العون والتأييد، ولكن الصُّميل أبدى ترددًا وفتورًا، واقترح أن يتزوج عبد الرحمن من ابنة يوسف، وأن ينزل آمنًا في ظله، ثم صرفهما ببعض الوعود الغامضة(١).

وكان الصُّميل يحرص في الواقع على أن تبقى السلطة ليوسف؛ لأنه مستأثرٌ في ظله بالنفوذ والسلطان، ويُشاركه في تدبير الأمر وحكم الأندلس، فعاد أبو عثمان وزميله إلى البيرة ونشطا إلى بثّ الدعوة فيها، وحثّ اليمنية على القيام للأخذ بالثأر، وبثا عمالهما في أنحاء الأندلس يدعون إلى تأييد عبد الرحمن الأموي، وعاد بدر إلى عبد الرحمن على مركب خاصة جهزها أبو عثمان ومعه عدة من أنصار الأموية، وأفضى إليه بنتائج رحلته؛ فاستبشر عبد الرحمن.

كان يوسف بن عبد الرحمن الفهري والي الأندلس يستعد لغزوة من غزواته آنذاك، وكانوا سيخرجون معه في تلك الغزوة، فواتتهم الفرصة، واتصلوا باليمنيين، مثل أبو الصباح اليحصبي، وأبو علاقة الجذامي، وخاطبوا رؤساء اليمنية، وانتهزوا فرصة التباعد بين الصُّميل وبين الحصين بن الدجن، فخاطبوه في ذلك، فلم يتردد،وكان المضري الوحيد الذي أيّد دعوتهم.

فلما تمّ لهم ذلك، طلبوا من بدر مولى عبد الرحمن أن يبلغه أنهم أجابوه إلى طلبه، وأنهم ينتظرون مجيئه، فعاد بدر إلى مولاه بإجاباتهم سنة (١٣٧هـ - ٧٥٤م)، ولكن عبد الرحمن أجابه بقوله: «لا تطيب نفسي على دخول الأندلس إلاّ أن يكون معي واحد منهم»(٢).

عندئذ رجع إليهم بجوابه، فرأوا أن يأخذوا رأي الصّميل، فاطلعوه على قصة عبد الرحمن بن معاوية، فقال لهم: «أُروِّي في أمره»(٣).

(١) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٤٥).

(٢) «تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس» د. عبد العزيز سالم (ص١٨٠).

(٣) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٤٣).

وتمكّن الأمويون من الانفراد بالصّميل، وتكلّموا معه في قصة عبد الرحمن، فوعدهم المساندة، فشكروه على ذلك، ولم يكادوا ينصرفوا من مجلسه حتى عاد وقال: «تأملتُ الأمر، فوجدته صعب المرام، فبارك الله لكما في رأيكما ومولاكما، فإن أحبّ غير السلطان، فله عندي أن يواسيه يوسف، ويزوجه، ويجيبوه، انطلقا راشدين»[١].

وبذلك انقطع أملهم من ربيعة ومضر، واتجهوا نحو اليمنيين، وأخذوا يدعون كل يمني يُقابلونه، وكان اليمنيون قد وغرت صدورهم؛ طلبًا للثأر، وبينما هو ينظر في الهزيمة التي لحقت بجيشه في «جليقية» جاءه رسول من قِبَلِ ولده، يُخبره أن فتىً من قريش من ولد هشام بن عبد الملك، نزل بساحل المنكّب، فاجتمع إليه موالي القوم والأُموية[٢].

انتشر الخبر في المعسكر، فانفضّ الناس عن يوسف الفهري، وتنادوا في نفوسهم، وأصبح يوسف بن عبد الرحمن ليس في عسكره وجنده غير القيسيين من أهل الشام، فقال للصّميل: ما الرأي؟. فقال الصّميل: بادره الساعة، قبل أن يستفحل أمره»[٣]، وانصرفوا إلى قرطبة.

العبور إلى الأندلس:

في (غُرّة ربيع الأول سنة ١٣٨هـ – ٧٥٥م)، نزل عبد الرحمن بن معاوية بساحل البيرة في ثغر المنكب ، والمنكب هذه مدينة كبيرة بيضاء، تقع على خليجين متجاورين كقوسين في البحر، وتحميها الجبال من الخلف، وربما كان موقعها الحصين من البر والبحر، هو الذي حدا بعبد الرحمن الداخل إلى اختيارها للنزول في شاطئ الأندلس، فضلاً عن قربها لمركز دعوته[٤].

---

(١) المصدر السابق (ص٤٤) .

(٢) المصدر السابق (ص٤٤) .

(٣) المصدر السابق (٢/٤٤) .

(٤) «دولة الإسلام في الأندلس» د/ عنان. العصر الأول – القسم الأول (ص١٥٢) الهامش. ط الخانجي.

ثم ارتحل عبد الرحمن إلى طرش وهي قرية تقع غربي المنكب على مقربة من البحر، استقبله أبو عثمان فيها وأنزله بمقامه، فاقبل إليه جماعة من الأمويين، وقد أعدّ لعبد الرحمن بن معاوية ما يصلح لمثله من المركب والمنزل والملبس(١).

وتوافد عليه الناس من كل مكان، وعلم يوسف الفهري بذلك، فكتب إلي جماعة الأمويين محذرًا مُخوفًا!!.

فقالوا له: إنما أقبل ابن معاوية إلينا وإلى جماعة مواليه، يُريد المال، ليس فيما يظن الأمير - أصلحه الله - ولا فيما يُرفع إليه(٢).

في هذه الأثناء استقرّ عبد الرحمن الداخل بطرش يُنظّم دعوته ويُدبر خططه(٣). وكان يوسف بن عبد الرحمن أثناء ذلك في الشمال يُعسكر بجيشه تحت أسوار سرقُسطة، وقد استعصم بها عامر البدري والحباب الزهري، فلما تمّ له الأمر بالاستيلاء على سرقُسطة والقبض على الزعيمين الثائرين وإعدامهما إذ أتاه رسول أوفده على جناح السرعة ولده عبد الرحمن بن يوسف، الذي استخلفه على قرطبة، ومعه كتاب يُنبئه فيه بمقدم عبد الرحمن الأموي، وانتشار دعوته في جنوب الأندلس.

أصاب الذعر يوسف بن عبد الرحمن من جرّاء هذه الأخبار، وذاعَ النبأُ في الجيش، فسرى إليه الخلل، وتسللت العناصر الناقمة، ولم يبقَ منه سوى فلول يسيرة؛ فهرول يوسف في بقية جنده إلى طليطلة، يبحث مع الصّمّيل في أفضل الوسائل لرد هذا الخطر القادم.

ولما وصل إلى طليطلة دعا وزيره الصّميل، وأخبره الخبر، فقال له الصميل: «الرأي أن تمكر بابن معاوية، فهو فتى حديث السن، وقال له: هو قريب عهد

(١) «البيان المغرب» (٢/ ٤٤).
(٢) المصدر السابق.
(٣) «نفح الطيب» (جـ٢، ص٦٥).

بزوال النعمة، فهو يغتنم ما تدعوه إليه، ثم أنت بعد ذلك متحكم فيه، وفي الذين سعوا له بما تحب»[١].

ونصح الصميل يوسف بأن يزوّجه ابنته، وأن يجعله يُقيم في جند دمشق أو الأردن، وأن يوليه على الكورتين، وكانت الرسالة التي وصلت إلى يوسف بن عبد الرحمن من أم عثمان أم ولده تقول فيها:

«ابن معاوية قد دخل، ونزل طُرّش عند الفاسق عبيد الله بن عثمان، وأصفقت معه بنو أمية، وإن خليفتك على البيرة زحف إليه بمن خف من أهل الطاعة ليُخرجه، فهُزِمَ وضرب أصحابه، ولم يقع قتل، فالرأي رأيك»[٢].

وبعد أن سمع يوسف نصيحة الصميل أراد أن يُنفذها، فكتب إلى عبد الرحمن الداخل كتاباً جاء فيه:

«أما بعد، فقد انتهى إليَّ نزولك بساحل المنكّب، وتابش من تابش إليك، ونزع نحوك السُّرّاق وأهل الخزي والغدر ونقض الأيمان المؤكدة، التي كذبوا الله فيها وكذبونا، وبه - جلّ وعلا - نستعين عليهم، ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش، حتى غمصوا ذلك، واستبدلوا بالأمن خوفًا، وجنحوا إلى النقض، والله من ورائهم محيط.

فإن كنت تُريد المال، وسِعَة الجناب، فأنا أولى لك ممّن لجأت إليه، أكْنُفُك وأصل رحمكَ، وأنزلك معي إن أردت، وبحيث تُريد، ثم لك عهد الله وذمته في ألاّ أغدر بك، ولا أُمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية ولا غيره»[٣].

وأمر يوسف بتاليف وفد يتكون من خالد بن يزيد كاتب يوسف، وعبيد الله ابن عليّ، وعيسى بن عبد الرحمن الأموي، وبعث معهم بكسوة وفرسين ونعلين

---

(١) «البيان المغرب» (٢/٤٥).

(٢) «تاريخ الإسلام وآثارهم في الأندلس» د/ عبد العزيز سالم (ص١٤٨).

(٣) «البيان المغرب» (٢/٤٥).

ووصيفين وألف دينار، وسار القوم حتى بلغوا أرش في أدنى كورة رية، وهناك اتفق الثلاثة على أن يبقى عيسى بن عبد الرحمن بالأموال والهدايا، فإذا وجدا عبد الرحمن بن معاوية متجاوبًا وراغبًا في الصلح أرسلا إلى عيسى رسولاً؛ لتقديم الهدايا، وإذا لم يجد شيئًا من القبول لدى ابن معاوية، فإن يوسف الفهري أحق بماله[١].

حضر الوفد إلى «طُرُّش» حيث يسكن عبد الرحمن، وسلم خالد الكتاب إلى عبد الرحمن بن معاوية، فأخذه منه وسلّمه إلى أبي عثمان، وقال له: «اقرأه، وأجب فيه بما تعلم من رأينا» وأعجب بعض الحاضرين برأي يوسف وأثنوا عليه، وعارضه بعضهم، وقالوا: لا نقبل ذلك منه إلاّ أن يعتزل الملك ويُبايعك، وإلاّ حاكمه إلى الله، وقالوا: إنما يمكر بك، ولا يفي لك بشيء؛ لأن وزيره ومالك أمره الصّميل، وهو غير مأمون»[٢].

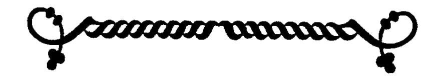
أخذ أبو عثمان الكتاب واستعدّ للرد، فقال له خالد بن يزيد: يا أبا عثمان، لتعرقَنَّ إبطاك قبل أن تخير فيه جوابًا. فغضب أبو عثمان، وضرب بالكتاب وجه خالد، وشتمه، ثم أمر به فأُخذ وكُبِّل بالأغلال، ورجع عبيد وعيسى بما معه من هدايا، وكان ما فعله أبو عثمان بمثابة إعلان حرب على يوسف بن حبيب والصّميل.

وكانت الدعوة الأموية في ذلك الحين قد اجتاحت جنوبيَّ الأندلس والتفّ حول عبد الرحمن عدّة من زعماء القبائل والجند، منهم تمّام بن علقمة اللخمي، وقد أخذ له بيعة جند فلسطين، ويوسف بن نجت وقد أخذ له بيعة جند الأردن، وجدار بن عمرو المذحجي من زعماء ريُّه، وحسان بن مالك الكلبي من زعماء إشبيلية.

---

(١) «تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس» (ص١٨٥).
(٢) «البيان المغرب» (٢/ ٤٦).

ولم يكن طموح عبد الرحمن الداخل محدداً في تولي ولاية أو ولايتين، ولكن هذا الطموح كان أبعد من ذلك وأرفع، وكان سلطان الأندلس كلها مطمح آماله(١). وكان قد آنس ذيوع دعوته وقوة أنصاره، فسار في صحبه من طرّش إلى ريُّه، فبايعه عاملها عيسى بن مساور، ثم إلى شذونه فبايعه عاملها علقمة بن عياش اللخمي، ثم إلى أشبيلية، فبايعه كبيرها أبو الصباح بن يحيى اليحصبي زعيم اليمنية، وانضم إليه أثناء تجواله كثير من الأنصار والجند، واجتمع له في أشبيلية زُهاء ثلاثة آلاف فارس، وذاعت دعوته في غربي الأندلس كله، وأقبلت إليه المتطوعة من كل صوب، من المضرية واليمنية، وأهل الشام، ولما رأى أنه يستطيع البدء بمناجزة يوسف سار في قواته صوب قرطبة.



(١) المصدر السابق.

يوم المسارة

كان يوم المسارة حاسمًا في مصاير الأندلس، وكان فاتحة عهد جديد في تاريخها، وكان بالنسبة لعبد الرحمن فاتحة الظفر لا غايته.

ففي مطلع (ذي الحجة سنة ١٣٨هـ – أوائل سنة ٧٥٦م)، سار عبد الرحمن الداخل في قواته صوب قرطبة.

وفي ذلك يقول تمّام بن علقمة: «واجتمعنا إليه فاتيناه في ثلاثمائة فارس من جماعة الأمويين، وممن أقبل إليه من وجوه العرب، ثم كاتبنا أهل قنسرين وفلسطين، فلما جاءت رسلهم بما أردنا نهضنا إليهم، وكنّا قد وُطّنّا على الموت، وعزمنا على أن نُقتَل دونه، وعقدنا له لواء، وأقمنا معه ستة أشهر نُبرم له أموره ونُكاتب له الناس»[١].

ورحل عبد الرحمن بن معاوية من البيرَّة إلى كورة ريَّه، إلى شذونة إلى موردر، إلى كورة أشبيلية، والناس يتلقونه بالبشر والترحاب، ويُضيف تمام بن علقمة قائلاً: «فدخلنا ريَّة في ستمائة فارس، وخرجنا منها في ألفي فارس، وخرجنا من إشبيلية إلى قرطبة في ثلاثة آلاف فارس»[٢].

ودخل عبد الرحمن الداخل أرشدونه، يوم عيد الفطر، وأقبل الخطيب، قام إليه جدار بن عمر القيسي، فقال له: «اخلع يوسف بن عبد الرحمن، واخطب لعبد الرحمن بن معاوية بن هشام، فهو أميرنا وابن أميرنا، ثم قال: يا أهل ريَّة، ما تقولون؟ فقالوا: نقول ما تقول.

فخُطِبَ لعبد الرحمن الداخل، وبايعوه عند انقضاء الصلاة»[٣].

(١) «البيان المغرب» (٢/٤٦).

(٢) المصدر السابق.

(٣) «تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس» د/ عبد العزيز سالم (ص١٨٧).

وقيل لعبد الرحمن بن معاوية: إن قرطبة تعج بموالي الأمويين، فشجعه ذلك على السير إليها، وعمد إلى حيلة تنم عن دهاء، فأوقد نارًا في معسكره، ليُوهم يوسف بن حبيب أنه باقٍ في المعسكر، وارتحل مسرعًا إلى قرطبة لعله يصلها قبل يوسف، فلم يسر إلى قليلاً حتى أتى يوسف من يُخبره بما أراد عبد الرحمن من مخالفته ليدخل قرطبة، فأصبحا يتسابقان والنهر بينهما.

فعدل عبد الرحمن عن خطته، وعدل يوسف كذلك، وسارا والنهر بينهما، وكان جند عبد الرحمن قد تعبوا ونفدت مؤونتهم، بينما جند يوسف يتمتعون بأشهى أنواع الأقوات، ثم نقص النهر يوم الخميس التاسع من ذي الحجة – يوم عرفة – فقال عبد الرحمن: في أي يوم نحن؟

فقيل له: يوم عرفة، وغدًا الأضحى والجمعة وأمري مع فهري (يقصد يوسف الفهري)، أرجو أنها أخت يوم مرج راهط[1].

وصمم عبد الرحمن على القتال في اليوم التالي – يوم الجمعة – وكان يوم الأضحى؛ متيمنًا في ذلك بذكرى موقعة «مرج راهط» الشهيرة، التي انتصر فيها جدَّه مروان بن الحكم، على قوات عبد الله بن الزبير[2]، التي يقودها الضحاك بن قيس الفهري، وذلك في يوم الأضحى، وقد كان الجمعة أيضًا سنة (٦٤هـ).

وفي اليوم التالي دفع عبد الرحمن قواته لاقتحام النهر، وكان أول من اقتحمه منهم جند بني أمية، وكان يوسف يتفوق على عبد الرحمن بكثرة فرسانه، ولكن التفرق كان يسود جنده، وكانت جموع عبد الرحمن تضطرم رغم قلتها عزمًا وحماسًا، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة، ولكن قصيرة.

يقول ابن عذارى: «فلما أصبح يوم الجمعة، التقى الجمعان، واستمرت الحرب والقتال، فمشى العلاء بن جابر العقيلي إلى الصميل فقال له: يا أبا جَوْش،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر كتابنا «الخلافة الأموية» ط دار ابن حزم – بيروت.

اتقِ الله، فوالله ما أشبه هذا اليوم إلاّ بيوم المرج، وإن عاره لسبّاق علينا إلى اليوم، فإن الأمور يهتدي لها بالأقران والأمثال: أمويٌّ وفهريٌّ، وقيس واليمن، وهذا يوم عيد، ويوم جمعة، ويوم المرج أيضًا يوم جمعة، والأمر والله علينا، لا شكّ في ذلك؛ فاتقِ الله، واغتنم لنا الأمر، لنكون فيه أعزاءً لا أتباعًا»[١].

ولم يأتِ الضُّحى حتى مُزِّقت خيل يوسف، وهُزم جيشه هزيمة شديدة، ونُهبت أسلابه، وقُتل كثير من وجوه القيسية والفهرية – وأراد يوسف الفهري – أن يدخل القصر، فاعترض له عبد الأعلى بن عوسجة، فلم يستطع دخوله، فولى منهزمًا إلى جبل قرطبة صوب طليطلة، حيث كان ولده عبد الرحمن، وفرَّ الصّميل صوب جيان، ودخل عبد الرحمن الأموي وصحبه قرطبة دون معارضة، وحمل جنده ما استطاع من الاعتدال والقناعة والسماحة، وحَمَى أُسَر خصومه وحريمهم وأموالهم من العبث، ثم نزل بالقصر، وبُويع في الحال بالإمارة، وذلك في (العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ – ١٣ مايو سنة ٨٥٦م)[٢].

وكان يوم المسارة بالنسبة لعبد الرحمن الداخل فاتحة النصر والظفر لا غايته ونهايته، فقد استطاع بعد مشقة ومصاعب جمّة وخطوب شديدة أن يجوز إلى الأندلس، وأن يفتتح عاصمتها، وأن ينتزع إمارتها بنفسه، ولكنه ظفر بعرش لم يتوطد سلطانه بعد، وكانت المسافة بينه وبين ملك الأندلس المستقرة مراحل بعيدة.

وكان ملك الأندلس قد غدا منذ انحلال الخلافة الأُموية، كما رأيْنا، نَهْبًا مشاعًا يتنازعه الزعماء، وكانت الفتن المتوالية قد عصفت بالسلطة العليا، واقتصت من أطرافها، واستقلّ الزعماء بكثير من النواحي، فأصبحت هذه النواحي ولايات منفصلة هنا وهناك، وقضى يوسف الفهري ولايته في إخماد

---

(١) «البيان المغرب» (٢/ ٤٦).

(٢) انظر «نفح الطيب» (ج٢، ص٦٥، ص٦٦)، و«البيان المغرب» (٢/ ٤٨، ٤٩).

الفتنة، واستخلاص الرياسة، ولكن لم يوفق إلى إخماد كل عناصر النزاع والخروج، فلما ظهر الفتى الأموي عبد الرحمن الداخل من الميدان، وكان صرح الأندلس يهتز فوق دعائمه الواهنة، وكان توطيده يتطلب كثيرًا من العزم والعمل القوي.

وإذا كان يوم المسارة يومًا حاسمًا في تاريخ الأندلس، وفاتحة عهد جديد في تاريخها، إلاّ أن المهمة كانت صعبة وشاقة ومتشعبة النواحي، وقد كان يوم المسارة فاتحة الظفر، وفاتحة الكفاح أيضًا؛ ذلك أن الأندلس كانت مسرحًا للفتن والثورات في كل مكان، وانتثرت فرقًا وشيعًا صغيرة فلم تبقَ الخصومة قاصرة على المضرية واليمنية فقط، ولكن غدت كل قبيلة وكل بطن تلتف حول زعامتها ومصالحها الخاصة، وكانت هذه القوى المنتشرة المستقلة برأيها وهواها، تتمسك باستقلالها المحلي، وتأبى الخضوع لأية سلطة عامة، وكان عبد الرحمن الداخل يسعى إلى إحياء دولة مسلمة في الأندلس متماسكة قوية موحّدة، كما كانت قبل أن تعصف بها وتُمزقها الحرب الأهلية، فكانت المعركة في الواقع معركة الدولة والإمارات المستقلة(١).

وكان البربر عنصرًا قويًا وفعّالاً في الفتنة، يحتفظون دائمًا ببغضهم القديم للعرب، ويتمسكون بحرص شديد على ما انتزعوه من العرب خلال الفتنة من النواحي والضياع والمدن.

وقد كان هناك الكثير ممن هم أشد خطرًا على الدولة الإسلامية في الأندلس، وهم أسبانيا النصرانية، أو نصارى أسبانيا الذين اغتنموا الفرص؛ ليخرجوا من محنة الهزيمة والفوضى بصفوف منتظمة ومملكة جديدة في الشمال، وكان هناك أيضًا مملكة الفرنج القوية التي استطاعت أثناء الفتنة أن تنتزع الأراضي الإسلامية فيما وراء البرنية، وكان نصارى الشمال والفرنج يتربصون يومئذ بالأندلس، ويرون

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» د/ محمد عبد الله عنان (ق١ – ج١، ص١٥٥).

في تفرقها وضعفها فرصةً صالحة للعمل، ويتصلون بكثير من الزعماء والخوارج، ويمدونهم بالنصح والمعونة، ويتخذونهم وسائل؛ لتحقيق مشاريعهم في تمزيق الأندلس وانتزاع أطرافها.

ونظرة فاحصة على هذه الأمواج المضطربة تشعر بالإشفاق على عبد الرحمن الداخل، فقد كان غداة نصره المظفر في المسارة، يواجه هذه الخطوب والأخطار كلها، وكان عليه أن يُصارعها جميعًا؛ لكي يحقق حلمه الأكبر، وهو الجلوس على سرة الحكم لدولة الأندلس الإسلامية الأموية القوية المتحدة، ولكن ذلك الفتى الأموي الجريء لم يكن يُجاوز السادسة والعشرين من عمره يوم ظفره ونصره الأول في المسارة، كان رجل الموقف، الذي صنعته الخطوب والمحن حينما رأى دولة أجداده وآبائه تنهار في المشرق، وسيف العباسيين يعصف بعنق أخيه الغلام الصغير على شاطئ النهر، فيفر بطموحه الكبير إلى فخر أجداده وزهرة فتوحاتهم وهي الأندلس، كانت الخطوب والمحن التي واجهها هي التي صنعت منه صقرًا يشهد له في زمانه خصومه، بل أشدهم وهو أبو جعفر المنصور فيحمد الله أن جعل بينه وبينه بحرًا، بل بحار بعيدة.

قضى عبد الرحمن الداخل ضيعة المحن والخطوب بقية عمره (اثنين وثلاثين عامًا) في كفاح مستمر، ونضال لا يهدأ، ومغامرة مدهشة، لا ينتهي من معركة إلا ليخوض أخرى، ولا يقمع ثورة إلا تليها ثورة، ولا يسحق خارجًا عليه إلا ويعقبه خارجٌ آخر، ولم تبقَ في الأندلس ناحية أو مدينة إلا وثارت عليه، ولا قبيلة إلا نازعته في الرياسة، فقد حاولت كل القوى الخفية والظاهرة سحقه والقضاء عليه. كانت الأندلس طيلة سنوات حكمه بركانًا مشتعلاً ثائرًا، يرمي الحروب والثورات والمؤامرات والفتن، ولكنه صمد صمود الأبطال أمام تلك الخطوب والمحن.

وقد استطاع بوافر ذكائه وعظيم إقدامه، وقوة عزيمته وجَلَده، أن يُصارع تلك

الأخطار والقوى ويُغالبها، وأن يُمسك ويقبض على مُقدّرات الأندلس ومصائرها بيدٍ من حديد، وأن يُعيد مجد بني أُمية المندثر، في هذه البلاد الجميلة الرائعة، وإن كانت بعيدة عن أصوله في المشرق الإسلامي؛ لتستقر الأندلس قرابة قرنين من الزمان(١).

ولقد كان لتفرق خصومه أكبر الأثر في تحقيق النصر، فلم تكُ ثمّة زعامة شاملة بعد يوسف الفهري والصميل، يجتمع الخصوم حولها، وكان خصومه متناثرين في النواحي والمدن، كل منهما يعمل بمفرده حول زعيم أو قائد محلي وكان فوق ذلك يُعارض بعضها البعض، وقد استغل عبد الرحمن هذه الحالة استغلالاً كبيرًا لصالحه، فعمد إلى لقاء معارضيه في ميادين القتال فرادى، وبذلك استطاع أن يقضي عليهم ويُخمد ثوراتهم، وأن يُحطم قواهم واحدًا تلو الآخر، ومع تحطيم كل قوة كان يزداد قوةً ومهابةً ومنعةً واتباعًا، في حين يتراجع خصومه وتضعف شوكتهم ومقاومتهم، حتى استطاع أن يقضي عليهم جميعًا – كما سنرى – .



(١) المصدر السابق.

عبد الرحمن في مواجهة الثورات والفتن

أولاً - تعقب يوسف الفهري والصميل:

فرَّ يوسف الفهري عقب موقعة المسارة صوب طليطلة، وفرّ الصميل إلى جيان معقل قومه، وقام يوسف الفهري بحشد أنصاره في طليطلة، بمعاونة عامله عليها هشام بن عزرة الفهري، وانضم إليه الصميل بمن حشد من المضرية، ثم سارا في قواتهما إلى جيان، ثم إلى البيرة (غرناطة)، واجتمع أهل هذه الأنحاء حول يوسف، ونزل يوسف بغرناطة يتأهب لمحاربة عبد الرحمن، لكن ما كاد يستقر في البيرة، حتّى بادر عبد الرحمن بالسير إليه، وترك حماية قرطبة لحليفه وقائده أبي عثمان، ولما علم يوسف بمسيره إليه، بعث ابنه عبد الرحمن في بعض قواته إلى قرطبة، فاقتحمها وأسرَ أبا عثمان ونفراً من أهل عبد الرحمن وحريمه، ثم غادرها في الحال؛ خشية المفاجأة، لكن عبد الرحمن الأموي لم يلوِ في طريقه على شيء، وقصد إلى البيرة تواً، وحاصر يوسف والصميل.

فلما شعرا بأن مقاومتهما لا فائدة منها، فاوضاه في الصلح والتسليم بالأمر له، ونبذ كل دعوى في الولاية والسلطة، على أن يوفيهما في النفس والمال والأهل، وأن يؤمن حلفاءهم وأصدقاءهم جميعًا، وأن يسمح لهما بسكنى قرطبة تحت رعايته ورقابته، فأجابهما عبد الرحمن إلى الصلح على ذلك، وعلى أن يقدم يوسف ولديه عبد الرحمن ومحمداً أبا الأسود رهينةً لديه، يعتقلهما في قصر قرطبة برفقٍ وإكرام؛ حتى تطمئن النفوس وتستقر الأُمور، وتمّ عقد الصلح بين الفريقين في (صفر سنة ١٣٩هـ)، وأفرج عن أبي عثمان وباقي الأسرى الذين أسرهم، وتصافى الفريقان، وقفل يوسف والصميل مع عبد الرحمن عائدين إلى قرطبة، وانفضَّ عنبرهما، ونزل يوسف بشرقي قرطبة في قصر الحر الثقفي أحد

الولاة السابقين، ونزل الصميل بداره بالربض (الضاحية) وأبدى عبد الرحمن نحوهما عطفًا ولينًا، وهو مع ذلك يشدد عليهما الرقابة، ويحرص على تجريدهما من كل سلطة وقوة، وكان في قرطبة فل من عصبة يوسف وأنصاره السابقين، الذين نالوا على يديه جاهًا وحظوة، يتطلعون إلى العهد السابق، ويلومون يوسف على تسليمه واستكانته، ويُحرضونه على استعادة مركزه وسلطانه.

وكان يوسف من جهته يشعر بأنه في شبه اعتقال، وأن عبد الرحمن يُضيق الخناق عليه، ويُؤلب عليه صنائعه، ينازعونه في أملاكه وأمواله لدى القضاء، والقضاء يميل إلى غبنه وإعناته، حتى ذهب معظم أملاكه، هو يشعر أن عبد الرحمن من وراء ذلك الاضطهاد[١].

عندئذ قرر يوسف الفهري الفرار، وكاتبَ أنصاره في ماردة وطليطلة، ثم فرّ إلى ماردة، وكان بها معظم أهله وأصهاره سنة (١٤١هـ)، وهناك حشد أنصاره من العرب والبربر، حتى اجتمع له زُهاء عشرين ألفًا، وتخلّف الصميل ولم يوافقه، فقبض عليه عبد الرحمن وألقاه في غيابة السجن بتهمة التحريض والتآمر.

وفيما كان عبد الرحمن يحشد جنوده، سار يوسف بقواته إلى أشبيلة، وعليها عبد الملك بن عمر بن مروان المعروف بالمرواني، فحاصره في إشبيلية، حتى أتاه ولده عبد الله بالمدد.

وقد وقعت بينهما معارك عنيفة قتل فيها كثير من الفريقين، وارتدّ يوسف منهزمًا بفلوله، وكان عبد الرحمن الأموي يُرابط عندئذ بقواته في حصن المدوّر، الواقع على مقربة من غربي قرطبة، على نهر الوادي الكبير، فوافته الأخبار بهزيمة يوسف وفراره، فتوقف عن مطاردته، وسار يوسف إلى طليطلة، ولبث يتردد في أنحائهما عدة أشهر، وهو يحاول أن يُنظم قواته مرّة أُخرى، ولكن بعض الخونة من أنصاره أو مواليه ائتمروا به، واغتالوه ذات يوم على مقربة من طليطلة،

---

(١) «نفح الطيب» للمقري (جـ٢، ص٦٦).

وحملوا رأسه إلى عبد الرحمن في قرطبة سنة (١٤٢هـ)، والظاهر أن هذه الجريمة لم تكن بعيدة عن وحي عبد الرحمن، وانتهت بذلك حياة يوسف الحافلة المضطربة، وأمن عبد الرحمن شرّه وخطره، وقتل ابنه عبد الرحمن المعتقل لديه، ورفع رأسيهما فوق الرماح أمام القصر ليلقي الرعب في قلوب الخوارج والمخالفين[1].

أما ولد يوسف الآخر وهو محمد بن الأسود، فقد استطاع أن يفرَّ من سجنه، وقصد توًا إلى طليطلة معقل عصبة أبيه وتحصّن بها، فبعث عبد الرحمن في أثره جيشًا بقيادة تمام بن علقمة وعينه واليًا لطليطلة، فحاصرها حتى سلمت، وأسر محمد بن يوسف ثانية، وجيء به إلى قرطبة، واستولت جنود عبد الرحمن على طليطلة في (ذي الحجة سنة ١٤٢هـ) وسحق بذلك وكر الثورة الفهرية، وزجّ محمد إلى السجن ثانية، وادّعى العمى حتى استطاع الفرار بعد محنة طويلة، وعاد يرفع علم الثورة فيما بعد. وتمكن أخوه الأصغر القاسم بن يوسف أن يفر من طليطلة مُتنكرًا قبل سقوطها، وأما الصميل، فلبث يرسف في سجنه مدى أسابيع أخرى، حتى دسَّ عليه عبد الرحمن من قتله داخل السجن خنقًا في أواخر سنة (١٤٢هـ)[2].

انتهت ثورة يوسف الفهري والصميل والتي تعد من أخطر مراحل الاضطراب التي واجهها عبد الرحمن الداخل، حيث واجه يوسف الفهري صاحب الشخصية القوية والزعيم المتميز الذي استطاع أن يحكم الأندلس زهاء عشرة أعوام في ظروف صعبة شاقة، وأن يسهر على وحدتها وسلامة قوتها، وأن يدرأ عنها خطر نصارى الشمال والفرنج، ولما فقد يوسف رياسة الأندلس في يوم المسارة، لبث مع ذلك أخطر قوة تُهدد طالع عبد الرحمن الأموي وسلطانه، وظلت روح الثورة والمعارضة عدة أعوام أخرى.

---

(١) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٥١).

(٢) «الحلة السيراء» لابن الأبار (ص٥٠)، وانظر «البيان المغرب» (جـ٢، ص٥١).

أما الرجل الثاني الذي تخلّص منه عبد الرحمن الداخل، فهو الصّميل، فقد كان الصميل زعيمًا قويّ العصبية، ذكي قويّ، نافذ الرأي بين أصحابه، قويّ الكلمة عند إصدارها، وافر الدهاء في مواجهة الأمراء والحكماء، كثير المكر والتآمر، يُخشى بأسه حين ا لبأس، ويُخشى وحيه وغمزه حين التآمر والتخطيط لعدوه.

هذان الرجلان كانا عقبة – وأي عقبة – في طريق طموح عبد الرحمن الداخل وحلمه في تكوين دولة إسلامية قوية في الأندلس، يُعيد من خلالها مجد بني أمية الغابر، فقد كان ذهاب يوسف الفهري والصميل خطوة واسعة على الطرق وخلو الميدان منهما فوزًا ساحقًا لطموح هذا الصقر الأموي الداخل، وخطوة هائلة في طريق استقرار إمارته وتوطدها.

ثانيًا - أول الخوارج في إشبيلية:

كانت أول وثبة من الخوارج بعد مصرع يوسف الفهري والصميل، قد جاءت من القاسم بن يوسف، وحليفه رزق بن النعمان الغساني، وكان القاسم حينما فرَّ من طليطلة – كما قدمنا – قد سار إلى الجزيرة الخضراء، والتجأ إلى شيخها رزق ابن النعمان صديق أبيه، وحشد حوله جمعًا من الأنصار والمرتزقة، واستولى بمعونة حليفه على شذونة، ثم سارا في قواتهما إلى إشبيلية، ولم تكن بها قوة تدافع عنها، فاستوليا عليها دون مشقة، فبادر عبد الرحمن الداخل في قواته إلى أشبيلية، ونشبت بينه وبين هؤلاء الخوارج معركة عنيفة، قُتل فيها رزق بن النعمان وفرّق جنده، ودخل عبد الرحمن إشبيلية ظافرًا، وذلك في أواخر سنة (١٤٣هـ)، أما القاسم فالتجأ بقواته إلى شذونة، وبعث عبد الرحمن في أثره تمامًا والي طُليطلة، فطارده حتى أسره وفرّق جنده وشتت قواته.

ثالثًا - ثورة زعيم اليمانية في إشبيلية:

ظلّ عبد الرحمن بإشبيلية بضعة أشهر إلى أن ظن أنها استقرت، ولكنه ما كاد أن يُغادرها إلى قرطبة حتى نشبت فيها ثورة جديدة بقيادة زعيم اليمانية

عبد الغافر اليماني، فقد استولى عبد الغافر على ما جاور قرطبة من الأنحاء، وكثرت جموعه ولا سيما من البربر، وأصبح يهدد قرطبة، فخرج عبد الرحمن لقتاله،والتقيا بوادي قيس على مقربة من قرطبة، فاستمال عبد الرحمن حلفاء عبد الغافر من البربر، وانفضّ عنه جندهم، واقتتل الفريقان، فهُزِم عبد الغافر هزيمة شديدة، وفرَّ إلى لَقَنت، وطارد عبد الرحمن جنده حتى قُتل منهم ألُوفًا عديدة سنة (١٤٤هـ).

رابعًا - ثورة الحضرمي في أشبيلية:

هذه المواجهة كانت أشدّ صعوبة من ثورة اليماني، فقد رفع لواءها من بعد عبد الغافر اليماني كبير زعماء أشبيلية، وهو: حيوة بن ملامس الحرمي، فقد تغلّب على إشبيلية وإستجة، وكثير من نواحي الغرب، والتفّ حوله أهل هذه الأنحاء واستفحل أمره، فسار إليه عبد الرحمن، ونشبت بينهما معارك عنيفة على مدى أيام، ودافع الثوار عن أنفسهم ببسالة شديدة، حتى كادت الدائرة تدور على عبد الرحمن، ولكن التفرق دبّ أخيرًا إلى صفوف الثوار، ولحقهم الإعياء والملل، فوقعت عليهم الهزيمة، وفرّ زعيمهم حيوة، وكتب إلى عبد الرحمن يلتمس منه العفو والأمان سنة (١٤٤هـ - ٧٦١م)[١].

خامسًا - ثورة الفهري في طليطلة:

ما إن فرّ حيوة الحضرمي، حتى نشبت الثورة في طليطلة، وكان عبد الرحمن قد اختار لولايتها تمام بن علقمة، ثم عينه حاجبًا له فكان أول حجابه، وخلفه في ولاية طليطلة حبيب بن عبد الملك، وكانت المدينة ما تزال تضطرم بعناصر الثورة، وفيها كثير من أنصار الفهرية، فلم يلبث أن قام زعيمهم هشام بن عزرة الفهري، ولد عذرة أمير الأندلس السابق، وأعلن الثورة واعتصم بالمدينة، فسار إليه عبد الرحمن وحاصره مدى أشهر، حتى اضطر إلى طلب الصلح، وقدم ولده

(١) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٥٣).

رهينة بحسن طاعته، فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه، وآثر أن يهادنه مؤقتًا، ولكنه ما كاد يصل إلى قرطبة حتى عاد هشام إلى الثورة، فارتدّ إليه عبد الرحمن؛ ليُعاقبه على نكثه، وحاصره ثانيةً، وقتل ابنه وأطلق رأسه بالمنجنيق داخل الأسوار، ولكنه لم يظفر بحمل الثائر على التسليم، فعاد إلى قرطبة لينظم جيشه، ولكنه لم يستطع أن يعود توًا، وكان لذلك سبب بالغ الخطورة يتطلب كل ما يستطيع إعداده من قوة ومن رباط.

سادسًا - ثورة العلاء اليحصبي في باجه:

كان الخطر الداهم الذي منع عبد الرحمن من العودة إلى طليطلة هو داعية من خصوم بني أمية وأعدائهم هو العلاء بن مغيث اليحصبي، وكان من زعماء باجة، وله بها رياسة وعصبية، فقد كاتب هذا الرجل أبا جعفر المنصور، واتصل برسله في أفريقية، واستصدر منه تفويضًا (سجلاً) بولايته وحكمه للأندلس، ثم ارتدّ إلى الأندلس، وعاد إلى باجة في قوة كبيرة، ودعا لبني العباس، ورفع العلم الأسود، وأعلن أنه قد عُين أميرًا للأندلس من قِبَل المنصور سنة (١٤٦هـ)[١].

وكان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور يُحاول بهذه الدعوة أن يُحطم مشاريع بني أُمية فيما وراء البحر، وأن يبسط سلطانه الأسمى على الأندلس، وقد رأينا أن عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على إفريقية، دعا لبني العباس حينما انهار سلطان بني أُمية، وكاتب الخليفة العباسي، فاقره على حكم إفريقية، فكانت إفريقية تابعة لبني العباس من الوجهة النظرية، وهكذا كان شأن العلاء بن مغيث؛ فقد رأى أن يستظل في ثورته بالدعوة العباسية؛ لكي يُسبغ عليها لونًا من الشرعية، ولم يكن للخليفة العباسي اعتراض على محاولة لا يتحمل تبعتها من الوجهة المادية، وإن كان يعضدها من الناحية المعنوية؛ ولذلك فقد أرسل

(١) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٥٤).

بالفعل سجلاً إلى العلاء بما طلب، وكان بعض الزعماء الخوارج على يوسف بن عبد الرحمن الفهري قد استظلوا بالدعوة العباسية، كما أن هؤلاء الخوارج على عبد الرحمن الداخل سيشهدون هذه الدعوة في حوادث وفتن أخرى(١).

اشتعلت الثورة في باجة وما حولها، وهرعت القبائل والأحزاب المختلفة إلى الانضواء تحت اللواء الأسود (لواء العباسيين)، وكان من هؤلاء الفهرية واليمنية وجند مصر.

استفحل أمر أبو العلاء وكثر جمعه، وانضم إليه أميّة بن قطن وأصحابه، وأعلن غياث بن علقمة الثورة في مدينة أخرى هي شذونة مُخالفًا للعلاء.

خرج عبد الرحمن من قرطبة في جمع هائل من قواته، أما شذونة فقد بعث إليها مولاه بدر في بعض من قواته، فحاصرها بدر حتى أذعن غياث لطلب الصلح، وسار عبد الرحمن إلى قرمونة، ما بين قرطبة وإشبيلية؛ نظرًا لمتاعبها، واتخذ موقف الدفاع، فسار إليه العلاء في جموعه، وهاجم قرمونة مرارًا، وحاصرها مدى أسابيع حتى وهنت قوى جنده، وعندئذ انقلب عبد الرحمن من الدفاع إلى الهجوم، وداهم العلاء في صفوة جنده، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة مدى أيام، حتى هُزم العلاء ومُزق جنده ، وقُتل منهم آلاف عديدة، وكان العلاء نفسه بين القتلى، وأُسِرَ ابن قطن.

وجمع عبد الرحمن رؤوس الزعماء والقادة من خصومه، ورقمها بأسمائهم، وحملها بعض رسله إلى القيروان، فأُلقيت في أسواقها سرًّا، وأثارت هناك دهشة وارتياعًا، ووُضعت رأس العلاء في سفط، ومعها اللواء الأسود، وسجل المنصور للعلاء، وحمله بعض التجار الثقاة إلى مكة، حيث كان المنصور يؤدّي فريضة الحج في العام التالي سنة (١٤٧هـ)، وأُلقي أمام سُرادق المنصور، وحُمل إليه، فارتاع لرؤيته، وقال ما معناه: «ما في هذا الشيطان مطمح، فالحمد لله الذي حيّل بيننا وبينه البحر»(٢).

---

(١) «تاريخ ابن خلدون» (جـ٤، ص١٢٢).

(٢) «نفح الطيب» (جـ١، ص١٥٦)، و«البيان المغرب» (جـ٢، ص٥٤).

كان إخماد هذه الدعوة انتصاراً من نوع آخر، ويُعد انتصاراً مهمًا؛ لأن هذه الدعوة كانت دعوة عامة تدعمها الخلافة العباسية، فأعطتها صبغة شرعية، ولم يكُ أصلح منها لجمع خصوم عبد الرحمن جميعًا تحت لواء واحد[١].

ولما عاد عبد الرحمن إلى قرطبة كانت هناك ثورة أخرى.

سابعًا - ثورة هشام الفهري في طليطلة:

عاد عبد الرحمن إلى قرطبة، فوجد ثورة أخرى يُشعل نارها هشام الفهريّ في طليطلة، وقد استفحلت هذه الثورة، واتسع نطاقها بصورة تدعو للقلق، فأرسل عبد الرحمن قائديه بدراً وتمام بن علقمة في جيش كبير إلى طليطلة، فطوّقها وشدّد الحصار عليها حتّى ضاق أهلها ذرعًا، واضطروا إلى طلب الصُّلح، على أن يُسلموا الزعماء الثائرين، وقبضوا على هشام وعدّة من أصحابه، فأخذوا إلى قرطبة مصفدين معذبين، ثم صُلبوا بأمر عبد الرحمن، وتمّ بذلك سحق الثورة في طليطلة إلى حين، وكان ذلك في سنة (١٤٧هـ - ٧٦٤م).

ثامنًا - ثورة سعيد اليحصبي (المطري) (١٤٩ هـ - ٧٦٦م):

ثار سعيد اليحصبي المعروف بالمطري بمدينة كبَلة، مُطالبًا بثأر اليمانية الذين قُتلوا مع العلاء، فانضمت إليه جموع اليمانية حتى قوي جمعه، وكثر جنده، فسار إلى إشبيلية فاستولى عليها، وارتد عنها واليها عبد الملك بن عمر المرواني لقلة جنده، ولبث ينتظر المدد، وكانت إشبيلية مطمح لكل ثائر؛ لقربها من قرطبة؛ ولأنها لبثت مدى أعوام من أهم مراكز الثورة في الأندلس، وخرج في الوقت نفسه غياث بن علقمة اللخمي بمدينة شذونة ناكثًا لعهده، فسار عبد الرحمن أولاً إلى إشبيلية، وانقلب المطري إلى قلعة رعواق القريبة وامتنع بها؛ فحاصره عبد الرحمن وقطع علائقه مع بقية أنصاره، فلما ضاق الثائر بالحصار

---

(١) رينهارت دوزي (جـ١، ص٢٨٤).

ذرعًا حاول الخروج؛ ليشق له طريقًا بين الجيش المحاصر، ووقعت بين الفريقين معركة شديدة قُتل فيها «المطري» وارتدت فلوله إلى القلعة، وقدموا عليهم خليفة ابن مروان، فاستمر عبد الرحمن في محاصرة الخوارج، حتى أذعنوا لطلب الصلح، وسلّموا إليه قائدهم فقتله، واستولى على القلعة وهدمها، ثم سار إلى شذونة فحاصرها حتى أذعن أهلها لطلب الأمان(١).

تاسعًا - ثورة أبو الصباح بن يحيى اليحصبي سنة (١٥٠هـ):

كان أبو الصباح بن يحيى اليحصبي صديقًا لعبد الرحمن وحليفًا له، وكان زعيم اليمانية في إشبيلية يوم قدوم عبد الرحمن إلى الأندلس، فكان في طليعة من هرعوا يومئذ لتأييده ونصرته، وقاتل معه يوم المسارة، وغدا إلى جانب أبي عثمان وعبد الله بن خالد، من خاصة أعوانه وأركان دولته، ولكن عبد الرحمن كان يحقد عليه ويتوجس منه؛ لحديث نُقل عنه يوم المسارة بوجوب التخلص من عبد الرحمن بعد التخلص من يوسف الفهري، ورد الأمر إلى اليمنية(٢).

وكان عبد الرحمن قد ولاه إشبيلية، ثم عزله عنها لما ظهر من عجزه عن قمع الفتنة، فغضب أبو الصباح وأظهر الخلاف، واجتمع إليه أنصار، ورأى عبد الرحمن أن يأخذه بالحيلة والملاطفة؛ فبعث إليه تمام بن علقمة يدعوه إلى قرطبة للتفاهم، ويبذل له ما شاء من الوعود؛ فسار أبو الصباح إلى قرطبة في أربعمائة من رجاله، واستقبله عبد الرحمن بالقصر، وعاتبه على ما كان منه، فأغلظ أبو الصباح في الجواب، ولامه على النكث بوعوده له، فأمر الفتيان بقتله، فقُتل طعنًا بالخناجر، وانفضّ جمعه سنة (١٥٠هـ).

عاشرًا - ثورة البربري شقيا بن عبد الواحد:

كانت فتنة هذا الرجل من أخطر الفتن التي واجهت عبد الرحمن الداخل؛

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» ع١. ص١ (ص١٦٣، ١٦٤).
(٢) «نفح الطيب» (جـ٢، ص٦٦).

حيث أنها شغلته أعوامًا عديدة، وقد نشبت هذه الثورة في شمال شرقي الأندلس بين البربر وزعيمها، ومُثير ضرامها بربريّ خطير يُدعا شقنا أو شقيا بن عبد الواحد، وأصله من بربر مكناسة، وكان فقيهًا يُعلم الصبيان، فزعم ذات يوم أنه سليل النبيّ ﷺ، ومِنْ وَلَد فاطمة والحسين، وتسمّى عبد الله بن محمد، فزاعت دعوته بين البربر في تلك المنطقة، وكانوا أكثرية بها، والخصومة بين العرب والبربر قديمة – كما عرفنا من قبل – وقد كان البربر على أتمّ الاستعداد للثورة ضد العرب دائمًا[١].

أحسّ هذا الرجل الدعي الفاطميّ أن الناس قد التفّوا حوله، وقويَ جمعه، فسار إلى شنت برية، فاستولى عليها وجعلها مركزه العام، ثم سار في جموعه غربًا، فاستولى على ماردة وقورية ومدلين، وعلى جميع المنطقة الواقعة حولها بين نهري التاجه ووادي يانه، فقويت دعوته وعظم أمره، واشتدّ بغيه وعبثه في تلك الأنحاء، وأخذ أعداء عبد الرحمن من العرب في التحرك أيضًا؛ فعهد عبد الرحمن إلى والي طليطلة أن يقمع ثورة هذا الرجل؛ فبعث إلى شنت برية جيشًا بقيادة سليمان بن عثمان، فخرج إليه الفاطمي في قواته، فهزمه هزيمة شديدة، وأسر قائده سليمان وقتله، وزاد هذا الظفر في سلطانه وبغيه، فسار إليه عبد الرحمن بنفسه في العام التالي سنة (١٥٢هـ)، واقتحم منطقة الثورة، ونشبت بينه وبين البربر وقائع عديدة ثبت فيها البربر، وامتنع الثائر بالجبال[٢].

ولم يجد عبد الرحمن نتيجة أو سبيلاً إلى مطاردته؛ فارتدّ إلى قرطبة، وبعث إلى شنت برية مولاه بدرًا؛ ليتابع القتال، فاستمر الفاطمي ممتنعًا بصحبه في الجبال، مُحاذرًا لقاء الجيش المهاجم، وعاد عبد الرحمن لقتاله بنفسه في العام التالي (١٥٤هـ)[٣].

(١) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٥٦).
(٢) ابن الأثير (جـ٥، ص٢٢٤).
(٣) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٥٧).

وشدد في محاصرته ومطاردته، ولكنه فشل أيضًا في إجباره على مغادرة مواقعه، ثم بعث لقتاله في العام التالي مولاه عبيد الله بن عثمان، فخرج الفاطمي للقائه واستمال جنده البربر، وبثّ الخلاف إلى صفوفه؛ فانحلّ عسكره، وأثخن فيه الفاطمي، ففرّ عبيد الله بن عثمان، واستولى الثائر على معسكره، وأسلاب جيشه، وقتل جماعة كبيرة من قادة جنده سنة (١٥٥هـ)[١].

مما سبق نجد أن حملات عبد الرحمن الداخل المتوالية فشلت في إخماد الثورة في تلك المنطقة الوعرة، فعاد عبد الرحمن بجيش جديد إلى شنت برية، ولكنه لجأ عندئذ إلى وسيلة جديدة لتمزيق شمل الثوار، فاستقدم إليه كبير البربر في شرق الأندلس واسمه هلال الميديوني، وأقرّه على ما بيده من الأنحاء، وأصدر له عهدًا بولاية الأنحاء التي غلب عليها الفاطمي، وفوّض إليه أمر استخلاصها منه، وكان لتلك الحيلة أثرها في بثّ الخلاف إلى صفوف البربر؛ فانفضّ عن الفاطمي كثيرٌ من أنصاره، واضطر أن ينسحب من «شنت برية» إلى الشمال؛ ليعتصم بالجبال مرّة أُخرى.

وبينما عبد الرحمن يجدّ في مطاردته، ويقتحم معاقله وضياعه، ويُنكل بأنصاره حيثما وجدوا، إذ بلغه نشوب الثورة في إشبيلية ولبلة وباجة، وقوامها اليمنية من عصبة أبي الصباح وأنصاره، وكان على رأس الثورة في إشبيلية زعيمها القديم حيوة بن ملامس الحضرمي، وفي باجة عبد الغافر اليحصبي، وفي لبلة عمر بن طالوت، وهما من أبناء عمومه أبي الصباح، وانضمّ إليهم كثيرٌ من البربر، فحشد الثلاثة جموعهم واعتزموا السير إلى قرطبة في غيبة عبد الرحمن، وكان قد استخلف عليها مولاه بدرًا، وقيل كان يستخلف عليها ولده سليمان[٢].

---

(١) المصدر السابق، و انظر ابن خلدون (جـ٤، ص١٢٣) .

(٢) ابن الأثير (جـ٦، ص٣) .

وهلك معظم الزعماء الثائرين، وفرّ عبد الغافر وركب البحر إلى المشرق، وقرن عبد الرحمن نصره بعملية دموية كبرى، عندما قبض على ثلاثين من وجهاء إشبيلية ممن كانوا في جيشه وأمر بهم فأُعدموا سنة (١٥٧هـ - ١٥٨هـ).

كانت هذه الفتنة سببًا في انشغال عبد الرحمن عن الفاطمي، ولكنه عاد في العام التالي إلى مطاردته؛ فالتجأ الفاطمي الثائر إلى الجبال كعادته، ولم يجد عبد الرحمن سبيلاً إلى اللحاق به، فغزا قورية وأثخن في تلك الأنحاء، وكان أمر الفاطمي قد ضعُف خلال هذه الأعوام، وتضاءل جمعه، ولكنه لبث يُسيطر على شنت برية وماردة، ولبثت دعوته خطرًا يُهدد سلام الأندلس واستقراره، فوجّه عبد الرحمن لقتاله في العام التالي حملة قويّة أخرى بقيادة تمام بن علقمة، وعبيد الله بن عثمان، فلقيهما الفاطمي ووقعت بينهما معارك شديدة، رجحت بها كفته، ثم التجأ إلى حصن شبطران بقرب «شنت برية»، فحاصره تمام وعبيد الله عدة أشهر، ولكنهما لم يُحققا شيئًا يُذكر، ولم يظفرا منه بطائل، فعاد إلى قرطبة، وخرج الفاطمي على أثر عودتهما إلى «شنت برية» ونزل بقرية من أعمالها تُسمى قرية العيون، وهنالك ائتمر به اثنان من أصحابه هما أبو معن داود ابن هلال وكنانة بن سعيد، وانقضّا عليه ذات يوم وقتلاه، واحتزا رأسه وحملاها إلى عبد الرحمن في قرطبة، وبذلك انفضّت جموعه، وتفرّق جنده وأتباعه، وخبَتْ ثورته بعد أن لبثت زُهاء عشرة أعوام تحمل الدمار والسفك إلى شرقي الأندلس وغربها، وتُهدد سلطان عبد الرحمن بشرّ العواقب، وحققت الخيانة في لحظة واحدة ما لم تُحققه الحملات والبعوث المتعاقبة في أعوام طويلة[١].

ولعلّ هذه الضربة الناجحة لم تكن بمعزل عن فكر عبد الرحمن الداخل أو وحيه، وقد كانت الخيانة والجريمة من بعض أسلحته في مقارعة الخصوم، عندما

(١) «دولة الإسلام في الأندلس» ع١. ق١ (ص١٦٧).

يفشل الميدان العسكري في تحقيق الهدف، وكانت الخيانة والجريمة تحققان له في بعض الأحيان من الظفر ما لا تُحققه أي الوسائل، وكان مصرع الفاطميّ البربريّ شقيان بن عبد الواحد أو عبد الله بن محمد - كما أطلق على نفسه - وانتهاء فتنته وثورته التي استمرت لوقت طويل في سنة (١٦٠ هـ - ٧٧٦م)[١].

(١) ابن الأثير (جـ٦، ص١٧) .

موقعة رنسفال (باب شزروا)

بينما كان عبد الرحمن مشغولاً بقمع الثورات والفتن، كانت هناك ثمّة حوادث مهمة أخرى تقع في شمال الأندلس، ففي سنة (١٥٧هـ - ٧٧٤م)، ثار سليمان بن يقظان الكلبي، والي برشلونة وجيرونه، و الحسين بن يحيى الأنصاري والي سرقسطة، وهو من ولد سعد بن عبادة، وتحالف على قتال عبد الرحمن وخلعه، وكان استمرار الثورة في الجنوب، وانشغال عبد الرحمن الدائم بقمعها، وطبيعة الشمال الجبلية ومنعنه، مما يذكي عوامل الثورة في الولايات الشمالية، ويشجع مشاريع الزعماء الخوارج، وكان عبد الرحمن يشتغل يومئذ بمقاتلة الفاطمي، فأرسل إلى الشمال جيشًا بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذاني، فهزمه سليمان بن يقظان وأسره، وتفرق جيشه (١٥٨ هـ - ٧٧٥م).

واستفحل أمر الثورة في الشمال، لكن سليمان بن يقظان وأعوانه لم يطمئنوا إلى ذلك النصر المؤقت، وهم الذين يعرفون عزيمة عبد الرحمن الداخل وبأسه وردعة انتقامه، وجاء تفكيرهم بالاستعانة بملك الفرنج، فسار سليمان بن يقظان مع نفر من صحبه الخوارج، إلى لقاء شارلمان في (ربيع سنة ٧٧٧م - ١٦٠هـ) ، وكان يومئذ يُقيم بلاطه في مدينة پادربون من أعمال وستفاليا (شمال غرب ألمانيا) ، ويعقد الجمعية الكبرى، حيث كانت جموع السكسونيين المغلوبة تعمّد للنصرانية، بعد أن شتت شارلمان شملهم وفرّ زعيمهم ڤيدوكنت، في هذه الأثناء وفد عليه سليمان بن يقظان وصحبه من قبل أمير قرطبة، ولا سيما سَرَقُسطة، وأخيراً بأن يسلمه أسيره القائد ثعلبة بن عبيد، وكان مع ابن يقظان (أو ابن الأعرابي كما يسميه المؤرخون اللاتينيون)، كان معه ولد ليوسف الفهري حاكم الأندلس السابق، جاء ومعه صهره؛ ليسعيا كذلك لخلع عبد الرحمن .

وعند ابن الأثير[١]، وابن خلدون[٢]: أن سليمان بن يقظان (الأعرابي) وحلفائه استدعى شارلمان ملك الفرنج إلى بلاد المسلمين، ووعده بتسليم برشلونة أو سرقسطة[٣]. وأعلنوا خضوعهم لملك الفرنج، وانضواءهم تحت حمايته.

عندئذ لبّى ملك الفرنج دعوة الثوار المسلمين، ووافق على عروضهم، وبعث إليه سليمان بأسيره ثعلبة بن عبيد، قائد عبد الرحمن الداخل، عنوانًا للثقة والتحالف، فسُجن في إحدى القلاع الفرنسية، و كان تسليم هذا الأسير لملك الفرنج «شارلمان» ضربة موجعة لعبد الرحمن؛ لأنه كان من خاصته وأكابر وزرائه، فأصبح هذا الأسير رهينةً قيّمة يُمكن لملك الفرنج استغلالها في الوقت المناسب لمساومة عبد الرحمن الداخل.

وكان سليمان بن يقظان زعيم أولئك الخوارج، يعمل مستقلاً لصالحه، فيرى هدفه الأول في تحطيم قرطبة وسيادتها، ويهدف إلى الاستقلال بما في يده تحت حماية ملك الفرنجة، ولكن ملك الفرنج كانت له أهداف أخرى، وهي تشجيع الثورات والخلاف بين المسلمين في أسبانيا.

وكان سليمان بن يقظان على اتصال بملك الفرنج منذ سنة (٧٦٠م)، منذ استيلائه على أربونه، واتصال الحدود الفرنجية بحدود أسبانيا المسلمة، ويسعى بهذا التحالف إلى تأييد استقلاله، وهكذا بدأت العلاقات بين الزعماء المسلمين - ممن خرجوا على حكومة قرطبة - وبين الفرنج الساعين للقضاء على دولة المسلمين في الأندلس، فكان الزعماء الخوارج كلّما حاولوا الثورة والاستقلال بحكم مدينة أو ولاية، اتّجهوا إلى الفرنج يستمدون عونهم ومناصرتهم، وكان الفرنج يُسارعون إلى تلبية هذه الدعوات، ويتخذونها ذريعة للتدخل في شئون

---

(١) (جـ٦، ص٥، وص٢١).

(٢) (جـ٤، ص١٢٤).

(٣) أخبار مجموعة (ص١١٢، ١١٣).

أسبانيا المسلمة، وإذكاء روح التفريق فيها، وسنرى كيف استطاع ملوك الفرنج تنفيذ هذه السياسة في فرصٍ عديدة متعاقبة.

وكانت الخلافة العباسية في المشرق غير بعيدة عن مسرح الأحداث هناك، فكانت تؤيد سياسة مناهضة لعبد الرحمن الداخل، ومناوأة بني أمية الذين استطاعوا أن ينتزعوا هذا القطر النائي من أقطار الخلافة، ويُقيموا فيه دولتهم على دعائم جديدة.

ويروي المؤرخون الإفرنج: إن ييين والد شارلمان بعثَ في سنة (٧٦٥م) سفارة إلى بغداد وردَّ المنصور بإرسال سفراء إلى ملك الفرنج، وقدموا عليه بعد ذلك بثلاثة أعوام، وقضوا حينًا في البلاط الفرنجي في مدينة متز. وسار شارلمان ولد «ييين» على سياسة أبيه، فكان بينه وبين الرشيد فيما بعد تلك المكاتبات والسفارات الشهيرة، وبذلك سنرى أنه في الوقت الذي كان يُعقد هذا التحالف بين ثوار الشمال - ابن يقظان وغيره - وبين ملك الفرنج شارلمان، كانت هناك بعض المحاولات التي تُبذل لنشر دعوة العباسيين في الأندلس، ومن ذلك نزول عبد الرحمن بن حبيب الفهري والمعروف بالصقلبي في تدمير، وقيامه بالدعوة الجادة والنشطة للخلافة العباسية في الأندلس[١].

وكان شارلمان (كارل) حينما استدعاه الخوارج المسلمون لغزو أسبانيا، قد انتهى من الحرب في سكسونية، وهزم القبائل الجرمانية الوثنية، وأخضع زعيمها القوي «ڤيدوكنت» وألجأه إلى الفرار، فجاءت دعوة الخوارج في وقت ملائم بالنسبة له؛ فانتظر حتى انتهى فصل الشتاء، ثم سار إلى الجنوب، وقضى أعياد الفصح في أكوتين على مقربة من «يوردو».

وفي فاتحة (ربيع سنة ٧٧٨م) جمع قواته المؤلفة من فرنج توستريا ومن

---

(١) «دولة الإسلام» د/ عنان. (ع١، ق١، ص١٧١).

الجرمان واللونبارد وفرق من برنيانيا وأكوتين، واخترق ولاية أكوتين، وقرر أن يفتتح الغزوة الإسبانية توًا؛ حتى لا يفاجئه الشتاء، وقسّم جيشه الضخم إلى قسمين، عبر أحدهما جبال البرنية من الناحية الغربية، من الطريق الروماني القديم فوق مرتفعات «چان دي لابور» الشاهقة التي تُشرف على مفاوز ردنسفال الوعرة، على أن يجتمع الجيشان على ضفاف نهر الأيبرو أمام سرقسطة ، حيث يلتقي شارلمان بحلفائه المسلمين، وكان عبوره لجبال البرنية من «باب الشرزى» في شهر أبريل على الأرجح[١].

واخترق شارلمان بالد الشكنس أو ناڤار الحديثة، وحاصر عاصمتها بنبلونة، وهي قلعة النافاريين، واستولى عليها بعد قليل، وقد كان أولئك النافاريون دائمًا شعبة خاصة من «البشكنس» وكانت بنبلونة دائمًا مدينة البشكنس منذ أيام سترابون .

وقد كان البشكنس دائمًا يُحاولون الاحتفاظ باستقلالهم منذ أيام القوط، وكثيرًا ما لجأوا في سبيل ذلك إلى الخروج والعصيان، والامتناع بهضابهم وجبالهم الشاهقة، وكان هذا شأنهم حينما وفد شارلمان بقواته الضخمة، فقد كانوا يحرصون على هذا الاستقلال، ولا يودون الخضوع لأية جهة، لا إلى الفرنج، ولا إلى مملكة جليقية، ولا إلى إمارة قرطبة الإسلامية، ومن ثمّ فقد اضطُر شارلمان إلى محاصرة بنبلونة وأخذها بالعنف، وهنا تبرز هذه الحقيقة.وهي أن شارلمان يغزو بلاد البشكنس، كان يحارب أمة من النصارى، وهو في ذلك لم تكن تحدوه سوى بواعث السياسة والفتح، ولم تكن النزعة الدينية خاصية بارزة في تلك الغزوة .

أما الجيش الفرنجي الذي اخترق شرق البرنية، فقد كان يسير في منطقة يسيطر عليها الفرنج، مذ تقلّص عنها المسلمون وسلطانهم، منذ أيام «ببين» والد

---

(١) المصدر السابق (ص١٧٣) .

شارلمان، ومن ثمّ فقد كان يخترق بلاداً صديقة ، يُرحب أهلها بمقدمه؛ أملاً في عونه وحمايته.

سار شارلمان بعد استيلائه على بنبلونة، ومع سليمان إلى سرقُسطة[١]، أما القسم الآخر من الجيش فقد اخترق في تلك الآونة منطقة جيرندة (جيرونة) وبرشلونة، واتجه غربًا إلى سرقُسطة حيث انضمّ إلى القوات التي يقودها شارلمان.

وكان شارلمان يعتقد حينما سار إلى سرقُسطة أنه سيلقى هناك حلفاءَهُ المسلمين على أُهبة الاستعداد لمعاونته، وتحقيق رغباته في الاستيلاء على المدينة الكبرى، ولكن الحوادث كانت تطورت عندئذ، ودبّ الخلاف بين الخوارج المسلمين، وكان الحسين بن يحيى الأنصاري والي سرقُسطة حليف سليمان منذ البداية، وكان عضده في مشروعه لاستدعاء الفرنج، وبالرغم من أنه لم يذهب إلى پادربون، ولا إلى بنبلونة، فقد كان موافقًا على الحلف الذي عقده سليمان بن يقظان مع شارلمان ملك الفرنج، وعلى العهود التي يقطعها له.

والظاهر أن الحسين نقم على سليمان موقف الصدارة والزعامة الذي اتّشح به إزاء الفرنج؛ فنشبت بينهما الخصومة، أو أنه خشى عاقبة التورط في حلف الفرنج؛ فعدل موقفه في آخر لحظة، حينما شعر بمسير الفرنج إلى مدينته – ويبدو أنه لم يكن في سرقسطة حينما أقبل إليها الجيش الفرنجي – وقيل أنه سبق إلى سرقُسطة قبل سليمان، وتحصّن بها.

فلمّا أشرف شارلمان مع حليفه سليمان على سرقُسطة، رفض الحسين أن يستقبله، ووجد المدينة محصنة متاهّبة للدفاع والمقاومة، فعبر نهر الإيبرو إلى الضفة الأخرى، وقدم إليه سليمان رهائن عدّ من الأعيان والأكابر، وفي مقدمتهم ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن، وكان أسيرًا لديه حسبما تقدم، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئًا لإقناع الحسين بفتح أبواب سرقُسطة، ولم يستطع شارلمان

---

(١) ابن الأثير (جـ٦، ص٥).

من جهة أخرى الاستيلاء عليها، وردّت المدينة المحصورة كل هجماته بشدّة، وعجز سليمان أن يُحقق شيئًا من وعوده في تسليم المدن، والحصون الواقعة في تلك المنطقة، ولم يشأ ملك الفرنج أن يخوض في تلك الوهاد والهضاب الصعبة معارك لم يتأهب لخوضها، وارتاب من جهة أخرى في نية سليمان وموقفه، فقبض عليه[١]، وارتدّ بجيشه نحو الشمال الشرقي في طريق العودة، وكان ذلك في شهر (يوليه سنة ٧٧٨م - شوال سنة ١٦١هـ).

ارتدّ سليمان على رأس قواته المجتمعة، ومعه سليمان أسيره، وعدد من الرهائن، وسار شمالاً نحو بلاد البشكنس، وكان النافاريون في تلك الأثناء قد جمعوا فلولهم، واعتزموا الدفاع عن حاضرتهم بنبلونة وعن حرياتهم التالدة، خصوصًا وقد شجعتهم وقفة سرقُسطة وصاحبها الحسين ضد الملك الفرنجي، وانضمّ إليهم كثير من المسلمين من أبناء الأنحاء المجاورة؛ للتعاون في دفع العدو المشترك، ولكن شارلمان هاجم بنبلونة بعنف، ولم تفعل بسالة النافاريين وحلفائهم المسلمين شيئًا، فتركوا المدينة، وتفرقوا في مختلف الأنحاء، واستولى شارلمان على بنبلونة للمرة الثانية، وهدم حصونها وأسوارها؛ حتى لا تعود إلى المقاومة إذا عاد إلى تلك الأنحاء، ولكي يُمهد لجيشه طريق العودة المأمونة إلى فرنسا.

وغادر شارلمان بنبلونة متجهًا إلى جبال البرنية من طريق هضاب رونسفال المؤدية إلى باب الشزري.

يقول المؤرخون: «أن شارلمان لما أبعد من بلاد المسلمين واطمأنّ، هجم مطروح وعيشون ابنا سليمان بن يقظان مع أصحابهما؛ فاستنقذا أباهما ورجعا إلى سرقُسطة»[٢].

---

(١) المصدر السابق (جـ٦، ص٥).

(٢) ابن الأثير (جـ٢، ص٥).

ويبدو أن ولدي سليمان، حينما قبض شارلمان على أبيهما، عادا إلى الاتفاق مع الحسين بن يحيى على مقاومة الفرنج، وجمعا في الحال قوات أبيهما وأتباعه، وسارا بجيشهما في أثر ملك الفرنج يُحاولان مهاجمته وإنقاذ أبيهما من أسره، وكان شارلمان في ذلك الحين قد غادر بنبلونة بعد تخريبها، مُتجهًا صوب جبال البرنية؛ ليعبرها كرّة أخرى إلى فرنسا، وكان عبوره من نفس الطريق التي أتى منه، وهي ممر ردنسفال – الذي يُسمى بالعربية «باب شيزروا» أو باب الشزري – ويقع هذا الممر في طرف البرنية الغربي – والبرنية هي جبال تُسمى في الجغرافية العربية بجبال البرت أو البرتات – ويصفه الشريف الإدريسي وصفًا دقيقًا في كتابه «نزهة المشتاق» وصفًا يُبيّن لنا ممراته، والتي سيكون لها دور في هذه المعركة معركة شيزرا أو بردفنسال.

يقول الإدريسي:

«وطول هذا الجبل من الشمال إلى الجنوب مع سيرتفويس سبعة أيام، وهو جبل عالٍ جدًا صعب الصعود، وفيه أربعة أبواب فيها مضايق يدخلها الفارس بعد الفارس، وهذه الأبواب عراض لها مسافات، وهي منحرفة الطرق، وأحد هذه الأبواب الباب الذي في ناحية برشلونة، ويُسمى «برت جاقة» (جاكا)، والباب الثاني الذي يليه يُسمى «برت أشيرة» والباب الثالث يُسمى «برت شيزروا» وطوله في عرض الجبل خمسة وثلاثون ميلا – وهو الذي تُسمى به معركتنا هذه – والباب الرابع منها يُسمى «برت بيونه» ويتّصل بكل من برت منهامدن في الجهتين، فما يلي برت شيزروا مدينة بنبلونة، والباب المسمى جاقة عليه مدينة جاقة»[1].

وكلمة برت تعني: الباب أو الممر.

وكانت هذه الممرات تستعمل منذ عهد الرومان لاختراق البرنية من الشمال

(١) «نزهة المشتاق» للشريف الإدريسي (ص٦٥).

إلى الجنوب، وهي نفس الممرات التي كان يستعملها العرب للعبور إلى غاليس، وقد لبثت هذه الجبال الوعرة الشاهقة على مر القرون حاجزًا منيعًا، يفصل بين شبه الجزيرة الأسبانية وبين غاليس، ولا يتأتى للغزاة عبوره إلاّ خلال هذه الممرات الشهيرة.

وفي مفاوز ردنسفال الوعرة، وتجاه ممر البرنية المسمى بهذا الاسم «باب شيزروا» وقعت المفاجأة الهائلة؛ ذلك أن الجيش الفرنجي ما كاد يبدأ عبور الجبال، حتى أشرف المسلمون بقيادة عيشون ومطروح على مؤخرته وهاجموه بشدة رائعة، وفصلوا عنه مؤخرته، وانتزعوا منها الأسلاب والأسرى، وفيهم سليمان بن يقظان، والمسلمون هم الذين دبروا هذا ا لهجوم المفاجئ على مؤخرة الجيش الفرنسي.

وقالت بعض روايات الغرب أن اليشكنس النصارى هم الذين قاموا بهذا الهجوم؛ انتقامًا لما أنزله الفرنج ببلادهم وعاصمتهم بنبلونة من العبث والتخريب.

وذُكر أن المسلمين والبشكنس في الهجوم – وقيل: «أن جيش شارلمان كان يتكون من خمسة آلاف فارس من ذوي الأسلحة الثقيلة وعدد مماثل من المشاة، وأن المؤخرة كانت تتكون من الف فارس ومعها دواب الحمل، وأن الكمين وقع في الأماكن الصاعدة من الطريق المعبد، وقد تعاون بشكنس بنبلونة، والمسلمون ولاسيما مطروح وعيشون ولدي ابن يقظان (ابن الأعرابي)، وكان هذا التحالف ضروريًا؛ لأن المسلمين كانوا في حاجة إلى المعرفة الدقيقة لهذه الوهاد وهو ما يتيقنه البشكنس، وكان البشكنس بحاجة إلى مقدرة المسلمين في التنظيم العسكري، وهما معًا قد استطاعا أن يسحقا مؤخرة هذه الصفوف التي ارتجت لها سائر أسبانيا.

وقع هذا الهجوم الفجائي من المسلمين على مؤخرة الجيش الفرنجي بمعاونة

البشكنس، فأسفر عن أروع نتيجة يمكن تصورها؛ ذلك أن الفرنجة لم يُحسنوا الدفاع عن أنفسهم في تلك الشعاب الضيقة المنحدرة، وقد فصلت مؤخرة الجيش الفرنجي، وانتزعت منها الأسلاب والأمتعة وفي مقدمتها الخزانة الملكية، وكذلك الرهائن وفي مقدمتهم سليمان بن يقظان، ومزقت المؤخرة نفسها شر ممزق وهلك خلال المعركة الهائلة عدد عظيم من سادة الجيش الفرنجي وفرسانه، ولم تسمح المفاجأة المذهلة بأي عمل أو محاولة منظمة لإنقاذ الفرق المنكوبة، وكانت نكبة مروّعة لبث صداها يتردد مدى عصور في أمم الغرب والنصرانية[١].

وقد هلك في هذه المعركة الكثير من سادة وأمراء الفرنج منهم إيجهارد رئيس الخاصة الملكية، وانسلم محافظ القصر، وهردولاند حاكم القصر البريتاني، وكثير من الرؤساء ورجال الخاصة والحاشية، وهردولاند بطل الأنشودة الشهيرة، التي نظمت فيما بعد عن هذه الموقعة، واستمدّت من أناشيد معاصرة لها، وأنشودة رولان هذه تنحرف في كثير من مناحيها إلى الأسطورة، وقد اتخذت الأسطورة من حوادث الموقعة موضوعًا لقصة حربية حماسية.

وقد أورد المؤرخون خلاصة هذه الأنشودة الشهيرة، فتقول نصّها:

غزا شارلمان أسبانيا، ولبث يُحارب فيها سبعة أعوام، حتى افتتح ثغورها ومدنها، ما عدا سرقسطة، وهي معقل الملك العربي مارسيل، وكان يُعسكر بجيشه بجوار قرطبة، حين جاءته رسل مارسيل يعرض عليه الطاعة، بشرط أن يجلو الفرنج عن أسبانيا، فعقد شارلمان مجلسًا من البارونات، ومنهم رولان ابن أخيه، وكان رولان يرى أن تستمر الحرب، ولكن فريقًا آخر من السادة برئاسة جانلون كونت مايانس، كان يرى الصلح والمهادنة، فغلب رأي هذا الفريق؛ لأن الفرنج سئموا الحرب والقتال، وأرسل جانلون إلى الملك مارسيل ليعقد معه شروط الهدنة، فأغراه مارسيل واستماله بالتحف والذخائر، واتفق معه على الغدر برد لان

(١) «دولة الإسلام» د/ عنان (ع١، ق١، ص١٨٠).

وفريقه، ثم عاد إلى شارلمان وزعم أن مارسيل قبل شروط الفرنج، وبذا قرر شارلمان الانسحاب، وتولى رولان قيادة المؤخرة.

وكان معه الأمراء الاثنا عشر، وزهرة الفروسية الفرنجية، ولما وصل الجيش إلى قمة الممرات الجبلية رأى أوليفر، جيشًا من العرب، يبلغ أربعمائة ألف مقاتل، فتضرع إلى رولان أن ينفخ في بوقه؛ ليدعو شارلمان إلى نجدته، فأبى رولان، وانقضّ الجيش المهاجم على مؤخرة الفرنج، ونشبت بينهما عدة معارك هائلة، واستمر رولان يأبى طلب النجدة، حتى مزّق جيشه، ولم يبقَ منه سوى ستين رجلاً، وعندئذ نفخ في بوقه يدعو شارلمان.

ثم قُتل بقية أصحابه، ولم يبقَ سوى رولان وأوليفر واثنين آخرين، ولما شعر العرب أن شارلمان سيرتد بجيشه لقتالهم، قرروا الانسحاب، وكان زملاء رولان الثلاثة قد قُتلوا، وأثخن رولان نفسه جراحًا حتى أشرف على الموت، ولكنه استطاع أن ينفخ في بوقه مرة أخرى قبل أن يموت، وأن يسمع صرخة شارلمان الحربية، وسمع شارلمان صوت البوق على بُعد مراحل عديد؛ فعاد مُسرعًا، وطارد جيش العدو وسحقه، ودفن الفرنج قتلاهم، وعُوقب جانلون الخائن أروع عقاب، وتُوفيت ألده، خطيبة رولان، حينما علمت بموته»[1].

وقد اتخذت أنشودة رولان أو أسطورة رولان الشهيرة مادتها من بعض وقائع هذه المعركة «معركة شيزورا – أو معركة ترنسفال».

وقد ظهرت لأول مرة في القرن الحادي عشر، بعد الموقعة بنحو ثلاثة قرون، ودُوِّنت أولاً في بعض القصص اللاتينية، ثم دُوّنت بالنظم في ملحمة طويلة تبلغ أربعة آلاف بيت بعنوان «أنشودة رولان».

وظلت تعتبر على مدى العصور من أعظم الآثار الأدبية، ومن روائع الشعر،

(١) ابن الأثير (جـ٦، ص٥، ٢١)، وابن خلدون (جـ٤، ص١٢٤).

فقد كانت حوادثها مستقى خصبًا لكثير من الكتاب والشعراء، ومستقى لقصص الفروسية والملاحم الحماسية المغرقة، التي تملأ فراغًا كبيرًا في الأدب الفرنجي في العصور الوسطى[1].

وقد لفت أنظار المؤرخين[2] في حوادث الموقعة، أن شارلمان لم يُحاول بعد أن أفاق من الصدمة الأولى، أن يُعجل بالانتقام لنكبة جيشه وقتل فرسانه، وأن يعود فيطارد تلك العصابات التي تحدّته واجترأت عليه، سواء من المسلمين، أو من البشكنس، وقد علل المؤرخون ذلك بأن شارلمان شُغل قبل كل شيء بخطورة الأنباء التي وصلته عن تحرك السكسونيين، وهم ألدّ أعداء الفرنج وأخطرهم، فارتدّ أدراجه مُسرعًا؛ ليخوض حربًا جديدة معهم، استطالت قرابة سبع سنين، حتى تمت هزيمة زعيمهم «ڤيدوكت» نهائيًا، وأُرغم على التنصير في سنة (٧٨٥م).

ولم يبقَ بيدِ شارلمان، بعد أن أنقذ المسلمون رهائنهم، سوى ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن الداخل، وقد ظلّ فترة أخرى مُعتقلاً في باريس، حتى تمّت المفاوضة بشأنه، وأُطلق سراحه لقاء فدية كبيرة.

وقد اختتمت هذه الموقعة محاولات شارلمان غزو أسبانيا المسلمة والتدخل في شئونها بنكبته والقضاء على أفضل جنده.

وقد أسدلت هذه النكبة لسنوات طويلة ستارًا، بل سحابة على أمجاده الحربية، ورغم كل ذلك فلم تكن هذه المحاولة هي آخر محاولة من نوعها لشارلمان ملك الفرنج؛ وذلك لأن سياسة الفرنج ظلت بالرغم من هذه الصدمة المؤلمة، ترقب الأحداث وسيرها في الأندلس؛ علها تجد منفذًا أو ثغرة تنفذ منها أو تتخذها وسيلة لتحقيق أهدافها الكبرى، وهي القضاء على دولة المسلمين في أسبانيا (الأندلس).

---

(١) انظر تفاصيلها في «ابن خلدون» (جـ٤، ص١٢٤).

(٢) «دولة الإسلام» د/ عنان (ع١، ق١، ص١٨٣).

مواجهات جديدة في الجنوب

كانت أحداث الشمال تجري بين شارلمان وأعدائه، أما عبد الرحمن الأموي فقد ظلّ يُكافح الثورة في مختلف الأنحاء، وقد كانت ثورة البربر من أخطر الثورات التي واجهته، واستنفذ معظم قواه لأعوام متتالية، بيدَ أنه ما كاد يفرغ من سحق ثورة البربر حتى ظهر خطر جديد.

ثورة عبد الرحمن الفهري في شرق الأندلس:

عبد الرحمن بن حبيب أحد زعماء الفهرية، والمعروف بالصقلبي؛ نظرًا لهيئته وشكله، فقد كان طويلاً أشقرًا ذا عينين زرقاوين، وهذا الفهري غير عبد الرحمن ابن حبيب صاحب إفريقية المتغلب، الذي ذكر من قبل فقد قتل هذا المتغلب على إفريقية سنة (١٤٠هـ)، بعد أن خرج على طاعة بني العباس[١].

نعود إلى صاحبنا عبد الرحمن بن حبيب الفهري، فقد عبر البحر من إفريقية إلى الأندلس في قوة كبيرة، ونزل بساحل تدمير (مرسية) في شرق الأندلس، ودعا للخليفة العباسي سنة (١٦١هـ).

وكانت حركة هذا الصقلبي في تدمير كحركة العلاء بن مغيث من قبل في باجة والتي تحدّثنا عنها من قبل في الفتن والثورات، ولكن هذه الحركة، حركة عبد الرحمن بن حبيب الصقلبي كانت أشد خطرًا؛ لأن الصقلبي سعى إلى التفاهم مع زعيم الثورة في الشمال سليمان بن يقظان، وتحالف معه، وكان ذلك التحالف بعد عبور الفرنج أسبانيا بقيادة شارلمان وموقعة (باب شيزورا – أو ترنسفال) التي تحدثنا عنها.

ولكن ابن يقظان لم يفِ بوعده في إمداده لقتال عبد الرحمن الأموي؛

(١) «تاريخ ابن خلدون» (جـ٦، ص١١١).

فغضب منه وسار لقتاله، فهزمه ابن يقظان في ظاهر برشلونة، فعاد إلى تدمير، ولبث مدى أشهر، يُنظم قواته وأهبته، لكن عبد الرحمن الداخل لم ينتظر حتى يُهاجمه.

بادر عبد الرحمن بالمسير إليه بنفسه، وهاجمه بشدة، وأحرق سفنه الراسية بالساحل؛ حتى لا يجد سبيلاً إلى الفرار، فارتدّ الصقلبي بفلوله إلى جبال بلنسية، واستعصم بها، وهنا لجأ عبد الرحمن إلى سلاح الاغتيال مرة أُخرى، فدس على الصقلبي بعض أصدقائه، فاغتاله وحمل رأسه إليه، وانهارت بذلك دعوته وثورته سنة (١٦٢ - ١٦٣هـ) (٧٧٨ - ٧٧٩م).

ثورات الشمال:

قبل أن يسير عبد الرحمن إلى الشمال، وقعت عدة ثورات محلية، استطاع القضاء عليها وقمعها، فقد ثار دحية الغساني ببعض حصون البيرة (غرناطة) وكان دحية من أصدقاء عبد الرحمن وقادته، ولكنه نكث بعهده، ولحق بالفاطمي، فلمّا هلك الفاطمي، فرّ إلى البيرة وأعلن بها الثورة، فأرسل عبد الرحمن إليه جيشًا ضيَّقَ عليه الحصار، حتى أُخذ وقُتل.

وفي الجنوب ثار أيضًا إبراهيم بن شجرة بحصن مورور، فبعث إليه عبد الرحمن مولاه بدرًا، فهاجمه وقتله، وثار في طُليطلة القائد السلمي، وكان من خاصة عبد الرحمن، ثمّ فرَّ من قرطبة خشية بطشه به لأمور نقمها منه، والتفت حوله العناصر الخارجة في تلك الأنحاء، فسيّر إليه عبد الرحمن جيشًا قويًا بقيادة حبيب بن عبد الملك، فحاصره حينًا ثم قُتل، وثار في الجزيرة الخضراء واليها الرفامس، وعبر البحر إلى المشرق سنة (١٦٣ - ١٦٤هـ)[١].

وفي العام التالي تأهب عبد الرحمن لقمع الثورة في الشمال، وكان الخلاف

(١) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٥٨).

قد وقع بين زعيمي الثورة بعد تفاهمهما على أثر نكبة الجيش الفرنجي في موقعة ترنسفال (باب الشزري)، وتربص الحسين بن يحيى الأنصاري بزميله سليمان بن يقظان ودسَّ عليه ذات يوم من قتله بالمسجد الجامع، وانفرد بالأمر في سرقُسْطة وما حولها.

فسار عبد الرحمن إلى سرقُسطة في جيش ضخم، وضيق الحصار عليها سنة (١٦٥هـ - ٧٨١م)، ووفد عليه عندئذ عيشون بن سليمان، وكان قد فرَّ عقب مقتل أبيه إلى أربونة، وانضمّ إليه بمن معه في مقاتلة الحسين، فلمّا اشتدّ الحصار بالحسين طلب الصلح، وقدّم ابنه سعيداً رهينة، فأجابه عبد الرحمن إلى مطلبه، وأقره واليًا على سرقُسطة، ثم تحوّل عن سرقُسطة إلى الشمال الشرقي، واخترق بلاد البشكنس (نافار)؛ ليُعاقب أهلها على عيثهم وعدوانهم، وغزا عاصمتها بنبلونة، وأثخن فيها وضرب قلاعها، وغزا قهرة، وبقيرة (ڤكيرا) واجتاح ولاية شرطانية، وأرغم أميرها على تقديم الطاعة وأداء الجزية، ثم عاد إلى قرطبة ظافراً بعد أن وطّد هيبة الحكومة المركزية في الشمال إلى حد ما، وألقى على النصارى درسًا يُذكرهم بأن الإسلام قد استرد منعته وسلطانه في أسبانيا، وكان سعيد بن الحسين قد فرَّ من معسكر الأمير أثناء الطريق.

ولما حلَّ عبد الرحمن بقرطبة توجّس شرًا من عيشون بن سليمان، وكان قد عاد في ركابه، فأمر به فقُتل، ولما رأى الحسين بن يحيى أن عبد الرحمن الداخل قد ارتدّ عنه، وعاد إليه ولده سالمًا، نكث بعهده وعاد إلى الثورة، وعاث فساداً في سرقُسطة وأعمالها، فاعتزم عبد الرحمن أن يعود إلى قتاله، وأن ينكل به وبأنصاره في تلك المرة، فبعث إلى الشمال جيشًا كثيفًا بقيادة غالب بن تمام بن علقمة، فخرج الحسين إلى لقائه، ووقعت بينهما معارك شديدة هُزم فيها الحسين، وأُسر ولده يحيى وعدّة من صحبه، فأُرسلوا إلى قرطبة، حيث أمر عبد الرحمن بإعدامهم، وامتنع الحسين بالمدينة، واستمرّ غالب في حصاره.

وفي العام التالي سنة (١٦٧هـ - ٧٨٣م) سار عبد الرحمن بنفسه إلى سرقُسطة، وحاصرها بشدّة، وضربها بالمجانيق ضربًا عنيفًا، حتى هُدِمَ أسوارها، واقتحمها عنوة، وقُبِضَ على الحسين وجماعة من صحبه، وقتلهم جميعًا، وشرّد كثيرًا من أهلها، وفرَّ سعيد ولد الحسين، وعيّن عبد الرحمن قائده ثعلبة بن عبيد واليًا لسرقسطة، وكان قد افتداه من أسر الفرنج حسبما تقدم، وهدأت بذلك ريح الثورة في الشمال إلى حين[١].

أما شارلمان فقد شغل عن أسبانيا (الأندلس) بقتاله مع خصمه العنيد السكسوني «ڤيدوكنت»، واستمرت الحرب بينهما قرابة السبع سنوات، وانتهت بهزيمة ڤيدوكنت والسكسونيين، وخضوع ڤيدوكنت، وإرغامه على التنصر سنة (٧٨٥م).

ولكن عبد الرحمن رأى أن يتفاهم مع ملك الفرنجة، وأن يُؤْثر صداقته؛ فبعث إليه يطلب عقد الصداقة معه، ويكاشفه برغبته في مصاهرته، فأجابه شارلمان إلى السلم ولم تتم المصاهرة[٢].

وفي بعض الروايات أن شارلمان هو الذي عرض على عبد الرحمن أن يُزوجه ابنته، فاعتذر عبد الرحمن باعتلال صحته، واستمر السلام معقودًا بين الزعيمين حتى وفاة عبد الرحمن.

مؤامرة ابن أخيه المغيرة وهذيل ولد الصميل بن حاتم:

وعندما عاد عبد الرحمن إلى قرطبة علم بخبر مؤامرة خطيرة دُبِّرت للقضاء عليه بزعامة ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية، وهذيل ولد الصميل بن حاتم، ولم تكن هذه أول مؤامرة من نوعها، فقد دُبرت قبل ذلك ببضعة أعوام سنة (١٦٣هـ) مؤامرة أخرى، وعلى رأسها أيضًا اثنان من أقطاب بني أُميَّة، الذين

(١) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٥٩)، «ابن الأثير» (جـ٦، ص٢٢).

(٢) «نفح الطيب» للمقري (جـ١، ص١٥٥).

وفدوا على الأندلس حينما تألق طالع عبد الرحمن، وعبيد الله بن أبان بن معاوية، وهو ابن أخيه، وذلك بمعاونة أبي عثمان كبير الدولة، وكان عبد الرحمن قد تمّ له الأمر، ويسعى إلى استقدام فلّ بني أمية من المنفى، ويدعوهم إليه؛ ليكونوا له عونًا وعُصبة، ويُظلهم برعايته، ويُغدق عليهم من نعمه، ويختارهم لمختلف المناصب، ولكن روحًا سيئًا من الحقد والحسد، كان يُحفز أولئك الأقارب لمناوأة ذلك الذي هيّأت له الأقدار أن يفوز دونهم بتراث بني أمية في الأندلس؛ فائتمروا به غير مرة، وشجّعهم على ذلك بعض الخوارج الناقمين والمنافسين الطامعين، ولكن عبد الرحمن كان يكتشف الخطر قبل وقوعه، ويسحقه بكل ما أوتي من شدة وصرامة، فلم يحجم حينما وقف على المؤامرة الأولى عن قتل ابن عمه عبد السلام اليزيدي، وعبيد الله بن أخيه إبان، وعفا عن أبي عثمان؛ لمكانته وسابق صنيعه، ولم يُحجم حينما وقف على المؤامرة الثانية، عن قتل المغيرة بن أخيه الوليد، وزميله هذيل بن الصميل، ومن معهما، ونفى أخاه الوليد وأسرته إلى المغرب.

وقد ذكر مؤرخوا الأندلس – بل بعضهم – عن بعض موالى عبد الرحمن الداخل، أنه دخل عليه أثناء قتله المغيرة بن معاوية ابن أخيه، وهو مطرق شديد الغم فرفع رأسه وقال:

« ما عجبي إلاّ من هؤلاء القوم (يقصد أهله بني أمية) سعينا فيما يضجعهم في مهاد الأمان والنعمة وخاطرنا بحياتنا، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا، ويسّر الله تعالى أسبابه، أقبلوا علينا بالسيوف، ولمّا آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله تعالى به، حتى آمنوا وردت عليهم أخلاف النعم، هزوا أعطافهم، وشمخوا بآنافهم، وسموا إلى العظمى، فنازعونا فيما منحه الله تعالى، فخذلهم الله بكفرهم النعم، إذ أطلعنا على عوراتهم، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا، وأدى ذلك

إلى أن ساء ظننا في البريء منهم، وساء ظنه فينا، وصار يتوقع من تغيرنا عليه ما نتوقع نحن منه»(١).

إن هذا الموقف يجعلنا نُشفق على هذا الصقر الأموي مما حلّ به من محن وصعاب؛ فقد امتحن وصُدم في أهله الذين أعادهم للمجد بمخاطراته وجرأته، وجعل خوف بني أمية أمن، وجوعهم شبع وعطشهم ري بفضل الله، وبجهد شاق منه، وها هو يتقطر دمًا من بين حروف كلماته؛ فلعلّ هذا الذي اضطره لقتل ابن أخيه المتآمر على دولة بني أمية بعد أن أحياها الله من العدم.

نعود إلى أحداث الفتنة، فقد فرّ في ذلك الوقت أبو الأسود محمد بن يوسف الفهري من سجنه، ورفع لواء الثورة في طليطلة، وكان محمد سجينًا في قرطبة منذ مقتل أبيه، ثم فراره وأسره ثانية في حوادث طليطلة سنة (١٤٢هـ) كما قدمنا، وتظاهر محمد عندئذ بالعمى، وأتقن حيلته، حتى جازت على جميع الموكلين بسجنه، وأشفق عبد الرحمن عليه، فأبقاه ولم يقتله كأخيه، وأنفق في أسره أعوامًا طويلة حتى أهمل شأنه، ولم يعد يكترث أحدٌ به، وعرف بالأعمى، ثم سنحت له فرصة الفرار على يد بعض مواليه المتصلين به؛ ففرّ من سجنه الواقع على النهر الكبير، وجاز النهر سباحة، ولحق بطليطلة سنة (١٦٨هـ) وأعلن الثورة، والتفتْ حوله الجموع الكبيرة من الفهرية والقيسية، وأتباعهم من عناصر الخروج للثورة، وسار في قواته صوب جيان.

خرج عبد الرحمن لقتاله، ووقعت بينهما معارك عديدة، كان النصر فيها لعبد الرحمن، ولكن أبا الأسود لبث حينًا محتفظًا بمراكزه وقواته، ثم نشبت بينهما على مقربة من قسطلونة في الوادي الأحمر، بمكان يعرف بمخاضة الفتح، معركة شديدة حاسمة، ولجأ عبد الرحمن إلى الخديعة؛ فاتفق مع بعض قادة أبي الأسود على التقاعد، والغدر؛ فهُزم أبو الأسود هزيمة شديدة، وقُتل من جنده

(١) «نفح الطيب» للمقري (جـ٢، ص٧٢، ص٧٣).

عدّة آلاف، وغرق عدد كبير في النهر، وطارده عبد الرحمن حتى قلعة رياح، وفرّق جيشه كل ممزق (ربيع الأول سنة ١٦٨هـ - ٧٨٤م).

ولكن محمدًا لم يخضع ولم يهنْ عزمه؛ فارتدّ إلى جهة ألغرب، ونزل بقورية، وعاد يحشد قواته؛ لاستئناف القتال، وقويَ أمره وبسط سلطانه على تلك الأنحاء، فسار عبد الرحمن لقتاله ثانية، وهاجم قورية، ومزّق شمل قواته سنة (١٦٩ هـ - ٧٨٥م)، ففرّ في نفر من صحبه إلى بعض قرى طليطلة، وهنالك توفيَ لأشهرٍ قلائل سنة (١٧٠هـ)، فقام مكانه أخوه أبو القاسم بن يوسف، واقترن بزوجته، وعاد يُنظم الثورة في طليطلة، فسار عبد الرحمن لقتاله قبل أن يستفحل أمره، ولم يرَ أبو القاسم بدًا من الخضوع والتماس الصلح والعفو، فأجابه الأمير إلى ملتمسه، وصحِبَه معه إلى قرطبة، وردَّ إليه بعض أموال أسرته[1].

وطُويَتْ بذلك آخر مرحلة في ثورة الفهرية، بل كانت آخر ثورة قام بقمعها عبد الرحمن، ولم يعشْ بعدها سوى عدّة أشهر.

كانت حياة عبد الرحمن - التي امتدّت ثلاثة وثلاثين عامًا - حياةً حافلة بالكفاح المستمر، وكانت مغامرة جريئة صنعت هذا المجد، فمن تكون هذه الشخصية الباهرة.



(١) «البيان المغرب» (جـ٢، ص٥٢، ٥٩، ٦٠). «الحلة السيراء» لابن باز (ص٥٦، ٥٧).

من يكون هذا الرجل؟

لم يكن في ذهن أحد مجرد توقّع أن الدولة الأموية بعد سقوطها المروّع بالمشرق الإسلامي أن تنهض من جديد، وفي أرض جديدة، فقد امتلأ مشهد السقوط بالمآسي المروّعة التي تحدّثت عنها مصادر التاريخ كثيراً.

ولكن اسم هذه الدولة سطع من جديد في أرض جديدة علا فيها صوت الإسلام والمسلمين من جديد، وكان وراء هذا الإنجاز الباهر والعمل الرائع شخصية فريدة، من أعظم شخصيات الحرب والسياسة؛ فهذا الرجل عبد الرحمن الأموي، أو قُلْ: عبد الرحمن الداخل، أو سمّه صقر قريش، فهذه أسماؤه المتداولة.

هذا الرجل تمتع بذكاء حاد، وعبقرية ممتازة، وصفات نادرة، حتى ذكر المؤرخون (١) أنه كان قرين جده العظيم معاوية بن أبي سفيان ﷺ، يُنشئ دولة مثلما أنشأ، ولكن في ظروف أسوأ من ظروفه، ويهزم الخطوب والحوادث، ويسحق الخصوم في كل ميدان، فيصل إلى غايته بأي الوسائل، ولربما يستغرب القارئ كلمة بأي الوسائل، ولكن سنعرف بعد قليل كيف يكون له ذلك.

الصرامة والعنف:

لقد كانت المحنة الهائلة والمصيبة المروّعة التي نزلت بأسرته، والظروف العصيبة التي يواجهها، والخصومات والأحقاد المستعرة التي نزلت بأسرته - كما ذكرنا - تدفعه دفعًا إلى ذروة التطرف، وتدفعه دفعًا إلى التذرع بأشد الوسائل، فتراه وافر العزم، جريئًا مغامرًا، لا يعرف مصطلح الخطر القادم والخطورة المتوقعة، بل كان يحتقر الخوف والتردد، كان عبد الرحمن داهية يقرن وافر الدهاء بالنزوع إلى الخيانة والغدر والفتك أحيانًا، وكان حازمًا يقرن الكثير من الحزم والصرامة،

(١) «دولة الإسلام» د/ عنان (ع ١ ق ١، ص١٩٣).

باللجوء إلى القمع الذريع، ويذهب إلى الانتقام في حدود مروعة من القسوة.

ومع ذلك فقد كان عبد الرحمن وفيًا يحفظ العهد والصنيعة لمن أخلص له، وإن لم يتراجع لأقل شك أو ريب أو بادرة عن الفتك بأعز أصدقائه، وأقرب الناس إليه.

وقد رأينا ولاحظنا هذه الصفات والخلال في شخصية عبد الرحمن واضحة بارزة، في كثير مما عرضنا من حوادث حياته ونضاله.

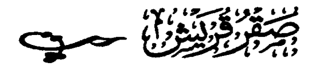
فها هو مرارًا وتكرارًا يلجأ إلى الحيلة؛ للتخلص من خصومه، وها هو في مواطن كثيرة يزهق الأرواح دون تردد، لكل من وقع من خصومه أو من ولدهم وصحبهم الأبرياء!!

ولقد ذهب هذا الرجل في صرامته وقسوته إلى البطش بكثير من أصدقائه الذين آزروه يوم مقدمه، شريدًا لا عصبة له، وقاتلوا معه وقادوه إلى الظفر والنصر والحكم أيضًا، وكان قد أولاهم في البداية ثقته وجعلهم عماد دولته، ومن هؤلاء بدر مولاه الذي جاب معه القفَر وخاض الغمار، وكان مثالاً للشجاعة والدهاء وبُعد النظر، فإنه قَدَّر في البداية خلاله وكفايته وولاَّه القيادة واختصه بأسمى المناصب والمهام، ولكنه تغيّر عليه في أواخر عهده، لما أبداه من التذمر وعدم الرضى، ولما وجهه إليه مَن عتاب خشن تجاوز فيه حد اللياقة، فنكبه وجرّده من مناصبه وأمواله، وشرّده عن قرطبة إلى قاصية الثغر، ولم يستمع إلى تضرعه حتى مات في فقر وضعة[1].

ومن هؤلاء الأصدقاء أبو عثمان كبير أنصاره، وأول من تلقاه وآواه يوم مقدمه؛ فإنه جعله كبير دولته، فلما توطّد أمره جرّده من نفوذه، ولما وقعت المؤامرة التي دبّرها بعض الوافدين من بني أمية، واتّهم أبو عثمان بالاشتراك في تدبيرها شكّ به وأخذته الريبة منه، ولم ينقذه من بطشه إلاّ عظم صنيعه لديه.

---

(١) «الإحاطة» لابن الخطيب (جـ١، ٤٥٣٢). «نفح الطيب» (جـ٢ ص٦٩، ص٧١).



ولما ثار ابن أخت أبي عثمان في بعض حصون البيرة، لم يتردد عبد الرحمن في قتله حين ظفر به.

وكذا تغيّر عبد الرحمن على عبد عبد الله بن خالد صهر أبي عثمان وزميله في مؤازرة عبد الرحمن ونصرته، وكان من وزرائه، ثم اعتزل المنصب، وتوارى لـمّا رأى من غدر عبد الرحمن بزعيم اليمنية أبي الصباح، وكان أبو الصباح هو الذي جمع كلمة اليمنية كلها في أشبيلية حول عبد الرحمن وقاتل معه بصحبته، ثم انحرف عنه لأمور نقمها منه، فاستدرجه عبد الرحمن إلى قرطبة وفتك به في نفس مجلسه بالقصر، ناكثًا لعهوده - كما ذكرنا -[1].

وقد ذهب عبد الرحمن في ذلك مذهبًا بعيداً حتى أسرته الأموية قد فتك بذويه وخاصة أسرته، حينما علم أنهم يأتمرون به، فقتل ابني أخيه عبيد الله بن أبان والمغيرة بن الوليد، وابن عمه عبد السلام اليزيدي - كما ذكرنا - .

الغايات والأساليب:

مما سبق نخلص إلى أن عبد الرحمن كان يلجأ في تحقيق غاياته إلى أساليب ووسائل مختلفة، فكان طاغية مسرفًا في البطش والسفك، ميكافيليًا بكل معاني الكلمة.. (نسبة إلى ميكافيللي، صاحب المذهب السياسي المشهور، والذي يخلص إلى القول أن على الأمير أن يتذرع في تحقيق الغاية بأي الوسائل، ومنها الغدر والخيانة والسفك وكل ما إليها).

ولكن كل هذه الصفات المثيرة التي كان يدفع عبد الرحمن لاستخدامها ويحفزها ويزكيها في نفسه هو الخطر الداهم، كان كل ذلك عنوان قوته ووسيلة ظفره، وعن ذلك يقول رينهرت دوزي في كتابه المسلمون في الأندلس[2]:

«لقد دفع عبد الرحمن ثمن ظفره غاليًا، ذلك الطاغية الغادر الصارم المنتقم،

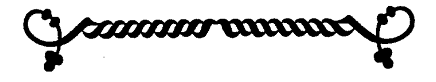
(١) «نفح الطيب» (جـ٢ ص٦٧، ٧١).

(٢) «المسلمون في الأندلس» رينهرت دوزي، ترجمة د/ حسن حبشي - هيئة الكتاب - مصر.

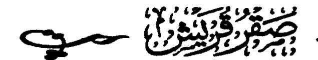
الذي لا تأخذه رأفة، ولم يبقَ زعيم عربي أو بربريّ، يجرؤ على مواجهته صراحة، ولكن الجميع كانوا يلعنونه خفية، ولم يكُ ثمّة رجل يرغب في خدمته».

ثم يقول:

«كان همّ عبد الرحمن الدائم أن يذل العرب والبربر إلى الطاعة، وأن يرغمهم على التعود على النظام والسلام، وقد لجأ في تحقيق هذه الغاية إلى جميع الوسائل، التي لجأ إليها ملوك القرن الخامس عشر لسحق الإقطاع، بيدَ أنه كان مصيراً محزناً، ذلك الذي دفع القدر إليه أسبانية، وكانت مهمة محزنة تلك التي كان على خلفاء عبد الرحمن أن يضطلعوا بها؛ ذلك أن الطريق الذي رسمه لهم مؤسس الأسرة، كان طريق الطغيان يؤيده السيف، ولكن من الحق أن نقول أن ملكًا لا يستطيع أن يحكم العرب والبربر بغير هذه الوسيلة، وإذا كان العنف والطغيان سمة في ناحية، ففي الناحية الأخرى يوجد الاضطراب والفوضى»[١].



(١) المصدر السابق (ص٢٤٥).



الخلال والصفات الباهرة

برغم ما ذكرنا من صورة قاتمة - ربما نوعًا ما - عن شخصية عبد الرحمن، فإننا نتجه إلى جوانب عظيمة ومضيئة في حياته، وقد أجمل المقَّري معالم إيجابية في شخصيته فقال:

« كان عبد الرحمن راجح الحلم، فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئًا من العجز، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه، متّصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يَكِل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعًا مقدامًا، بعيد الغور، شديد الحذر، قليل الطمأنينة، بليغًا، مفوهًا شاعرًا، مُحسنًا، سمحًا، سخيًا، طلق اللسان »(١).

كذلك صوّر ابن حيان الجوانب العظيمة في شخصية عبد الرحمن الداخل، وكان تصويره مجملاً، ربما نلحظه ونحن نتابع الأحداث التي مرت به في حياته.

وقد شبّه ابن حيان عبد الرحمن الداخل بأبي جعفر المنصور في قوة الشكيمة، ومضاء العزيمة، وفي القسوة والصرامة والاجتراء على الكبائر(٢).

ويقول المؤرخون: « وإذا كانت هذه الصفات والخلال القوية المثيرة معًا لا تحمل على الحب، فإنها تحمل على الإعجاب بلا ريب، بل إن المتأمل ليشعر بعطف خاص نحو هذه الشخصية الفريدة، ويرجع ذلك بلا ريب إلى تلك الحياة المؤثرة، التي خاض عبد الرحمن غمارها، وتلك المحن الأليمة التي نزلت بأُسرته، وتلك الجهود الفادحة التي بذلها لاسترداد حقه وحق أُسرته في الحياة والرياسة، وكانت هذه الحياة المؤثرة وما انتهت إليه من النتائج الباهرة، تحمل ألد خصوم

---

(١) « نفح الطيب » للمقري (جـ٢، ص٦٧).

(٢) المصدر السابق (جـ١، ص١٥٦).

عبد الرحمن على احترامه والإعجاب به، حتى لقد سماه أبو جعفر المنصور «صقر قريش».

فقد ذُكِرَ أنّ أبا جعفر المنصور قال يومًا لبعض جلسائه: أخبروني مَنْ صَقْر قريش من الملوك؟

قالوا: ذاك أمير المؤمنين الذي راضَ الملوك، وسكّن الزلازل، وأباد الأعداء، وحسم الداء. (يقصدونه هو).

قال: ما قلتم شيئًا! وما صنعتم شيئًا.

قالوا: فمعاوية؟ قال: لا .

قالوا: فعبد الملك بن مروان.

قال: ما قلتم شيئًا!، وما صنعتم شيئًا!

قالوا: يا أمير المؤمنين، فمن هو؟

قال: صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحار، وقطع القفَر، ودخل بلداً أعجميًا، منفرداً بنفسه، فمصَّر الأمصار، وجنّد الأجناد، ودوَّن الدواوين، وأقام ملكًا عظيمًا بعد انقطاعه، بحسن تدبيره، وشدّة شكيمته.

إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان، وذللا له صعبه، وعبد الملك ببيعة أُبرم عقدها، وأمير المؤمنين بطلب عترته، واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفرد بنفسه، مستصحب لغرمه، وطّد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور، وقتل المارقين، وأذلّ الجبابرة الثائرين.

فقال الجميع: صدقت والله يا أمير المؤمنين[1].

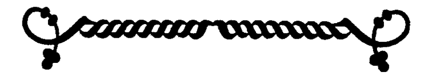
وكان عبد الرحمن يدعو للخليفة المنصور، ثم قطعه، وكان - رحمه الله - يُلقب نفسه بالأمير، وعليه جرى بنوه من بعده، فلم يُدْعَ أحدٌ منهم بأمير

(١) «البيان المغرب» لابن عذارى (٢ / ٦٠).

المؤمنين[١]؛ تعظيمًا لأمر الخلافة ومكانتها، ويُلقب بابن الخلائف، وفي ذلك يقول المقرئ: تادبًا مع الخلافة بمقر الإسلام، ومنتدى العرب[٢].

وقد وصف المؤرخون شخص عبد الرحمن فقالوا:

«بأنه كان مديد القامة، نحيف القوام، أعور، أخشم، له ضفيرتان، أصهب (احمرار الشعر)، خفيف العارضين، له خال في وجهه»[٣].



(١) «تاريخ ابن خلدون» (جـ٤: ص١٥٦).
(٢) «نفح الطيب» (١/ ٣٣٠).
(٣) جاء هذا الوصف في «نفح الطيب» (جـ١، ص١٥٦)، وابن الأثير (جـ٦ص٣٧).

الإمارة والدولة

ازدهرت الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل، فقد كانت الفتن تلتهمها، وتزري بماضيها ومستقبلها، غير أن عبد الرحمن دخلها بعزيمة لا تعرف الكلل، وهمّة عالية لا تعرف الملل، فأعطاها من عزيمته، ومنحها من همّته، فوقف في الفتن والثورات وقفة الأبطال، وصبر للمحن صبر المغاوير، حتى أعلى عرشها عن جداره، وملك سلطانها غير مُنازع، واستحقَّ بذلك ما وصفه به الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، حين يقول:

«لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه؛ فالشأن في فتى قريش الأحوذي الفذّ في جميع شؤونه، وعدمه لأهله ونسبه، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرمى همّته، ومضاء عزيمته، حتى قذف نفسه في لجج المهالك؛ لابتناء مجده، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل، نائية المطمع، عصبية الجند، ضرب بين جندها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته، حتى انقاد له عصيُّهم، وذلَّ لهُ أبيهم؛ فاستولى فيها على أريكته، مَلِكًا على قطعته، قاهرًا لأعدائه، حاميًا لذماره، مانعًا لحوزته، خالطًا الرغبة إليه بالرهبة منه، إنّ ذلك لهو الفتى كل الفتى، لا يكذب مادحه»[1].

وقد كان عبد الرحمن الداخل والمنصور صنوين؛ فقد جعل ابن حيان عبد الرحمن الداخل وأبا جعفر المنصور يتماثلان في الرجولة والصرامة والاستيلاء والاجتراء على الكبائر والقساوة، وأن أم كل منهما بربرية، وأن كلاً منهما قتل ابن أخيه؛ إذْ قتل أبو جعفر ابن السفاح، وقتل عبد الرحمن ابن أخيه المغيرة.

وكان عبد الرحمن - رحمه الله - يُحافظ على إمارته، فيهتم برونقها، ويحفظ أبهتها في نفسه وفيمن حوله، لا يسمح لأحد أن يرفع صوته، ولا أن

(١) «نفح الطيب» المقري (١/ ٣٣١).

يصخب في المكان الذي يعقد فيه مجلس الإمارة، فقد رويَ أنه لما حقق النصر على الحسين بن يحيى، وأقبل عليه الناس يُهنئونه، فهنّاه أحد الجند بصوتٍ عالٍ فقال: «والله لولا أنّ هذا اليوم يومٌ أسبغ عليَّ وهو فوقي، فأوجب عليَّ ذلك أن أُنعم فيه على من هو دوني، لأُصْلِينَّكَ ما تعرضت له من سوء النكال، من تكون حتى تُقبل مُهنئًا رافعًا صوتك غير متلجلجٍ ولا مهيب لمكان الإمارة، ولا عارف بقيمتها، حتى كأنك تُخاطب أباك أو أخاك؟ وإنّ جهلك يحملك على العود لمثلها، فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من العقوبة.

فقال الرجل: ولعلّ فتوحات الأمير، يقترن اتصالها باتصال جهلي وذنوبي، فتشفع لي متى أتيت بمثل هذه الزلة.

عندئذٍ تهلّل وجه الأمير وقال: ليس هذا باعتذار جاهل.

ثم قال: نبهونا على أنفسكم، إذا لم تجدوا من ينبهنا عليها. ورفع مرتبه وزاد في عطائه»[1].

وكان عبد الرحمن يُحاول قدر المستطاع أن يجد نفسه في زيادة منزلته، ورفعه شانه، ولن يكون ذلك إلاّ باستكمال عقله واستجماع همته، حتى أنه قُدِّمَ إليه الخمر أول دخوله الأندلس، فقال: «إني محتاج إلى ما يزيد عقلي، لا لما ينقصه»، وامتنع عن شربها، ثم قُدِّمَتْ له جارية جميلة كهدية، فنظر إليها، وقال: إن هذه من القلب والعين بمكان، وإن أنا اشتغلت عنها بهمّتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن اشتغلت بها عمّا أطلبه ظلمت همّتي، ولا حاجة لي بها الآن، وردها على صاحبها[2].

ولما كثُرَتْ مؤامرات العرب كما عرضنا من قبل، واستشرى شرهم، أصبحوا طامعين فيما ليس لهم حق فيه، وأكثروا خروجهم وتمردهم، استراب بهم، فأخذ

---

(١) «نفح الطيب» (٣/٤١).
(٢) المصدر السابق (٣/٤٢).

يتخلى عنهم، ويستبدلهم بالموالي واصطناع القبائل من غيرهم[١]، واستكثر منهم حتى اجتمع حوله أربعون ألفًا.

فلما أوقع عبد الرحمن الداخل اليمانية الذين خرجوا في طلب ثار رئيسهم أبي الصباح اليحصبي، وأكثر القتل فيهم، استوحش من العرب قاطبة، وعلم أنهم على دَغَل وحقد، فانحرف عنهم إلى اتخاذ المماليك، فوضع يده في الابتياع، فابتاع موالي الناس بكل ناحية واعتضد أيضًا بالبربر، ووجه عنهم إلى بر العدوة، فأحسن لمن وفد إليه إحسانًا، رغّب من خلفه في المتابعة والانضمام إليه من هؤلاء البربر.

وقال ابن حيان: «واستكثر منهم (البربر) ومن العبيد، فاتخذ أربعين ألف رجل، صار بهم غالبًا على أهل الأندلس من العرب، فاستقامت مملكته وتوطّدت»[٢].

تلقى عبد الرحمن تراث الإمارة كما خلفه يوسف بن عبد الرحمن الفهري، والتي كانت الأندلس حتى ولاية يوسف ولاية من ولايات الخلافة الأموية، ولم يُنشئ - رغم كونه سليل بني أُمية - لنفسه شيئًا جديدًا من رسوم الملك، وتُلقبه الرواية الإسلامية بالأمير، وأحيانًا بالإمام[٣]، ويُلقب أيضًا بصاحب الأندلس[٤].

ويُعرف عبد الرحمن الداخل لأنه أول من دخل من أمراء بني أمية وحكمها، ويُعرف أيضًا بعبد الرحمن الأول؛ لأنه أول أمراء ثلاثة من بني أُميّة سمُّوا بهذا الاسم حكموا الأندلس، هم عبد الرحمن الداخل، وحفيده عبد الرحمن الأوسط (ابن الحكم)، ثم عبد الرحمن الناصر.

وكانت دعوة بني العباس قد وصلت إلى الأندلس حين مقدم عبد الرحمن،

(١) تاريخ ابن خلدون (٤ / ١٥٨).

(٢) «نفح الطيب» (جـ٣، ص٣٦).

(٣) «الروض المعطار» (ص١٨٦)، ابن خلدون (جـ٤، ص١٢٢).

(٤) «البيان المغرب» (جـ٢. ص٥٠)، وابن الأثير (جـ٦، ص٣٧). ١٤٨.

وذاعت في منابرها، ودعى في الخطبة لبني العباس في كثير من النواحي، ثم دعى لهم في قرطبة ذاتها، ودعى عبد الرحمن الداخل نفسه لأبي جعفر المنصور عدّة أشهر، و كان ذلك رغم غرابته وتناقضه عملاً من أعمال السياسة، ولكن جماعة من بني أمية الذين وفدوا على الأندلس، وعلى رأسهم عبد الملك المرواني، اعترضوا على هذا التصرف، ونوهوا بما أثم به بنو العباس في حق بني أمية، ومازالوا بعبد الرحمن حتى قرر قطع ذكر بني العباس مِن الخطبة سنة (١٣٩هـ)، فقطعت من سائر منابر الأندلس[١].

ولم يتخذ عبد الرحمن الداخل سمة الخلافة، أو يُسمي نفسه خليفة، رغم كونه سليل رجال الخلافة، ويرجع ذلك إلى اعتبارات دينية وسياسية، تحدّث عنها ابن خلدون فقال:

«إن بني أمية بالأندلس، تلقبوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك، بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة، والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية، وأنهم إنما منعوا بإمارة بعيدة أنفسهم عن مهالك بني العباس»[٢].

ويقول في موضع آخر: «إن عبد الرحمن لم يتخذ سمة الخلافة تأدبًا منه في حق الخلافة في مقر الإسلام ومنتدى العرب».

ويقول المسعودي في «مروج الذهب»: «إن الخلافة لم يكن يستحقها عند بني أُمية إلاّ من كان مالكًا للحرمين؛ ولذلك سموا بالخلائف، حتى بعد أن تَسمّوا بالخلافة ولم يخاطبوا بالخلفاء»[٣].

---

(١) «الحلة السيراء» ابن الأبار (ص٣٣).
(٢) ابن خلدون (جـ٤، ص١٢٢).
(٣) «مروج الذهب» للمسعودي (جـ١، ص٧٨).

نظام الحكومة في عهد عبد الرحمن الداخل

وقد اتبع عبد الرحمن الداخل سُنّة أسلافه بالمشرق في تبسيط الرسوم والإجراءات والنظم، وأنشأ منصب الحجابة، ولكنه لم يُنشئ مناصب الوزارة، بل استعاض عنها بأعوان وأشياخ يعاونونه في القيام بمهام الحكم، وليست لهم سمة الوزارة، وإنّما هم أقرب إلى الخاصة وأهل الشورى.

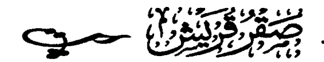
واختار أعوانه في البداية من أصدقائه الذين استقبلوه يوم مقدمه، وآزروه وقاتلوا معه، فولّى حجابته تمام بن علقمة، ثم ولاها من بعده ليوسف بن بخت الفارسي مولى عبد الملك بن مروان، ثم عبد الكريم بن مهران الغساني، ثم عبد الرحمن بن مغيث ولد مغيث فاتح قرطبة، وولاها في آخر أيامه لمنصور الخصبي، فلم يزل في حجابته حتى توفى، وعيّن لمشورته أبا عثمان بن عثمان كبير أنصاره، وصهره عبد الله بن خالد، فكانا لفترة طويلة دعامة حكومته، وكان من أعوان حكومته أيضًا جدار بن عمرو، وأبو عبده حسّان بن مالك زعيم إشبيلية، وسُهَيد بن شهيد، وعبد السلام بن بسيل الرومي، و هما من موالي بني أمية، وثعلبة بن عبيد الجذامي الذي ولاه سرقسطة فيما بعد، وعاصم بن مسلم الثقفي وهو من خاصة أنصاره يوم المسارّة [١].

وولى قيادة عسكره مولاه بدر، وتمام بن علقمة، وعبد الملك المرواني، وثعلبة ابن عبيد، وغيرهم من خاصة عصبته.

وقد كان عبد الرحمن يتولى بنفسه قيادة الجيش في معظم الوقائع والحروب التي نشبت بينه وبين خصومه كما رأينا، وولى عبد الرحمن على الكور والثغور جماعة مختارة من أصدقائه، وذوي رحمه الوافدين عليه.

---

(١) «نفح الطيب» (جـ١، ص١٥٦).



خلاصة الأمر:

فإن حكومة عبد الرحمن الداخل كانت تقوم في البداية على العصبية والموالاة، وكانت عربية في بنائها وروحها، ولكن الخصومة المستعرة التي شهدها زعماء القبائل والبطون المختلفة على عبد الرحمن، والثورات المستمرة الي عملوا على إضرامها من حولها، و نكثهم المتكرر بعهودهم، حمله على الشك والريبة بالعرب والحذر منهم، فمال عنهم إلى اصطناع الموالي والبربر، ولاسيما بربر العُددة (المغرب)، وحشد حوله من الموالي والبربر والرقيق آلافًا مؤلفة؛ لتكون له وقت الحاجة عونًا يركن إليه ويثق به، وكان ذلك قاعدة للسياسة التي استمر عليها خلفاء عبد الرحمن، وساروا على نهجها من بعده، والتي بلغت ذروتها في عهد عبد الرحمن الناصر - كما سنرى - [١].

سياسة عبد الرحمن نحو نصارى العرب والشمال:

كانت سياسة عبد الرحمن الداخل نحو نصارى العرب والشمال سياسة اعتدال ومهادنة، ولم يفكر عبد الرحمن في غزو أرض النصارى؛ لانشغاله المستمر بأمر الثورات الداخلية، وكان يُرحب بعقد السلم والمهادنة معهم.

وقد أصدر عبد الرحمن لجيرانه نصارى قشتالة عقد أمان يؤيد ما قيل عن سياسة المهادنة والأمان والسلم معهم، وجاء في هذا العقد:

«بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن، للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى والأندلسيين أهل قشتالة، ومن تبعهم من سائر البلدان. كتاب أمان وسلام، وشهد على نفسه أن عهده لا يُنسخ ما أقاموا على تادية عشرة آلاف أوقية من الذهب، وعشرة آلاف رطل من الفضة، وعشرة آلاف

(١) المصدر السابق (جـ٢، ص٦٧).

رأس من خيار الخيل، ومثلها من البغال، مع ألف درع وألف بيضة، ومثلها من الرماح في كل عام إلى خمس سنين، كُتب بمدينة قرطبة ثلاث من صفر عام اثنين وأربعين ومائة (٧٥٩م)[١].

مواهب عبد الرحمن الداخل الإدارية:

كان هذا الرجل يتمتع بمواهب إدارية؛ فاستطاع خلال الاضطراب الشامل أن يوطد دعائم الحكم والإدارة، وأن يقمع كثيراً من ضروب الفساد والبغي، وأن يؤيد هيبة القانون والنظام، ولما توطد سلطانه وخبا ضرام الثورة نوعًا ما، استطاعت الأندلس أن تتمتع في ظل حكومته بأمن وطمأنينة ورخاء لم تعرفها منذ زمن بعيد، ولو لم يشغل عبد الرحمن طوال عهده بقمع الثورات والفتن الداخلية لاستطاع - كأسلافه - الفاتحين الأوائل، أن يبعث الأندلس خلقًا جديداً، وأن يجعل منها حديقة يانعة، على أنه ذلل الصعب ومهّد الطريق لعقبه، واستطاع أن يضع دعائم تلك المملكة، التي غدت على يد بنيه أعجوبة العصور الوسطى.

ويحدث المؤرخون ومنهم: ابن حيان مؤرخ الأندلس عن مقدرة عبد الرحمن الداخل وكفايته الإدارية، فيقول:

«إنه دوّن الدووايِن، و رفع الأواوين، وفرض الأعطية، وعقد الألوية، وجنّد الأجناد، ورفع العماد، وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آلته، وأخذ للسلطان عدّته»[٢].

---

(١) انظر «الإحاطة» لابن خطيب.

(٢) «نفح الطيب» (جـ١، ص١٥٥).

عناية عبد الرحمن الداخل بالجيش:

بطبيعة الحال فإنّ سند عبد الرحمن وسلاحه القويّ يتمثل في جيشه الذي استخدمه في توطيد أركان دولته، فقد عنى عبد الرحمن بالجيش عناية فائقة، ورعاه رعاية خاصة، فجنّد المتطوّعة والمرتزقة من كل صوب، وبلغت قواته مئة ألف مقاتل، هذا عدا حرسه الخاص الذي أنشأه من الموالي والبربر والرقيق، حسبما قدمنا، ويبلغ زهاء أربعين ألفًا(١).

كذلك عنى عبد الرحمن في أواخر عهده بأمر البحرية (القوات البحرية) فانشأ عدة قواعد لبناء السفن في بعض الثغور النهرية والبحرية، مثل طركونة وطرطوشة وقرطاجنة وأشبيلية وغيرها.

وقد قيل أن عبد الرحمن لما توطد ملكه، وكثرت قواته وعدّته، فكّر في استرداد ملك بني أمية بالشام، والرحيل إلى المشرق ببعض قواته، واستخلاف ولده سليمان على الأندلس، وأيده في ذلك خاصة أسرته ومواليه، وكان ذلك في سنة (١٦٣هـ)، ولكن اضطرام الثورة في سرقسطة حال بينه وبين ذلك العزم، وتوفي قبل أن تسنح فرصته لتنفيذه(٢).

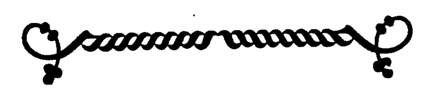
عنايته بقرطبة:

أصبحت قرطبة حاضرة (عاصمة) الدولة الأموية الجديدة، فكان لابد من الاعتناء بها، فقام عبد الرحمن بتحصينها وتزيينها بالمنشآت الضخمة الفخمة، والرياض اليانعة، وكان أول ما أنشأ بها في عهده منية (مدينة) الرصافة وقصرها الرائع، وكان قصر الإمارة بناءً قديمًا ساذجًا، يرجع إلى عهد القوط، فرأى عبد الرحمن أن يُنشئ ضاحية ملوكية جديدة، تليق بحاضرة ملكه، وتُعيد

(١) «نفح الطيب» (جـ٢، ص٦٧).
(٢) «نفح الطيب» (جـ١ ص١٥٦، جـ٢ ص٧٦).

ذكرى مجد وبهاء بني أمية بالمشرق؛ فأنشأ في شمال غربي قرطبة قصرًا فخمًا تُحيط به حدائق زاهرة، وجلب إليه مختلف الغروس والبذور والنَّوى من الشام وإفريقية، وسمى تلك الضاحية الجديدة بـ« الرصافة » تخليداً لذكرى الرصافة التي أنشأها جده هشام بالشام، واتخذها مقامًا ومنتزهًا ومركزًا للإمارة، وكانت حدائق الرصافة أُمّاً لحدائق الأندلس، ومنها انتشرت بالأندلس غروس الشام وإفريقية[١].

وفي سنة (١٥٠هـ) بدأ عبد الرحمن بإنشاء سور قرطبة، وكان موضعه كنيسة قوطية قديمة، وجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد، ولكنه توفي قبل إتمامه، فأتمه ولده هشام، وزاد فيه من بعده ملوك بني أمية، حتى غدا أعظم مساجد الأندلس، وبلغ ما أنفقه عليه عبد الرحمن الداخل وحده زهاء مئة ألف دينار[٢]، وهذا الإنفاق يدل على مدى سعة المسجد، واتساع مساحته، وفخامة إنشائه؛ لأن عبد الرحمن لم يدّخر مالاً في سبيل إخراج هذا المسجد كتحفة معمارية، وقد أنشأ عبد الرحمن الداخل أيضًا في قرطبة داراً للسكّة، تُضرب فيها النقود على نحو ما كانت تُضرب في دمشق أيام بني أميّة وزنًا ونقشًا.



(١) «نفح الطيب» (جـ١ ص٢١٧).
(٢) المصدر السابق (جـ٢، ص٦٧).

عبد الرحمن الداخل الإنسان

كان عبد الرحمن الداخل جوادًا كريمًا، جمّ البساطة والتواضع، يؤثر لبس البياض ويعتمّ به، يُصلي بالنّاس أيام الجمع والأعياد، ويحضر الجنائز ويصلي عليها، ويعود المرضى، ويزور الناس ويُخاطبهم، ولم يخرج على هذه الخلال والصفات إلاّ في أواخر عهده، حينما نصحه بعض خاصته بالترفّع، استبقاءً لهيبة الملك، والحذر من بوادر العامة وشر المتآمرين(١).

وقد كان في نقش خاتمه «عبد الرحمن بقضاء الله راض»، و«بالله يثق عبد الرحمن، وبه يعتصم» مما يدل على ذلك التواضع الجم(٢)، حيث لم يتخذ لقب المظفر أو الناصر أو المنصور، وما إلى ذلك من ألقاب.

أولاً - عبد الرحمن الشاعر والأديب:

كان عبد الرحمن شاعرًا جيّد النظم، ناثرًا فصيح البيان، قويّ الترسل، عالمًا بالشريعة، وكان يعتبر من أعظم بني مروان مكانة في البلاغة والأدب(٣)، وقد انتهت إلى المؤرخين بعض رسائله وفيها تبدو قوة بيانه وفيض بلاغته، ومن ذلك رسالة موجزة وجهها إلى سليمان بن يقظان حين خروجه عليه:

«أما بعد، فدعني من معارض المعاذير، والتعسف عن جادة الطريق، لتمدنّ يدًا إلى الطاعة، والاعتصام بحبل الجماعة، أو لألقينّ بناتها على رصف المعصية، نكالاً بما قدمت يداك، وما الله بظلاّم للعبيد»(٤).

---

(١) المصدر السابق (جـ٢ ص٦٧)، وانظر البيان المغرب (جـ٢ ص٥٠).
(٢) المدر السابق.
(٣) «البيان المغرّب» (جـ٢، ص٥٠).
(٤) «نفح الطيب» (جـ٢ ص٦٨).

ومنها رسائله إلى مولاه بدر، يزجره عن تمرده وانحرافه، وقد كتب إليه حين الحج في طلب العفو والمنة :

«لتعلم أنك لم تزل بمقتك حتى ثقلت العين عن طلعتك، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع لكلامك، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر»(١).

ومن أقواله لأصحابه يوم المسارّة يشحذ هممهم للقتال :

«هذا اليوم هو أسّ ما يُبنى عليه، إما ذلّ الدهر وإمّا عزّ الدهر؛ فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون، تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون»(٢).

ثانيًا - عبد الرحمن الشاعر القويّ الرقيق الخيال:

أورد المؤرخون من شعره الكثير، فحينما أخذه الحنين إلى ربوع الشام، أنشد يقول في تأثّر شديد :

أيّها الركب الميمم أرضي ... اقرأ من بعضي السلام لبعضي
أن جسمي -كما علمت- بأرضٍ ... وفؤادي ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضي

وحين بلغه أن بعض أصدقائه يمن عليه، ويزعم أنه لولاه لما صار الملك إليه، قال :

سعدي وحزمي والمهند والقنا ... ومقادير بلغت وحال حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب ... نجم يُطالعنا ونجم آفل

(١) المصدر السابق (جـ٢ ص٦٩).
(٢) المصدر السابق (ص٧٠).

والحزم كل الحزم أن لا يغفلوا	أيروم تدبير البرية غافل
ويقول قوم سعده لا عقله	خير السعادة ما حماها العاقل

وأشاد بعضهم أمامه بموقف الغمر بن يزيد بن عبد الملك في مجلس عبد الله ابن عليّ جلاّد بني أمية، ونعيه عليه إثمه في حقهم وسفكه لدمائهم، وفقده لحياته ثمنًا لجرأته، فانشد عبد الرحمن:

شتان من قام ذا امتعاض[١]	فشال ما قال واضمحلا
ومن غدا مصلتًا لغرم[٢]	مجردًا للعداة نصلاً
فجاب قفرًا وشق بحرًا	ولم يكن في الأنام كلاً
فبنى ملكًا وشاد عزًا	ومنبرًا للخطاب فصلاً
وجنّد الجند حين أودى	ومصّر المصر حين أجلى
ثم دعا أهله جميعًا	حيث انتأوا أن هلم أهلاً

وحينما رأى بروض الرصافة – وهي ضاحيته الجديدة التي أنشأها – عندما رأى نخلة متفردة، أثار المنظر في نفسه ذكريات وشجون، فانشد يقول:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة	تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى	وطول التنائي عن بنيي وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة	فمثلك في الإقصاء والمنتأي مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها	الذي ويستمرئ السماكين بالويل[٣]

(١) يريد الغمر بن يزيد.
(٢) يريد نفسه (عبد الرحمن الداخل).
(٣) «الحلة السيراء» (ص٣٤).

عبد الرحمن المفترى عليه

هناك حقيقة لا يُنكرها المؤرخون، وهي أن عبد الرحمن قاعدة لسلوكه، والقسوة ركيزة لسيرته، ولكنه كان معذورًا في ذلك، فقد كان هذا العنف، وتلك القسوة، سمة عامة يتميّز بها ذوو الجاه والسلطان في تلك الفترة من الزمان، ولكنه لا يعتقد أنه تمثل بالملوك في ذلك وهو الذي كان يُصلي بالناس الجمع والأعياد، ويخطب على المنبر، ويعود المرضى، ويُكثر مباشرة الناس، والمشي بينهم[1]، ومن كانت أخلاقه هكذا، فإنه لا يتغير عنها إلاّ إذا كان مخادعًا، يُري الناس من سيرته ما يخفى عنهم منها؛ حتى يتمكن، ثم يعود إلى طبيعته، وعبد الرحمن لم يكن كذلك، بل ظلّ على ذلك حتى نصحه خاصته – كما ذكرنا – آنفًا بالا يخرج للناس، ويبتذل في ذلك، فإن الناس لا تؤمن بوادرهم على الملوك والرؤساء، وكان ذلك نتيجة أن استوقفه رجل من الرعية يطلب الإنصاف من القاضي، كما رواه صاحب «نفح الطيب».

وفي دفاعهم عن شخصية عبد الرحمن، وما أُثير حوله من عنف وقسوة تحدّث بعض المؤرخين فقالوا:

«لقد اكتسب عبد الرحمن العنف والقسوة من أخلاق العرب أنفسهم الذين عاشوا معه في تلك البلاد، فقد وجدهم – إلاّ من رحم ربي – مخادعين، يُظهرون السلامة، ويُضمرون العداوة، يأمن الرجل منهم ويوليه، فإذا اطمأن في مجلسه، ثار عليه، وخرج من طاعته، فكان لابد أن يُغيّر سياسته في حكم البلاد، كان عليه أن يأخذ بالظنّه، وأن يرتاب في كل من حوله، حتى الرجال المخلصين له

---

(١) «نفح الطيب» (٣/٣٧).

ولدولته، كان عليه أن يستعمل العنف؛ ليردع الخونة، ويلتزم القسوة ليزجر المارقين، ولو لم يستعمل عبد الرحمن هذه السياسة لانقضت الدولة، وذهبت في كل واد»[١].

وكان عبد الرحمن أمام موقف شديد الحساسية وشديد الخطورة، فهو يؤسس دولة من عدم، ويُقيم أمة رآها مبعثرة، ويرأب صدعًا، ويُقيم معوجًا، فإذا لم يكن العنف وسيلة في قوم لهم أطماع، ونفوس فيها حقد، لم يستقم الأمر، ولم تقم الدولة، ولم يذكر التاريخ عبد الرحمن إلاّ بالضعف، وعدم القدرة على إقامة الدولة.

لقد وجد عبد الرحمن الفوضى ضاربة أطنابها في أنحاء البلاد المختلفة، كل والٍ يثور في ولايته ليستقل بها، ويحيك المؤامرات؛ لينفصل عن باقي الأقاليم، ولا يجد من يُنازعه، ووجد التنافس على أشده بين القبائل المختلفة، هذا فهريّ، وهذا يمنيّ، هذا عدناني، وذلك قحطانيّ، كل قبيلة تُنافس الأخرى، وتتسابق معها في طريقة حكم البلاد، كما وجد الحقد والحسد يملآن النفوس بين زعماء هذه القبائل، وحكّام هذه المدن، وتلك الثغور.

لقد كانت البلاد منقسمة على نفسها، مما جعل البلاد شيعًا وأحزابًا، وأتاح ذلك الفرصة لحكام البلاد المسيحية في شمال البلاد، أن تتخذ لنفسها مراكز قوية لتأمين حدودها مع المناطق الإسلامية، بل احتلال مناطق حيوية، يُهددون بها البلاد الإسلامية، وإلى جانب ذلك، كانت المؤامرات لإتاحة الفرصة للتدخل الخارجي من جانب الخلافة العباسية من جهة والفرنج من ناحية أخرى، ولولا سرعة تصدي عبد الرحمن وسياسته الحكيمة في مواجهة هذه الفوضى لوقعت

---

(١) انظر «دولة الإسلام في الأندلس» ق١ ع١ (ص٣٩١) وما بعدها. وانظر «الأمويون في الشرق والغرب» د/ محمد سيد الوكيل (جـ٢ ص١٥٤) وما بعدها.

البلاد كلها في قبضة الإفرنج الذين كانوا يتربصون بالإسلام الدوائر، ويتحينون بها الفرص.

وكذلك ثورات البربر، تلك هي حال البلاد، فوضى وتمزق، وحقد وحسد، وتمرّد وعناد، ولولا ما فُطر عليه عبد الرحمن من الشهامة والشجاعة، وسرعة النهضة لمقاومة التمرد لضاعت الأندلس، وضاع عبد الرحمن؛ فقد كان يستعمل العنف والقسوة في حال لا يُجدي فيه إلاّ العنف والقسوة، كما أمر بقتل ابن أخيه حين تآمر على الدولة، وأمر بنفي بدر مولاه حينما تكلم بكلام لا يليق بحال الإمارة، وهكذا كان يفعل بمن يستحقون العقوبة[١].

أما مع غير هؤلاء، فقد كان لطيفًا مداعبًا.

فقد روى المقرى أنه لما استتب له الأمر بالأندلس أتاه رجل بربري هو أبو قرة، وكان أبو قرة هذا قد آوى عبد الرحمن والخلافة العباسية تبحث عنه، فأحسن إليه وحظى عنده وأكرم زوجته – نكفات – البربرية التي خبأته تحت ثيابها، عندما فتشت رسل ابن حبيب بيتها عنه، فقال لها عبد الرحمن مداعبًا، حين استظلت بظله في الأندلس: لقد عذبتني بريح إبطيك يا نكفات على ما كان بي من الخوف، وأزعجتني بأنتن من ريح الجيف.

فكان جوابها مسرعة: بل كان والله يا سيدي منك خرج، ولم تشعر به من فرط فزعك، فاستظرف جوابها[٢].

كانت هذه البلاد في حاجة إلى شخصية فذة شجاعة عبقرية، مثل عبد الرحمن الداخل، تحكمها وتُدير شؤونها، كان عبد الرحمن فذاً في شجاعته، وفي تفوقه الإداري، وفي سلوكه وأسلوب حياته، بل قُلْ في جميع نواحي الحياة.

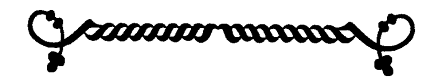
---

(١) المصدر السابق (ص١٥٧).
(٢) «نفح الطيب» (٣/٣٧).

كان – رحمه الله – فردًا حين دخل الأندلس، وكان حدثًا لم يتجاوز العشرين من عمره، وكان يُقاوم دولة ترامت أطرافها، واتّسعت شِعابها، ومع ذلك فقد استطاع أن يعبر إلى الأندلس، دون أن يُعيقه حداثة سنه، ولا مقاومة الأعداء، ونجح في إقامة دولة قوية مرهوبة الجانب، عزيزة الأركان، وخاض في ذلك معارك عنيفة.

كانت مدة الأمراء بالأندلس قبل عبد الرحمن الداخل منذ فُتحت إلى يوم هزيمة أميرها يوسف الفهريّ والصُّميل ستًا وأربعين سنة وشهرين وخمسة أيام؛ فقد كان الفتح لخمس خلون من شوال سنة (٩٢ هـ – ٧١١ م) وكانت هزيمة يوسف لعشر خلون من ذي الحجة سنة (١٣٨هـ – ٧٥٦ م)[١].

وظلّ يوسف الفهري أميرًا على الأندلس تسع سنين وتسعة أشهر، وانتقلت إمارة الأندلس إلى عبد الرحمن الداخل، بعد هزيمة يوسف الفهري والصميل، حيث استفحل أمره بها، ودانت له البلاد، ولعقبه من بعده إلى بعد الأربعمائة ، هذا هو صقر قريش وأيامه العظيمة في الأندلس.



---

(١) المصدر السابق (٣/ ٥٣) .

أبناء الداخل

هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

توفي عبد الرحمن الداخل في الرابع والعشرين من (ربيع الآخر سنة ١٧٢هـ – ١٢ أكتوبر سنة ٧٨٧م) وهو في نحو الثامنة والخمسين من عمره، بعد أن حكم الأندلس ثلاثة وثلاثين عامًا مِلؤها الخطوب والفتن، فخلفه ولده هشام بعهدٍ منه لأيام قلائل من وفاته.

التعريف بهشام :

هو هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وُلِدَ بقرطبة لأربع خلون من شهر شوال سنة (١٣٩هـ – ٧٥٧ م) ويُعرف بالرضا لعدله وفضله، ويكنى أبا الوليد[١].

أمه أم ولد تُدعى حُلَل، كانت بارعة في الحسن، رائعة الجمال، فأحبها عبد الرحمن، وكانت أحب نسائه إليه، وأقربهم إلى قلبه، وأعلاهم كلمة عنده، فيُحكى أن أم عثمان زوجة يوسف الفهري، حضرت إليه بصحبة ابنتيها، تطلبان الأمان والحماية من الأمير عبد الرحمن بعد أن تمّ له النصر على زوجها، ودخل قرطبة، قالت له: « يا ابن عمّ كنْ كريمًا معنا كما كان الله كريمًا معك »، فتاثر عبد الرحمن من كلامها، ومما أصابها هي وبناتها، وهنّ جميعًا لهن قرابة وصلة بعائلته، بنسب وقرابة، فأكرمهن عبد الرحمن، وردّ إليهن ما كان عسكره قد استولوا عليه منهن من مجوهرات، وأنزلهن منزلة حسنة.

وتعبيراً عن سرورهن بفعل الأمير، قدمت له إحداهن هدية متواضعة، هي إحدى جواريها الجميلات، وهي شابة تدعى حُلَل[٢].

---

(١) « الحلة السيراء » لابن الأنبار (١ / ٤٢) .

(٢) « الأمويون أمراء الأندلس الأول » أحمد إبراهيم الشعراوي (ص١٣٩) .

كان هشام أبيض أشهل، مشربًا بحمرة، وبعينيه حَوَل، وكان نقش خاتمه «بالله يتقي هشام وبه يعتصم». وصاحب شرطته: عبد الغفار بن أبي عبده، وكاتباه اثنان: فطيس بن عيسى، وخطّاب بن يزيد، وقاضيه: المصعب بن عمران، وحاجبه: عبد الرحمن بن مغيث.

هشام ولي العهد والأمير بعد أبيه:

كان الأمير عبد الرحمن الداخل قد عهد إلى أحد ولديه: هشام وسليمان، وكان هشام واليًا على ماردة حين وفاة أبيه، وأما سليمان، فكان واليًا على طليطلة، فلما حضرت عبد الرحمن الوفاة، كان ابنه عبد الله المعروف بالبَلَنس موجودًا في القصر، فقال له أبوه: من سبق إليك من أخويك فارمِ له بالخاتم والأمر، فإن كان هشامًا فله فضل دينه وعفافه، واجتماع الناس عليه، وإن سبق إليك سليمان، فله فضل سنّه ونجدته وحب الشاميين له[١].

وكان أبوهما عبد الرحمن قد استوزرهما تنويهًا بشأنهما، فكانا يركبان إلى القصر متناوبين لا يجتمعان.

فإذا كان يوم هشام تأهب حاضروا المجلس من كبار أهل المملكة لما سيقولون، فيفيضون في الحديث إلى إنشاد شعر، أو ضرب مثل، أو ذكر يوم من أيام العرب، أو ذكر حرب، أو اجتلاب حيلة أو حكاية تدبير.

وإذا كان يوم سليمان خلا المجلس من ذلك كله، وانبسط الحاضرون في غث الأحاديث، وأخذوا في المداعبة[٢].

وفي سبيل اطمئنانه عليهما كان الداخل يسأل عنهما كثيرًا، فيقول الناس: إن هشامًا إذا حضر مجلسًا امتلأ أدبًا وتاريخًا، وذكرًا لأمور الحرب، ومواقف الأبطال، وإذا حضر سليمان امتلأ المجلس سخفًا وهذيانًا، فيكبر هشام في عينيه، بقدر ما يصغر سليمان.

---

(١) «البيان المغرب» (٢/٦١).

(٢) «الحلة السيراء» (١/٤٢).

وكان عبد الرحمن الداخل يُريد التأكد بنفسه من كل ما يسمعه عن ولديه هشام وسليمان، فقال الداخل يومًا لابنه هشام: لمن هذا الشعر؟

وتعرف فيه من أبيه شمائلا ومن خاله أو من يزيد ومن حُجُرْ

سماحة ذا وبرَّ ذا ووفاء ذا ونائل ذا إذا صحا وإذا سكرْ

فقال هشام لأبيه: يا سيدي، لامرئ القيس ملك كندة، وكأنه قاله في الأمير – أعزّه الله –؛ فضمّه عبد الرحمن إليه؛ استحسانًا بما سمع منه، وأمر له بإحسان كثير، وزاد في عينه.

ثم انفرد بسليمان، وقال له: لمن هذا الشعر؟ وأنشده البيتين، فقال: لعلّهما لأحد أجلاف العرب، أما لي شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب. فأطرق عبد الرحمن، وقد علم ما بين الاثنين من المزية[١]. لهذا كان هشام أقرب إلى قلب والده عبد الرحمن، وكان يتمنى أن تؤول الوزارة إليه، غير أنه لم يحب أن يُعيّن هشامًا؛ حتى لا تقع الضغينة بين الأخوين، وحتى لا تكون فتنة، فترك الأمر لعبد الله، من يلحق به أولاً يعطى الخاتم والأمر وتفوّض إليه مقاليد الحكم.

وكانت وفاة عبد الرحمن وهشام والٍ على ماردة يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر[٢]، وقيل غير ذلك.

ووصل هشام الخبر، فأسرع في السير، حتى وصل قرطبة بعد ستة أيام، فبايعه أخوه عبد الله، وسلّمه خاتم الإمارة، وبايعه العامة والخاصة[٣]. وكان ذلك في يوم الأحد غرة جمادى الأولى سنة (١٧٢ هـ – ٧٨٧ م)، وكان عمره حينئذ ثلاثين سنة[٤]، وعلم أخوه سليمان بذلك، فحشد الحشود، وجنّد الأجناد، وهو يُريد قرطبة مخالفًا لأخيه، فلما وصل – جيَّان – خرج إليه هشام في أجناده، والتقى الجيشان بجهة بملج، ووقعت بينهما حربًا قاسية – سنعود إليها – .

---

(١) «نفح الطيب» (١ / ٣٣٤) .

(٢) «الحلة السيراء» (١ / ٤٢) .

(٣) «البيان المغرب» (٢ / ٦١) .

(٤) «الأمويون أمراء الأندلس» الشعراوي (ص١٣٩) .

صور من حياة هشام

مع التنجيم والمنجمين

كان للمنجمين عند الخلفاء والملوك والأمراء منزلة سامية، بشرط أن يخبروهم بما يُريدون، أو يقولون لهم ما يشتهون، عندئذ ترتفع منزلتهم، وتعلو مكانتهم، والغريب أن الملوك بعامة يثقون فيما يقوله المنجمون، ولا يتنازلون عمّا سمعوه منهم، وإن كان بعضهم يُؤمن بأن الغيب بيد الله، لا يعلمه أحد سواه، ولكنهم مع ذلك لا يتنازلون عن تقديرهم للمنجمين، ويُحبون أن يستمعوا إليهم، ويسمعوا منهم، ومما جاء في «نفح الطيب» للمقري[1]: أن من هؤلاء هشام بن عبد الرحمن، أمير الأندلس الأموي، فإنه مع مطلع ولايته للأندلس، بعث في طلب «الضبي» المنجم المشهور، أرسل إليه في المدينة التي كان يُقيم فيها – وهي الجزيرة الخضراء – وأحضره إلى قرطبة، وكان الضبي حاذقًا في علوم النجوم، فلما حضر الضبي إلى هشام، خلا به، وقال له: يا ضبي، لستُ أشكّ أنه قد عناك من أمرنا إذ بلغك ما لم يدع تجديد النظر فيه، فأُنشدك الله إلاّ ما أنبأتنا بما ظهر لك فيه. فلجلج وقال: اعفني أيها الأمير؛ فإني ألممت به، ولم أحقق النظر فيه؛ لجلالته في نفسي.

فقال له: قد أحلتك لذلك، فتفرغ للنظر فيما بقى عليك منه.

ثم أحضره بعد أيام، فقال: إن الذي سألتك عنه جدّ مني، مع أني – والله – ما أثق في حقيقته، إذ كان من غيب الله الذي استأثر به، ولكني أُحبّ أن أسمع ما عندك فيه؛ فالنفس طُلَعة، والزمه الصِّلة أو العقوبة.

---

(١) «نفح الطيب» (١ / ٣٣٤).

فقال الضبي : اعلم أيها الأمير أنه سوف يستقر ملكك، سعيداً خبرك، قاهراً لمن عاداك، إلاّ أنّ مدّتك فيه — فيما دلّ عليه النظر — تكون ثمانية أعوام أو نحوها.

فأطرق هشام ساعة، ثم رفع رأسه ، وقال: يا ضبي، ما أخوفني أن يكون النذير كلمني بلسانك، والله لو أن هذه المدة كانت في سجدة لله — تعالى — لقلت طاعة له. ووصله وخلع عليه، وزهد في الدنيا، والتزم أفعال البر[1].

اعتمد هشام هذه النبوة، ورأى أن يقضي هذه المدة في الصلاح والتقوى وعمل الخير، والجهاد في سبيل الله؛ ولذلك فقد كان عاقلاً حازمًا، وافر الشجاعة والعزم، كثير العدل والتقوى، جمّ التواضع والرفق.

وتُشيد الرواية الإسلامية بجميل صفاته وخلاله، وتُنوّه بالأخص بورعه وتواضعه، وحبه للخير، فيقول لنا ابن عبد ربه، صاحب «العقد الفريد» أنه: «كان أحسن الناس وجهًا، وأشرفهم نفسًا، الكامل المروءة، الحاكم بالكتاب والسُّنَّة، الذي أخذ الزكاة على حلها، ووضعها في حقها، لم يعرف عنه هفوة في حداثته، ولا زلة في أيام صباه»[2].

وقيل: بلغ من تواضعه أن كان يطوف شوارع قرطبة مختلطًا بالرعية يسمع المظالم بنفسه، ويعود المرضى، و يشهد الجنائز، وربما كان يخرج في الليالي المظلمة الممطرة، فيُلقي بصُرر المال في المساجد لمن وجد فيها؛ بغية تعميرها بالمصلين، ويسعى إلى غوث البائس والمسكين بمختلف الوسائل[3].

وكان يذهب مذهب عمر بن عبد العزيز، في تحرّي الحق والعدالة، فكان

---

(١) «نفح الطيب» (١ / ٣٣٤) وانظر ابن القوطية «تاريخ افتتاح الأندلس» (ص٦٤).

(٢) «العقد الفريد» (جـ٣ ص٢٠٢).

(٣) «المعجب» للمراكشي (ص١٠).

يبعث إلى الكور بقوم من ثقاته؛ للتحري عن مسلك العمال وسيرهم بين الرعية، فإذا انتهى إليه حَيْفٌ من أحدهم اشتدّ عقابه[١].

وكما ذكرنا فقد كان هشام - رحمه الله - يسير بسيرة عمر بن عبد العزيز في الرعية، فكان يبعث إلى البلاد قومًا عدولاً، يسألون الناس عن سير العمال (الولاة) فيهم، ثم ينصرفون إليه بما حملوا من أنباء، فيصرف ما يصرف من أعمالهم على وجهها الصحيح، أو يزيل من العمال من لم تُعجبه سيرته.

فقد اعترض له يومًا متظلم من أحد عماله، فأحضر الشاكي، وقال له: احلف على كل ما ظلمك فيه، فإن كان ضربك فاضربه، أو هتك لك سترًا فاهتك ستره، أو أخذ لك مالاً فخذ من ماله مثله، إلاّ أن يكون أصاب منك حدّاً من حدود الله، فجعل الرجل لا يحلف على شيء إلاّ أقيد (أُخِذَ) منه[٢].

وكان هشام كريمًا متواضعًا فاضلاً عاقلاً، لم تُعرف منه هفوة في حداثة سنه، ومن كرمه أنه كان يصر الأموال، ويخرج بها بين المغرب والعشاء، يتفقّد المسجد، فإذا وجد أحدًا يُصلي في المسجد أو لا يصلي، وضع بين يديه صرة، يقول ابن عذارى: «حتى كثرت عمارة المساجد»[٣].

ويقول المقري[٤]: ومن محاسنه أنّه جدّد القنطرة التي يُضرب بها المثل بقرطبة - وكان قد بناها السمح الخولاني عامل عمر بن عبد العزيز رحمه الله - فأحكم هشام بناءها إلى الغاية.

وقال يومًا لأحد وزرائه: ما يقول أهل قرطبة؟

---

(١) «البيان المغرب» (جـ٢ ص٦٧).
(٢) «البيان المغرب (٢/٦٦).
(٣) «البيان المغرب» (٢/٦٦).
(٤) «نفح الطيب» للمقري (١/٣٣٨).

فقال: يقولون: ما بناها الأمير إلاّ ليمضي عليها إلى صيده وقنصه

فآلى هشام على نفسه ألاّ يسلك عليها، فلم يمر عليها بعد، ووفى بما حلف عليه[١].

أما ابن عذارى فيقول: فحلف حين بلغه ذلك ألاّ يجوز عليها إلاّ لغزو أو مصلحة[٢].

وكان هشام جالسًا لراحته في علّية على النهر في حياة والده عبد الرحمن الداخل، فنظر إلى رجل من أهل جيّان من صنائعه، يقدم عليه الهاجرة، فانكر ذلك، وتوقع شرّاً وقع عليه من قِبَل أخيه سليمان، فامر بان يدخل عليه الرجل، وقال له: مهيم يا كناني، فلأمر ما جئت، وما أحسبك إلاّ مزعجًا لأمر ما دَهَمَك؟

فقال الرجل: نعم، يا سيدي، قتل رجل من قومي رجلاً خطأ، فحملت الدية على العاقلة فأخذ بها من كنانة عامة، وحمل على من بينهم خاصة، وقصدني أخوك بالاعتداء إذ عرف مكاني منك.

فمدّ هشام يَدَه إلى جارية كانت وراء الستر، وقطع قلادة عقد نفيس كان في نحرها، وقال له: دونك هذا العقد يا كناني، وشراؤه على ثلاثة آلاف دينار، فلا تخدعنّ عنه، وبعه، وأدّ عن نفسك وعن قومك، ولا تُمكن الرجل من اهتضامك.

فقال الرجل: يا سيدي، لم آتك مستجديًا، ولا لضيق المال عمّا حملته، ولكني لما اعتُمِدتُ بظلم صراح، أحببت أن يظهر عليَّ عزُّ نصرك، وأثرُ ذبّك وامتعاضك، فاتمجّد بذلك عند من يحسدني على الانتماء إليك.

فقال هشام: فما وجه ذلك؟

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) «البيان المغرب» (٢/ ٦٦).

فقال الرجل: أن تكتب إلى أخيك في الإمساك عني، والقيام بذمتك لي.

فقال هشام: أمسك العُقد، وركب من حينه إلى والده الداخل، واستأذن عليه في وقت أنكره، فانزعج، وقال: ما يأتي بأبي الوليد في هذا الوقت إلاّ لأمر مقلق، ائذنوا له. فلما دخل عليه سلّم، ومثل قائمًا بين يديه.

فقال له: اجلس يا هشام.

فقال: أصلح الله الأمير سيدي، وكيف جلوس بهمّ وذل مزعج، وحُقّ لمن قام مقامي لا يجلس إلاّ مطمئنًا، ولن يقعدني إلاّ طيب نفس بإسعاف الأمير لحاجتي، وإلاّ رجعت على عقبي.

فقال له: حاشى لك من انقلابك خائبًا، فاقعد مجابًا مشفعًا، فجلس.

فقال له أبوه: فما الحدث المقلق؟ . فأعلَمَهُ به.

فأمر أن يحمل الدية عنه وعن عشيرته من بيت المال؛ فسرّ هشام، وأطنب في الشكر، وكتب الأمير إلى ولده سليمان في ترك التعرض لهذا الكناني. ولما دخل الكناني لوداع هشام قال له: يا سيدي، قد تجاوزت بك حد الأمنية، وبلغت غاية النصر، وقد أغنى الله عن العقد المبذول بين يدي العناية الكريمة، فنُعيده إلى صاحبته، فأبى من ذلك، وقال: لا سبيل إلى رجوعه إلينا[١].

وكان زياد بن عبد الرحمن صاحب الإمام مالك في زيارة للمدينة، فوصف هشامًا له، فقال الإمام مالك: ليت الله – تعالى – زيّن موسمنا بمثل هذا[٢].

وكان لهشام بصمات، أو قلْ حسنات، حيث أنه أكمل سعائف المسجد الجامع بقرطبة، ورفع مناراته القديمة، وبنى الميضاة العجيبة[٣].

ومن حسناته أيضًا أنه أخرج المصدّق لأخذ الزكاة على الكتاب والسنّة[٤].

---

(١) «نفح الطيب» للمقري (١/٣٣٥).

(٢) المصدر السابق (ص٣٣٧).

(٣) ابن عذارى في «البيان المغرب» (٢/٦٨).

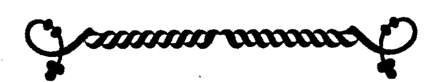
(٤) «نفح الطيب» (١/٣٣٥).

ويقول أحد قضاة عصره، وهو أبو معاوية: أدركت صدراً من الناس يحكون أن أيام هشام هذا كانت الدعة والعافية والهدوء، بحيث لم يعلم لها مثل، وكان يحضر الجنائز، ويُزاحم فيها، كأنه أحد من الناس تواضعًا.

وكان لبعض رجال هشام خصومة في دار عند القاضي مصعب بن عمران، فسجل عليه القاضي فيها، وأخرجه منها، فنهض الرجل إلى هشام، وقال له: إن القاضي سجل عليّ في داري التي أسكنها، وأخرجني عنها.

فقال له هشام: وماذا تريد مني، والله لو سجل على القاضي في مقعدي هذا لخرجت عنه[1].

وهذا يدل على أن هشامًا - رحمه الله - كان ملتزمًا في حكمه بكتاب الله وسنّة رسوله، وأنه لم يكن يقعده عن هذا قرابة قريب، أو صداقة صديق؛ ولهذا هدأت البلاد في عهده بما لم تألفه في عهود سابقة، ودرت فيها الخيرات، فأصبحت سابغة، لم تأخذه في الله لومة لائم، ولم يُتهم في حكمه بظلم، بل كان مثال العدل والحكمة - رحمه الله رحمة واسعة -.



(١) «البيان المغرب» (٢/٦٨).

ثورات إخوته ضده

كانت ظروفًا حرجة تلك التي تولّى فيها هشام بن عبد الرحمن الداخل عرش الأندلس، فلم يكد يجلس على العرش حتى فوجئ بعداء أخويه له: سليمان وعبد الله، فأما سليمان فكان أكبر إخوته؛ لهذا كان تطلعه للإمارة، وكانت نظرته أن يكون هو وليّ العهد على عادة الأمويين في المشرق، وأما عبد الله فقد كانت الإمارة في يده، يوم سلّمها له أبوه على أن يُعطيها لأول قادم إلى قرطبة، وقد فعل، وتاقت نفسه للإمارة، فانضم إلى أخيه سليمان، ووقفا من أخيهما موقفًا سلبيًا، فلم يتركاه ينهض بشؤون الإمارة، بل سارعا في تأليب الناس عليه، وإثارة الثورات ضده في كل مكان، وطلب الأمر جهارًا نهارًا دون مواربة، وهذا الموقف يُذكرنا بما تعرّض له والدهما من ألم نفسي؛ إذ لم يجد بدًا من قتل ابن أخيه المغيرة بن الوليد، ونفى أخاه الوليد وأسرته إلى المغرب، جلس عبد الرحمن مطرق الرأس حزينًا، ثم رفع رأسه وقال: «ما عجبي إلا من هؤلاء القوم (يقصد أقاربه وابن أخيه) سعينا فيما يضعهم في مهاد الأمان..... حتى إذا بلغنا مطلوبنا .... أقبلوا علينا بالسيوف»[٢].

وها هم أبناؤه يُعيدون الكرّة، ويرفعون السيوف في وجوه بعضهم البعض، فأما سليمان الذي كان يجاهر بعداوة أخيه هشام، فقد أقام في طليطلة، حيث توفّرت له أسباب الأمن، وتهيّأت له ظروف الثورة؛ فانتهز الفرصة، وأعلن خروجه عن طاعة أخيه، ورفع السيف في وجهه.

وأما عبد الله فقد خرج من قرطبة على أن يقيم بماردة، ولكنه لم يلبث أن ينضم إلى أخيه سليمان، سواء استدعاه سليمان، أم ذهب هو بنفسه، ويتحالفا ضد هشام، ويُعلنا الثورة ضده.

---

(١) أوردنا النص من قبل عن «نفح الطيب» للمقري (جـ١ ص١٥٥) .

وقد بلغ الأمر إلى تحدي سليمان أمر الأمير، ذلك أن سليمان حاول جاهداً أن يستميل وزير طليطلة غالب بن تمّام الثقفي؛ ليصبح مستشاره الخاص، ولكن غالبًا رفض هذا الأمر، فقد كان يرى أن ولاءه لا يكون إلاّ لأمير قرطبة، فغضب سليمان لذلك، فقبض عليه وألقاه في السجن.

وعلم الأمير هشام بتصرف أخيه، فكتب إلى سليمان أنه علم بما جرى للوزير غالب، وأنه - محافظةً على رجال الدولة المخلصين - يجب أن يعرف ماذا حصل بالتفصيل، وبدون إبطاء.

ولما وصل رسول هشام حاملاً رسالته إلى سليمان، غضب سليمان غضبًا شديداً، وأرسل وهو في غضبه، فأحضر غالبًا من السجن، وأمر به فصُلِبَ. ثم قال للرسول: «قل لسيدك يتركنا نحكم في مقاطعتنا الصغيرة هذه؛ فإن هذا لا يعدل الظلم الفادح الذي أنزله بنا».

وزاد على ذلك، فقال للرسول: «وقُصَّ عليه أيضًا ما رأيت من قيمة أوامره لنا»[١].

لما عاد رسول هشام، وبلّغه ما صدر من أخيه سليمان، قرر أن يخرج إلى طليطلة بجيش قويّ؛ ليؤدب أخويه سليمان وعبد الله، وكتب هشام إلى كل الولاة باعتبار أخويه خارجان على الدولة، هما وكل من يناصرهما أو يدعو لهما، وكتب بضرورة إغلاق البلاد في وجهيهما، وبعدم إيوائهما، و أعدّ جيشًا قويًا قوامه عشرون ألف فارس، واستعد للخروج إلى طليطلة[٢].

وأما سليمان، فإنه قد علم بالإجراءات التي اتخذها هشام ضده، فصال وجال، وأخذ البيعة لنفسه في طليطلة وما جاورها، وجمع حوالي خمسة عشر

(١) «الأمويون في الأندلس الأول» (ص١٥١) أحمد إبراهيم الشعراوي.
(٢) المصدر السابق نفسه.

ألف جندي، وخرج بهم مسرعًا يريد انتهاز الفرصة؛ ليصل إلى قرطبة، وقد خرج أخوه هشام منها؛ لعلّه يدخل العاصمة وهي خالية، فيستقر فيها ويُبايعه الناس، وقد ترك طليطلة لابنه وأخيه عبد الله ليدافعوا عنها، واصل سليمان السير، وكلُّه أمل أن يُدرك قرطبة خاوية ليس عليها أمير، ولكنه لم يكد يصل إلى جيَّان، ويقترب من حصن بلْج، حتى وجد جيش هشام أمامه، وتقع بينهما معركة فاصلة، يُهزم فيها سليمان، ويفرّ عائدًا إلى طليطلة.

وفي سنة (١٧٣هـ - ٧٨٩م) جهّز هشام جيشه، وخرج إلى أخيه سليمان بطليطلة؛ فحاصرها هشام حصارًا شديدًا، مما اضطر سليمان أن يخرج متخفيًا، وخلّف أخاه عبد الله وابنه داخل المدينة، واحتل بشَقُنده، وعندئذ خرج إليه أهل قرطبة يدفعونه عنها، وبلغ هشام الخبر؛ فاطمأن لدفاع أهل قرطبة عنها، وبعث ابنه عبد الملك يتتبعه، فلما اقترب منه فرَّ سليمان هاربًا، وخرج إلى جهة ماردة، فتصدى له عاملها حدير المعروف بالمذبوح، وهزمه، وظلّ هشام يحاصر طليطلة شهرين وأيامًا، ثم قفل عنها راجعًا[١].

وفي سنة (١٧٤هـ - ٧٩٠م) حضر عبد الله البَلَنسيّ إلى أخيه هشام من غير عهد ولا وعد، فأمّنه هشام، وأنزله عند ابنه الحكم[٢].

وقد وعد هشام أن يعامل سليمان معاملة عبد الله إن هو عاد وأقلع عن الفتنة التي أثارها، وقد أمّن هشام أهل طليطلة، ومنحهم العفو حين دخلوا في طاعته.

وفي السنة نفسها، وبعد استقرار الأوضاع في طليطلة، وجه الأمير هشام جيشًا كثيفًا إلى تدمير بقياد ابنه الحكم، ويساعده القائدان العظيمان: شُهيد بن عيسى، وتمّام بن علقمة، وكان سليمان مقيمًا بتدمير، فحاربوه، وأجبروه على

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) «البيان المغرب» (٢/٦٦).

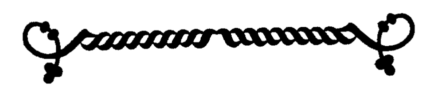
الفرار إلى إحدى قبائل البربر، في مرتفعات بلنسية. يقول ابن خلدن: وهرب سليمان إلى جبال بلنسية، فاعتصم بها[١].

ثم طلب سليمان من أخيه هشام العبور إلى عدوة البربر بأهله وولده، فأجازه هشام، وأعطاه ستين ألف دينار على تركة أبيه[٢].

ويقول نفس المصدر التاريخي[٣]: «وكان سليمان قد حصَّلَ عليه في بعض ثغور تدمير، فطلب سليمان الأمان؛ فاشترط عليه الأمير هشام الخروج عن الأندلس، ويعطيه ستين ألف دينار، فركب سليمان البحر بأهله وولده، واحتل بلاد البربر، فكفاه الله أمر أخوته»[٤].

واستأذن عبد الله من الأمير هشام؛ لكي يغادر الأندلس، ويذهب إلى إفريقية، ويعيش مع أخيه سليمان، وهكذا تأتي (١٧٥هـ - ٧٩١م) وقد ارتاح الأمير هشام من المشكلة التي شكّلت خطراً على دولته[٥].

وانتهت ثورة أخويه سليمان وعبد الله بأقل خسائر تذكر؛ فلم يلجأ إلى إيذاء أحد منهما، بل إنه أعطاهما الأمان عندما ملك زمام كل منهما.



---

(١) ابن خلدون (٤/١٥٩).

(٢) ابن عذارى في «البيان المغرب» (٢/٦٢).

(٣) ابن عذارى المصدر السابق.

(٤) «البيان المغرب» (٢/٦٢).

(٥) «الأمويون أمراء الأندلس الأول» (ص١٥١).

هشام والثورات الداخلية

أولاً - ثورة سعيد بن الحسين الأنصاري بطرطوشة:

كان سعيد قد التجأ إلى طرطوشة منذ مصرع أبيه الحسين بن يحيى الأنصاري، والتفَّ حوله اليمنية، وقام بثورة عامة في سنة (١٧٢هـ - ٧٨٨م) بطرطوشة، فدعا اليمنيين إلى الثورة، فانضم إليه خلق كثير، وقد اعتقد الثوار في الشمال أنه بموت عبد الرحمن الداخل قد أُتيحت لهم الفرصة لكي يشعلوها ثورة من جديد؛ فخرج بطرطوشة الوالي سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصاري، وثورة سعيد هذه بدأت منذ عُيِّن الأمير هشام واليًا جديداً على مدينة طرطوشة، ورفض سعيد أن يُسلم المدينة لواليها الجديد يوسف العبسي، وقام بالثورة ضد الأمير هشام، واستطاع موسى بن فُرتون بمساعدة المضرية، استطاع أن يهزم الثوار والاستيلاء على سرقسطة[١].

وحينئذ خرج عليه مولى للحسين بن يحيى الأنصاري في جمع كثير، فاقتتلا قتالاً شديداً، حتى قيل أن موسى بن فرتون قُتل في هذه المعركة.

وقد انتهت هذه المعركة بمقتل سعيد بن الحسين في (١٧٤هـ - ٧٩٠م) على يد والي بلنسية أبو عثمان، فقد تظاهر سعيد بن الحسين بالانسحاب، وتتبعته قوات بلنسية، وكان قد نصب لها كميناً، فقتل منها عدداً كبيراً، وكان موسى بن فرتون في عداد القتلى، وحينما علم الأمير هشام بذلك أصدر أوامره إلى والي غرناطة ووالي مرسية أن يرسلا قواتهما إلى بلنسية؛ ليكونا تحت قيادة أبي عثمان والي بلنسية الجديد الذي قاد الحملة ضد الثوار، فقتل سعيد بن الحسين، وقضى على الثورة نهائياً.

---

(١) المصدر السابق (ص١٥٦) .

ثانيًا - ثورة مطروح بن سليمان بن يقظان:

كان سليمان بن يقظان حليفًا لملك الفرنج شارلمان، ضد عبد الرحمن الداخل، ولما استتب الأمر له زحف ليحتل سرقسطة، وكانت قوات الأمير هشام قد خلصتها من يد الثوار، كذلك احتل وَشْقة والثغر كله.

وفي عام (١٧٥هـ - ٧٩١م) جهّز الأمير هشام جيشًا بقيادة أبي عثمان عبيد الله ابن عثمان، وأمره أن يزحف عل سرقسطة حيث يوجد بها مطروح ابن سليمان، فحاصرها عبيد الله، ثم احتل مدينة طرشونة، وألح على سرقسطة بالحصار، وضيَّق عليها الخناق، حتى ضاق ذرع أهل سرقسطة، وضجوا من تمادي الحصار، وفكروا قبل أن يسلّموا المدينة، ولكن مطروحًا كان يعارض تسليم المدينة، واستبدّ برأيه، وصبر عليه أصحابه، ثم أضمروا له عداءً شديداً، بسبب استبداده برأيه، وإكراههم على غير ما يرغبون.

وفي يوم من الأيام خرج مطروح ليتصيد، وخرج معه صاحباه: عمرو بن يوسف وابن صلتان، فلما أرسل بازيه على طائر، ونزل على الصيد تعاوراه بسيفيهما حتى قتلاه، واحتزا رأسه، وتقدما به إلى أبي عثمان وهو بطرسونة، فتحرك إلى سرقسطة، فلم يمتنع عليه أحد من أهلها، ودخل المدينة، ونزلها، وبعث برأس مطروح إلى الأمير هشام(١).

ثالثًا - ثورة أبو الحجاج بهلول:

انتهز أبو الحجاج فرصة خلاف أبناء عبد الرحمن الداخل هشام وسليمان وعبد الله، و قام هو داعيًا للثورة لنفسه، فاستولى على سرقسطة، وسرعان ما دانت له، وانضمّ إليه الحكام في برشلونة، ووشقة، ووصل الخبر إلى أبي عثمان، حاكم بلنسية، فأعدّ جيشًا كثيفًا من الفرسان والمشاة، وخرج إلى الثوار، واشتبك معهم في معارك عدة، خلّص بها المدن التي احتلوها.

---

(١) «البيان المغرب» (جـ٢ ص٦٣).

بعد ذلك شعر أبو عثمان أن الناس في هذه المنطقة قد ملّوا الثورات، وكرهوا الفتن والاضطرابات، فانقلبوا على الثوار، وحاربوهم، وأعلنوا الولاء للحاكم الشرعي هشام، فكتب أبو عثمان بذلك إلى الأمير هشام، ففرح هشام بذلك، وأمر أبا عثمان أن يبقى في منطقة الحدود ليؤمّنها، وينتظر المدد الذي سيأتيه من قبَل الأمير هشام؛ حتى يستطيع استعادة البلاد التي فقدها المسلمون في تلك الناحية.

رابعًا - ثورة تاكُرُنَّا:

اضطرب تاكُرنا في عام (١٧٨هـ - ٧٩٤م) بالثورة، وخرج البربر في فتنة عمياء، وأغاروا على الناس، فقتلوا من المسلمين وسبوا كثيرًا، وبعث الأمير هشام، فحذرهم وانذرهم عاقبة ثورتهم، ولكنهم لم يرتدعوا، فبعث إليهم جيشه، فقتل أكثرهم، وفرّ عدد كبير منهم إلى طلبيرة وبَرْجيلة، وراحوا يعيثون في الأرض، وخلعوا الطاعة، وقطعوا الطريق، فبعث الأمير إليهم جيشًا.

وظلت تاكرنا سبع سنوات بلادًا خالية قفرًا، بعد أن أعمل فيهم قائدَهُ عبد القادر بن إبان القتل، حتى أبادهم قتلاً وسبيًا.

الحرب ضد الفرنج (نصارى الشمال):

كان نصارى الشمال، منذ اشتدّ ساعدهم، يُكثرون الإغارة على البلاد الإسلامية والعبث فيها، ويشتد هذا العبث والعدوان كلما اضطرمت الأندلس بالفتن الداخلية، وشغلت حكومة قرطبة عن حماية الأطراف النائية، وفي المقابل أشاع الناس في أوائل حكم الأمير هشام بن عبد الرحمن أن الأمير لا يُقاتل إلاّ أهل دينه؛ وذلك لكثرة الفتن التي حدثت في عهده، سواء من إخوانه، أو من الخارجين عليه، وقد استغرق ذلك فترة طويلة من أوائل سِني حكمه، أي من

(١٧٢هـ - ٧٨٨م) إلى (١٧٥هـ - ٧٩١م)، فقال الناس لا خير في أمير لا يُحارب إلاّ بني دينه من المسلمين[١].

وكان الفرنج جريًا على سياستهم المأثورة، يُشجعون النصارى من البشكنس والجلالقة على التحرش بالمملكة الإسلامية.

أما هشام فبالإضافة إلى ما قيل عنه، فإنه كان كأبيه يُقدّر خطورة هذه الدسائس الفرنجية، وتحدوه من جهة أخرى نزعة قوية إلى الجهاد والغزو، فما كاد ينتهي من القضاء على الثورة الداخلية، حتّى سيَّر إلى الشمال جيشًا قويًا من أربعين ألف مقاتل بقيادة عبيد الله بن عثمان، فاخترق ألبة والقلاع (قشتالة القديمة) واجتاح جليقية، وهزم الجلالقة بقيادة ملكهم برمودو (أوبرمند) وحلفاءهم البشكنس، وفرّق جموعهم سنة (١٧٥هـ - ٧٩١م) ، وعاد إلى قرطبة مثقلاً بالغنائم والسبي، ولم يمضِ قليل على ذلك حتى سارت إلى جليقية حملة أخرى بقيادة يوسف بن بخت، وهزم برمودو مرة أخرى، وقتلت جموع كبيرة من النصارى، وعلى أثر ذلك تنازل برمودو عن العرش لألفونسو الثاني ولد فرديلا، وأمير جليقية الشرقية، ولجأ إلى عزلة الدير.

وفي العام التالي سنة (١٧٦هـ - ٧٩٢م) تأهب هشام لمحاربة الفرنج، واستئناف الغزو والجهاد، فسيّر إلى الشمال جيشًا كثيفًا، بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث - وهو حينئذ مغيث الرومي فاتح قرطبة - فعبر البرنية من ناحية قطلونية، واستولى أبناء سيرة على مدينة جيرونة (جرنده) الحصينة في قاصية شمال شرق أسبانيا، وكان الفرنج قد استولوا عليها منذ سنة (٧٨٥م) من يد مطروح بن سليمان، وكان حكام هذه الأنحاء التي لبثت تضطرم بالثورة على حكومة قرطبة، منذ غزوة شارلمان الأولى لأسبانيا، وقد اشتغلوا بما في أيديهم من

(١) «تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس» (ص٢١٦) .

المدن، وجنحوا إلى محالفة الفرنج جيرانهم من الشمال، والتماس حمايتهم، ومن ذلك أن أبا ثور صاحب مدينة وشقة، والذي سبق ذكره في معركة باب الشزري (ترنسڤال) بعث رسله إلى تولوشة عاصمة أكوتين يطلب التحالف مع ملكها الدوق لويس ابن شارلمان (٧٩٠م)[١].

واستولى الحاجب عبد الملك بعد ذلك على عدد آخر من المعاقل والحصون، ثم نفذ إلى سبتمانيا، وزحف على أربونة قاعدة الثغر الإسلامي القديم، وقد فتح المسلمون خلال تلك الغزوة أربونة[٢].

وكان شارلمان (أو كارل الأول) ملك الفرنج يشتغل يومئذ بمحاربة خصومه السكسونيين بعيداً عن فرنسا، فتأهب ولده لويس أمير أكوتين لصد العرب، وأوفد لمحاربتهم جيشاً بقيادة چيوم كونت دي تولوز؛ فالتقى الفريقان في مكان يُسمى «ڤيل دفي» على ضفاف نهر أوربنيا بين أربونة وقرقشونة، ونشبت بينهما موقعة غير حاسمة، ارتدّ المسلمون على أثرها إلى الجنوب مثقلين بالغنائم والسبي، وقدرت أخماس السبي وحدها بخمسة وأربعين ألفاً من الذهب، وأرغم الأسرى النصارى على حمل أو جرّ أحمال من الأحجار والتراب من سور أربونة حتى قرطبة، وأمر هشام أن يُبنى منها جناح جديد للمسجد الجامع؛ تخليداً لتلك الغزوة الشهيرة.

وفي ربيع سنة (١٧٩هـ - ٧٩٥م) سيّر هشام إلى جليقية حملة أخرى بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، أخي الحاجب؛ فاخترق المسلمون مفاوز جليقية حتى استرقة، ففرَّ السكان النصارى إلى رؤوس الجبال، وتأهب ألفونسو ملك جليقية للقاء المسلمين، على رأس جيش من الجلالقة وحلفائهم البشكنس،

---

(١) «دولة الإسلام» د/عنان. ق١ - ع١ (ص٢٢٧).
(٢) ابن الأثير (جـ٦ ص٤٥).

ونشب القتال بين الفريقين في قاصية جليقية، في المكان المعروف بالصخرة، وانتصر الجلالقة في البداية في بعض الوقائع المحلية، وقُتل جماعة من المسلمين في كمين دُبّر لهم، ولكن النصارى هزموا في النهاية، وعاث المسلمون في جليقية، وأصابوا كثيراً من الغنائم، ثم ارتدوا إلى الجنوب بعد أن مزقت قوى الجلالقة وسكنوا إلى حين، وساد الأمن في الولايات الشمالية(١).

كانت هذه آخر غزوة غزاها هشام، إذْ توفيَ عقب ذلك بقليل في (الثالث من صفر سنة ١٨٠هـ ـ ١٨ أبريل سنة ٧٩٦م)، وكان في نحو الأربعين من عمره بعد أن حكم نحو ثمانية أعوام.

ونلاحظ من هذه الغزوات أن الأمير هشام استطاع أن يُرغم النصارى على الوقوف عند حدودهم؛ فقد كانوا برغم ضراوتهم في القتال، واستبسالهم وشجاعتهم عاجزين عن وقف الأمير هشام عند حد، وعاجزين أيضاً عن ردّه عن تنفيذ خطته التي رسمها لوقف هذه المؤامرات، وتأمين حدود مملكته.

ففي خلال السنوات الخمس، استطاع أن يشن على نصارى أوروبا غزوات متتالية، استولى فيها على أراضيهم، ولم تنجُ العاصمة (أوفييدو) من الاحتلال برغم التحالف الكبير الذي استطاع ألفونسو الثاني أن يتمتع به، والذي لم يمنع من احتلال المسلمين لتلك العاصمة وتخريبها، وإلقاء الرعب والفزع بين سكانها، حتى استكانوا وخضعوا للمسلمين راضين أو مكرهين.



(١) ابن الأبار في «الحلة السيراء» (ص٧٢)، و«البيان المغرب» (جـ٢ ص٦٦).

هشام الإنسان ورجل الإنجازات

ذخرت بلاد الأندلس في عهد هشام بإصلاحات كثيرة، وإنشاءات فخمة، ومن هذه الإنشاءات: المسجد الجامع بقرطبة، الذي أنشأه أبوه عبد الرحمن وتوفي قبل أن يتمه، فقام هشام بإتمامه، والمسجد واقع في مساحة ضخمة طولها (٦٠٠) قدم، وعرضها (٢٥٠) قدم، وهو يضم (٣٨) قوسًا عرضًا، و(١٩) قوسًا طولاً، وهذه الأقواس ترتكز على أعمدة رخامية فخمة، يبلغ عددها (١٠٩٣) عمودًا، وتُعتبر قبابه بالنقوش الجميلة الرائعة، آية في حسن الذوق، والفن الجميل، ويُضاء المسجد بأربعة آلاف وسبعمائة مصباح، يستخدم في إيقادها أربعة وعشرون ألف رطل من الزيت في العام الواحد.

كذلك كان يستهلك مئة وعشرون رطلاً من العنبر والطيب، حتى تشيع في أرجاء المسجد الرائحة الذكية، ومشكاة المحراب تُعتبر أكبر مصابيحه، وكانت مصنوعة من الذهب الخالص، تُزيّنها النقوش والزخارف الجميلة.

وأما أبواب المسجد فهي تسعة عشر باباً، تغطيها طبقة من البرونز المنقوش، ويقع الباب الرئيسي في الوسط، وهو محلى بقطع من الذهب التي تغمر وجهه، وعلى جانبيه تقع الأبواب الأخرى: تسعة عن يمينه، وتسعة عن شماله، و لا تزال آثار المسجد باقية إلى الآن، تشهد بعظمة الفن الإسلامي.

وقد أضاف هشام إلى جانب ذلك كله، أشياء لا يستغني عنها المسجد، حيث بنى سقيفة خاصة لتصلي فيها النساء، وبنى الميضأة في شرقي المسجد، وأقام المئذنة.

ولم يكن هذا المسجد محل اهتمام الأمير هشام وحده، بل إنه أمر بعد إتمامه

وإكماله ببناء مساجد عدّة في أنحاء الأندلس، وهذا يدل على تدينه وورعه، بحيث كانت الإصلاحات الدينية تغلب على تصرفاته، ومن ذلك المسجد الذي بناه أمام باب الجنان، والذي بناه بالحجارة والتراب الذي سقط من سور أربونة، وأمر أهل البلاد النصارى تصغيرًا لهم واحتقارًا أن ينقلوا أحمالاً منه إلى باب قصره بقرطبة»[١].

ولم يقتصر اهتمام هشام بالعمارة الدينية فقط، بل كان يعني بالعمارة المدنية كعمارة قنطرة قرطبة على نهر الوادي الكبير، وكان والي قرطبة في عهد عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – السمح بن مالك، قد بناها بأمر من الخليفة، وكانت قبل ذلك قنطرة رومانية، قد تهدّمت فأقامها السمح، وبناها من الطوب المحروق (الأحمر) (١٠١هـ – ٧٢٠م) ولكنها لم تلبث أن هُدمت مرة أُخرى (١٦٢هـ – ٧٧٩م)، وظلت هكذا حتى عهد الأمير هشام الذي بذل عناية كبيرة في إعادة بنائها تحت إشرافه، وقد وصفها المؤرخون ومنهم المقري وصفاً رائعًا يدل على روعتها، فقال:

«والقنطرة التي عند هذا النهر عند قرطبة من أعظم آثار الأندلس، وأعجبها، وأقواسها سبعة عشر قوسًا».

ويقول نقلاً عن ابن حيان: «إن قنطرة قرطبة إحدى أعاجيب الدنيا، وطولها ثمانمائة ذراع، وعرضها عشرون ذراعًا، ويمدد حناياها ثمان عشرة حنية، وعدد أبراجها تسعة عشر برجًا»[٢].

وقد أمر هشام ببناء نافورة في العاصمة قرطبة لتزيينها وتحسينها، واختار لذلك أحد الميادين العامة، وكانت النافورة قطعة فنيّة نادرة، وتُعرف هذه النافورة

---

(١) «نفح الطيب» للمقري، وانظر «الأمويون أمراء الأندلس» (ص١٧٧).
(٢) المصدر السابق (ص١٧٧).

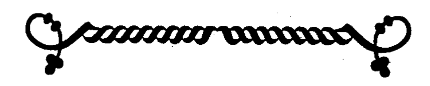
(بعين فرقد) نسبة إلى بانيها فرقد العدواني القرطبي، وبلغت قرطبة من القوة وكثرة العمارة، وازدحام الناس مبلغًا لم تبلغه مدينة .

ويذكر ابن فيّاض في « أخبار قرطبة » قوله : « كان بالربض الشرقي من قرطبة مئة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصحف بالخط الكوفي في ناحية من نواحي قرطبة » .

وفي المعجب في « أخبار المغرب » يقول صاحبه « وسمعت ببلاد الأندلس من غير واحد من مشايخها : أن الماشي كان يستضيء بسروج قرطبة ثلاثة فراسخ لا ينقطع عنه الضوء »(١) .

وقرر هشام جعل اللغة العربية لغة التدريس في معاهد النصارى واليهود، وقد هدف من ذلك التقريب بين المسلمين والنصارى، وخلق روح التفاهم بين أصحاب الأديان المختلفة، وتعريفهم بسماحة الإسلام وشرائعه .

وكان هشام شديد الورع والتقوى، وكان شغفه بالجهاد وإعلاء كلمة الدين من أخص مظاهر تقواه، وكان يُنفق الأموال الطائلة في افتداء أسرى المسلمين، حتى لم يبقَ في عهده أحد منهم في قبضة العدو، ويرتب في ديوانه أرزاقًا لأُسَر الجند المتوفين في الجهاد(٢) .



---

(١) «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» تحقيق/ محمد سعيد العريان (ص٤٥٦) .
(٢) «أخبار مجموعة» (ص١٢٠) .

مذهب الإمام مالك في الأندلس

كان هشام يُؤثر مجالس العلم والأدب ولاسيما الحديث والفقه على غيرها، وفي عصرٍ ذاعَ فيه مذهب الإمام مالك.

وكان هناك إعجابًا متبادلاً بين الإمام مالك إمام دار أهل الهجرة والأمير هشام ابن عبد الرحمن الداخل، فلما وصل زياد بن عبد الرحمن، ووصف هشامًا للإمام مالك أُعجِبَ به، وتمنّى أن يُزيّن الله موسم الحج بهشام فقال: «ليت أنّ الله - تعالى - زيّن موسمنا بمثل هذا»[١].

وأما هشام فقد بلغه ثناء الإمام عليه، وتمنيه ما تمنى، أحب الإمام، وقرب الذين ينتسبون إلى مذهبه، وعيّنهم في الوظائف العامة، وجعلهم خاصته والمقربين إليه.

هذا الإعجاب المتبادل، سهّل للمذهب الدخول إلى الأندلس، والاستقرار فيها، ولم يكن دخول المذهب إلى الأندلس في عهد هشام، ولكنه سبق ذلك بكثير، نعم إنه دخل إلى الأندلس في عهد الإمام مالك نفسه، كان أصحاب المذهب مبثوثين في نواحي الدولة المختلفة، فكان أبو حنيفة في العراق، والأوزاعي في الشام، وكان أرباب كل مذهب يحاولون بثه ونشره في كل مكان ينزلون فيه، ولكن المذهب الحنفي كان بغيضًا ومكروهًا عند الأمويين؛ لأنه مذهب خصومهم العباسيين؛ لهذا كان عبد الرحمن الداخل، يُقرِّب مذهب الإمام الأوزاعي الشامي، وكان يتعامل معه على أنه المذهب المعترف به رسميًا، فقد كانت الشام مقر الخلافة الأموية، وليكن ما يأتي منها حبيب إلى كل أموي، وظلت الولاية في عهد عبد الرحمن للمذهب الأوزاعي.

---

(١) «نفح الطيب» (١/ ٣٣٧).

وظهر مذهب الإمام مالك في المدينة المنورة، وأقبل عليه كثير من أهل الأندلس يدرسونه على يدي الإمام، ويتفقّهون في الدين على مذهبه، ولما بلغ الأمير هشام إعجابه به، بذل كل جهده لنشر المذهب المالكي، وكان يمنح كل التسهيلات لمن يريد دراسة هذا المذهب، فيسهل له السفر إلى المدينة المنورة، ويُعينهم في نفقات السفر، وحالة الإعاشة، ومن عاد منهم يتخير الأمير منهم القضاة، ومن يعينهم في الوظائف العامة.

وفي ظل ظهور مذهب الإمام مالك لم يستطع صعصعة بن سلام الشامي، الذي كان يشغل منصب الإفتاء وصاحب الصلاة في قرطبة، أن يصمد أمام المذهب الجديد الزاحف على الأندلس، فقد كانت تساند المذهب الجديد قوّتان[١]:

الأولى: هي وجود أحفاد الأنصار الذين كانوا يتمتعون بعادة التمسك بالتقاليد، ويغلبونها على أي شيء سواها، فهؤلاء اتخذوا مذهب مالك مذهبًا لهم، وعكفوا على الموطأ يدرسونه ويتعاملون به، كإرث من ميراث مدينتهم، وظاهرة حضارية من المظاهر التي كانوا يعتنقوها بالعادة.

الثانية: أما القوة الثانية التي كانت تُساند مذهب الإمام مالك فهي هؤلاء الدارسون الذين ذهبوا إلى المدينة، وتحملوا مشاق السفر، وظلوا في الغربة يُعانون من فراق الأهل والوطن، حتى حملوا هذا العلم، ورجعوا به، ويؤيد هؤلاء الأمير هشام حاكم الأندلس.

وفي السنوات التي تلت موت الإمام مالك، بقي أناس من الأندلسيين يُتابعون دراسة مذهبه، منهم: زياد بن عبد الرحمن (شبطون) وعيسى بن دينار، والفقيه القرطبي المعروف بيحيى بن يحيى، ويحيى بن مضر.. هؤلاء هم الذين عرَّفوا

---

(١) «الأمويون في الشرق والغرب» د/ الوكيل (جـ٢ ص١٨٣).

الإمام مالك بحاكم الأندلس حينئذ، وذكروا له صفاته وأخلاقه حتى أُعجب به الإمام مالك، وهؤلاء عادوا جميعًا إلى الأندلس، وكانوا خير دعاة لهذا المذهب الذي حملوه من المدينة المنورة.

وأول من أدخل مذهب مالك بن أنس إلى الأندلس، هو أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون، وكان قد رحل إلى المشرق بعد عام واحد من إمارة هشام، وذهب إلى المدينة، وأخذ العلم عن الإمام نفسه، وشبطون هذا هو أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس كاملاً[١].

وأخذ عنه الفقيه يحيى بن يحيى، وأشار إليه زياد أن يذهب إلى مالك مادام حيًّا ففعل، وذهب إلى مالك وسمع منه الموطأ، كما سمع بمصر من الليث بن سعد، وعبد الرحمن بن القاسم، وسمع بمكة من سفيان بن عيينة.

وعندما عاد يحيى بن يحيى الليثي إلى الأندلس، بذل جهده في نشر مذهب الإمام مالك، وتولى الرئاسة في الفقه والقضاء، ونال مكانة سامية لدى الأمير، وأصبح إمام عصره[٢].



---

(١) «الديباج المذهب» لابن فرحون المالكي (١ / ٣٧٠).

(٢) «تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس» (ص٢١٩)

وداعًا الأمير هشام

ظلَّ هشام مجاهدًا، ولم تمنعه عقيدته الخالصة لله من أن يختار خليفته من بعده، فأرسل الكتب إلى الولاة والوزراء، وحكام الولايات، وكتابها، والحاجب والقضاة ورئيسهم، فاجتمعوا عنده، وأخذ البيعة لابنه الحكم، وكان ذلك في عام (١٧٩هـ - ٧٩٥م) أي تمّ ذلك قبل وفاته بعام واحد، وكان عُمر الحَكَم آنذاك اثنين وعشرين عامًا.

وظلّ هشام يُدرب ابنه الحكم وليّ عهده على أعمال الحرب، والغزوات، فيوليه قيادة الجيوش، ويدربه كذلك على الحُكْم، فيوليه ولاية طليطلة، ولا يتوقف عن النصح له طيلة السَّنَة التي عاشها بعد أخذ البيعة لابنه ووليّ عهده، ويزجي إليه من علمه وحكمته؛ لكي يسوس البلاد، فكان يقول له:

« يا بنيّ يجب ألاّ تنسَ أن الملك لله يُعطيه لمن يشاء، ويأخذه ممن يشاء، وقد منحنا الله السلطة، ووضع في أيدينا صولجان الملك، برحمته الواسعة، فعلينا أن نقدم له الحمد والشكر على نعمائه، وأن ننفّذ إرادته بالمعاملة الطَّيّبة لكل النّاس، خاصة أولئك الذين يلجؤون إلينا طالبين حمايتنا؛ كنْ عادلاً سويًا مع الفقراء والأغنياء، ولا تترك للظلم سبيلاً إلى دولتك؛ فالظلم طريق الضياع، وكن في ذات الوقت رحيمًا عطوفًا على من يعتمد عليك، فكلهم خلق الله ».

ثم يوصيه ألاَّ يَدَعَ عقاب الوزراء والحكام الذين يميلون مع الهوى، ولا يعدلون في شعبه، ويوصيه بأن يكون معهم حازمًا قويًا، ويوصيه بكسب حب الشعب؛ لأن في تعاطفهم أمان للدولة، وفي خوفهم يكمن الخطر، وفي كرههم يكمن الانهيار المحقق(١).

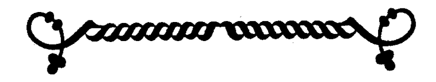
---

(١) «الأمويون أمراء الأندلس» (ص٢٠٤) .

ويوصيه بالفلاحين؛ لأنهم الذين يعملون ليوفروا قوتَ الشعب الضروري.

وأخيراً يختم هشام نصائحه بقوله: وعلى الجملة، فاحكم بطريقة تجعل ألسنة شعب تلهج بشكرك، وهم يعيشون سعداء في ظل حمايتك وعطفك، يجنون مباهج الحياة في ثقة وهدوء، ففي كل هذا يكون الحكم الصالح، فإذا استطعت تحقيق ذلك كنت سعيداً، وجنيتَ الشهرة كأعظم أمير في العالم[١].

وقد توفي الأمير هشام الداخل في عام (١٨٠ هـ في شهر صفر)، لسبع سنين، - وقيل لثمان - من إمارته، رحم الله الأمير هشام، فقد مات وعمره أربعون سنة وأربعة أشهر[٢].



(١) المصدر السابق (ص٢٠٥).
(٢) «نفح الطيب» (١/٣٣٨).

أهم المصادر والمراجع

١ – الكامل – لابن الأثير ط صادر.

٢ – نفح الطيب – للمقري.

٣ – جذوة المقتبس – للحميري.

٤ – تاريخ الطبري ط دار إحياء التراث بيروت.

٥ – دولة الإسلام في الأندلس – د/ عبد الله عنان – مكتبة الخانجي، مصر.

٦ – البيان المغرب – لابن عذاري المراكشي.

٧ – الخلافة الأموية – عبد المنعم الهاشمي – دار ابن حزم – بيروت.

٨ – الخلافة العباسية – عبد المنعم الهاشمي – دار ابن حزم – بيروت.

٩ – فجر الإسلام – د/ حسين مؤنس.

١٠ – الإسلام في الأندلس – رينهرت دوزي – ط هيئة الكتاب مصر.

١١ – تاريخ ابن خلدون – ط الأفكار الدولية.

١٢ – تاريخ افتتاح الأندلس – لابن القوطية.

١٣ – تاريخ المغرب – د/ حسين مؤنس.

١٤ – أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس.

١٥ – الإحاطة لابن الخطيب.

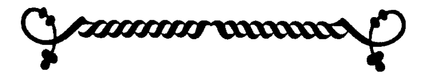
١٦ – تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس – د/ عبد العزيز سالم.

١٧ – تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. تاليف هـ.أ.ل فيش –ط٣– دار المعارف.

١٨ – قصة الحضارة – وول ديورانت.

١٩ – فتوح مصر وأخبارها – لابن عبد الحكم.

٢٠ – الروض المعطار.



فهرس

